

الدكتور خالد الصوّي

الباحثون

مَارِجُ الْعَرَبِ فِي سِيَاهِيَا



نهاية الخلاقة
الأموية

في الأندلس



الله لا إله إلا هو لا يحيي الا ما أحيى لا يميت الا ما مات

الله لا إله إلا هو

الله لا إله إلا هو

نشر و توزيع
مكتبة دارالشوف

بحلب



مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْعَرَبِ

www.lisanarb.com

front

تأريخ العرب في إسبانيا
نهاية الخلافة الاموية في الاندلس

B

al-Sufī, Khalid

/ Tarikh al-‘Arab fi
Iṣbanya /

الكتور
خالد الصوّفي

بِلِكِيْخِ الْعَرَبِ فِي إِسْبَانِيَا
نهاية الخلافة الأموية في الأندلس

N. Y. U. LIBRARIES

الطبعة الأولى

مشروط
مكتبة ولد الشهيد جلب
عبدالستار عيش
حلب - بناة العباس - لفاقت ١٢٧٢

Near East

DP

102

.S9

c.2



المقدمة

كنت قد ذكرت في مقدمة كتابي عن « جمهورية بنى جبور » اني سأعمل في المستقبل القريب واذا تيسر لي الظروف الى « القيام بالباحث اخرى في تاريخ العرب في اسبانيا تتناول فترات سبقت عصر ملوك الطوائف و كانت تشكل جزءاً منه او اتت بعده ». وها اني اجد نفسي الان امام بحث قد اتحمط اعداده واصبح جاهزاً للنشر وهو يتناول الفترة التي سبقت انهيار الخلافة الاموية في الاندلس وتخزو البلاد الى عدد كبير من الدوليات الصغيرة .

الجلت في هذا البحث تاريخ السنوات الواقعة بين ٤٢٢ - ٤٩٩ هـ (١٠٣١ - ١٠٠٩ م) بالتفصيل ، ذاكراً كل الحوادث اليمامة التي جرت خلالها ، محاولاً في بعض الواضع تعليها وتفسيرها وابداء وجهة نظرى الخاصة فيها .

هذا وربما تسأله البعض : لماذا بدأت كتابي بتاريخ ٤٩٩ هـ ١٠٠٩ م ولم ابدأ بتاريخ آخر قبله او بعده ؟

اجيب على ذلك بأن هذا التاريخ المذكور هو نهاية حكم الحاجب عبد الملك المظفر بن ابي عامر وبداية حكم اخيه عبد الرحمن بن ابي عامر ،

فإذا علمنا بأن الأول كان آخر الحجاج الأقواء الذين حكموا الاندلس وأن البلاد قد مرت بعده ومنذ تولي أخيه الحجاجة في فترة من الفوضى العارمة والضعف وعدم الاستقرار الذي أدى بحكومتها الخلافية إلى انهيار إذا علمنا كل ذلك ادركنا السبب الذي جعلنا نحدّد سنة ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م نقطة بداية لبحثنا عن انهيار الخلافة الاموية في قرطبة .

منذ هذا التاريخ لم تعرف إسبانيا العربية الاستقرار ولا تعمت فترة طويلة من السلام والطمأنينة . مما تكاد تحمد ثورات حتى تقوم غيرها وما يكاد يقوم خليفة حتى يظهر من ينافسه ويقلب عليه إلى أن انهي الأمر بسقوط الخلافة وانقسام البلاد إلى عدد كبير من المالك اطلق المؤرخون على حكامها اسم ملوك الطوائف .

فتاريخ ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م اذن هو حد فاصل بين الاندلس القوية المزدهرة المتصرّة : اندرس السلالة الاموية الحاكمة وبين الاندلس المهزّأة المتباذلة الضعيفة التي كانت تفقد ممتلكاتها شيئاً فشيئاً أمام غزوات الدول المسيحية الشاهية حتى تكنت هذه من استرجاع البلاد نهائياً من أيدي العرب الذين مكثوا فيها حوالي ثانية قرون .

إن السنوات الثلاث والعشرين الواقعة بين تسلّم عبد الرحمن بن أبي عاصي منصب الحجاجة وإلغاء الخلافة الاموية كانت مليئة بالثورات الدموية والانقلابات السياسية والتنافس على منصب الحكم .. وليس أدل على ذلك من أنه حكم في تلك الفترة القصيرة من الزمن تسعة خلفاء شغل خمسة منهم منصب الخلافة مرتين وإن بي حمود من البربرة استطاعوا أن ينتزعوا الخلافة من أيدي الامويين مدة سبع سنوات كاملة .

لقد تناول معظم المؤرخين العرب القدماء هذه الفترة بالبحث ، كما

كما تعرض لها بعض المؤرخين المحدثين ، الا ان احدا من الجانبيين لم يحاول ان يجمع في بحث واحد الاسباب البعيدة والاسباب المباشرة لسقوط الخلافة الاموية الاندلسية . فكنا نرى البحث يتناول جانبا دون آخر .

لقد حرصت في بحثي هذا على ذكر اهم الاسباب البعيدة التي ادت الى الفتنة العارمة التي بدأت تنتشر في اجزاء البلاد منذ سنة ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م ، متبوعا ايها بذكر العوامل المباشرة او بالاحرى الواقع التي قادت خلافة قرطبة الى مصيرها في سنة ٤٢٢ هـ = ١٠٣١ م .

هذا وقد رأيت ان اخصص في مطلع البحث حلقة استعرض فيها بشكل سطحي حكم السلالة الاموية في اسبانيا كي يستطيع المطالع تكوين فكرة ولو بسيطة عن تطور هذه الخلافة وعظمتها قبل ان تراكم الاسباب وتتكاثر العوامل التي ادت الى نهايتها .

اننا حين نطلع على هذه الحقبة من تاريخنا في غرب البحر الابيض المتوسط نرى بوضوح العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. التي اثرت على الحكم العربي الاسلامي في اسبانيا فاضعفته . ان معظم هذه العوامل هي نفسها التي تتدخل في اضعاف الدول ، القديمة منها والحديثة . ولذلك فان معرفة الانسان بها وبناتجها تساعده على محاولة تفاديه والوقوع تحت تأثيرها كي يتمكن من الحافظة على وحدة بلاده وقوتها وبيقها بعيدة عن المؤشرات الضارة .

هذا واتي اود ان اشير هنا الى اتي اعمل الان في تاريخ الفترة التي حكم الاندلس فيها الحاجظ المظفر المنصور محمد بن ابي عامر وابنه عبد الملك المظفر في ظل الخليفة هشام الثاني المؤيد ، فاذا استطعت استكمل

هذا البحث الطويل واعداده كا يجحب امكنتي ان اعطي صورة عن قوة العرب الاندلسيين آنذاك وعن اتساع نفوذهم في العالم الخارجي ووصول دولتهم الى درجة من الازدهار والحضارة فاقت بها كل مستوى حضاري آخر في العالم آنذاك ، فحتى يحين موعد انتهاءي من هذا الموضوع الاخير اقدم الان بحثي عن آخر سنوات الخلافة الاموية في الاندلس آملان اكون قد استطعت بهذا ان اضع الحقائق عن هذه الفترة في متناول الجميع . نسأل الله التوفيق .

خالد الصوفي



الفِتْمَةُ الْأُولَى
شِبْذَةٌ عَنْ
الرَّوْلَةِ الْفَهْمُوَيَّةِ فِي الْفَهْنِسِ

مِنْ ٩١ - ٣٩٩ م

مِنْ ٧١١ - ١٠٠٩ م

الحلقة الاولى

عصر الامراء

عهد عبد الرحمن الاول :

عندما اجتاز عبد الرحمن الداخل المضيق الفاصل بين القارتين الافريقية والاوربية برافقه في مغامرته الجريئة تلك مولاه بدر وعدد من انصاره الخلقين ووضع قدمه لأول مرة في ثغر المنكب على ALMUNECAR الساحل الاندلسي وذلك في ربيع الثاني من سنة ١٣٧ هـ (سبتمبر ٧٥٥ م) كانت الدولة العربية في الاندلس تجتاز فترة من الفوضى وعدم الاستقرار في الحكم والتنازع على الرئاسة .. مما مهد للأمير الاموي احتلال البلاد والاتصار على يوسف بن عبد الرحمن الفهري آخر ولاة الاندلس في مركز المسارة المشهورة .

كان هذا الاموي الفار من ملاحقة العباسيين في الشرق قد صمم على انشاء دولة له بعيدة عن متناول العباسيين في الشرق يستطيع منها ان ينأوهم وان بنفس عليمهم نعم الحكيم ، فلما تم له النصر على والي الاندلس

وفر هذا هاربا الى طليطلة وهزم جيشه هزيمة شديدة عرف عبد الرحمن ان الاقدار ساقته الى تلك البلاد الواقعة في غرب البحر الايضاً المتوسط كي ينشئ دولة التي يحلم بها فيعيد بواسطتها حكومة الامويين التي انهارت حديثا في الشرق امام ضربات العباسين القاسية .

ولكن الجو في الاندلس آنذاك لم يكن يساعد على انشاء حكومة منظمة فالثورات قائمة في كل مكان والفن تم البلاط والطامعون في الحكم كثيرون والعصبية القبلية قد عادت الى الظهور بشدة والمجتمع الاندلسي متفسخ متحلل . . فكان على عبد الرحمن ان يقضي على هذه المفاسد كلها ويتخلص من اسباب الفتنة بمجموعها كي يستطيع بناء دولة قوية راسخة الاركان .

ورغم ان عبد الرحمن لم يكن يبلغ من العمر آنذاك سوى ستة وعشرين عاما فانه قد اظهر من الشجاعة والذكاء والعزم والنضال ما جعله يذلل الصعوبات وينتصر على الاعداء وقضى الاعوام الاثنتين والثلاثين التي عاشها في حياته في الاندلس - اي منذ وصوله اليها سنة ١٣٧ هـ ٧٥٦ م حتى وفاته سنة ١٧٢ هـ = ٧٨٨ م في نضال دائم لا ينتهي من معركة حتى يرى نفسه مغضطرا لان يخوض اخرى ولا يقمع ثورة الا وتليها ثورة ولا يرضي زعماء حتى يخرج آخر الى ان استطاع قبيل وفاته ان يتربع على كرسي الحكم وهو يرى البلاد هادئة تتمتع بقسط كبير من الاستقرار فرف بان الخط قد حالفه وانه اصبح يستطيع ان يحيي مجد الامويين في تلك المنطقة البعيدة عن مقر عصبيتهم في دمشق والتي لاتزالها ايدي الخلفاء العباسين في بغداد .

كان على عبد الرحمن ان يقضي نهائيا على والي الاندلس الفارس يوسف

بن عبد الرحمن الفهري كي لا يعمد هذا الى جمع الانصار من جديد و تشكييل جيش يعود به الى مغاربته . وكان هذا قد استطاع فلان يقوى صفوفه بانضم قسم من اهل طليطلة اليه وبجيء الصميل بن حاتم مع جماعة من المقربين والانضم اليه فأسرع اليهم عبد الرحمن وكافوا قد استقروا في البيرة ELVIRA ففرض عليهم حصارا شديدا لم يسعهم تجاهه سوى طلب التسليم مع الامان قبل عبد الرحمن بذلك وعقد الصلح في صفر سنة ١٣٩ هـ = ٧٥٦ م وعاد يوسف والصميل مع عبد الرحمن فسكنوا قرطبة معززين مكرمين ولكنهم لم يمض وقت طويل حتى عادت فكره الامارة تداعب رأس يوسف ففر الى ماردة MERIDA حيث كان فيها معظم اهله وعشيرته فجمع زهاء عشرين الف رجل وسار بهم نحو اشبيلية SEVILLA ولكن واليها عبد الملك بن عمر بن مروان هزمهم ورده عنها فسار الى طليطلة TOLEDO محاولا اعادة صفوفه ، الا ان بعض انصاره اغتالوه في سنة ١٤٢ هـ = ٧٥٩ م بوحي من عبد الرحمن الداخل نفسه كما ذكر بعض المؤرخين وحملوا رأسه اليه في قرطبة فسر لخلاصه من ذلك الخصم العتيد . واما الصميل فان عبد الرحمن قبض عليه وزوجه في السجن بعد فرار يوسف من قرطبة ثم ارسل من خنقه داخل السجن بعد بضعة اسابيع من سجنه فكان لخلاصه منه خطوة كبيرة ايضا في سبيل استقرار دولته .

اما الثورة الثالثة الهامة التي واجهها عبد الرحمن الداخل فقد قام بها القاسم بن يوسف في الجزيرة الخضراء يرؤيه كبير وجهاء المدينة الشيخ رزق بن النهان صديق والده وقد تكون الثائران من الاستيلاء على شدونه SEDONIA وعلى اشبيلية الا ان جيوش عبد الرحمن استطاعت الاتصاف عليها ودخلت ظافرة الى اشبيلية بينما فر منها الحليفان الثائران .

وظهرت في اشبيلية ذاتها بضعة ثورات لم يكن نصيتها من النجاح اكبر من نصيب سابقتها . وكانت مدينة طليطلة ايضا مقر ادائما للحركات الماوية والثورات . فقد خرج فيها هشام بن عذرة الفهري فحاصره عبد الرحمن حصارا شديدا حتى ضاق اهلها ذرعا فطلبووا الصلح على ان يسلموا الزعماء الثائرين وقادهم عبد الرحمن الى قرطبة حيث امر بصلبهم هناك .

واستطاع الداخل الاموي ان يقفي على العلاء بن مغيث اليحصي داعية العباسيين في الاندلس فانتصر على جيشه وقتلته ثم ارسل رأسه ملفوفا بالعلم الاسود شعار العباسيين الى النصور في مكة حيث كان هذا يؤدي فريضة الحج فرمى الرأس امام سرادقه فاما رآه النصور ارتقاء لرأه وقال «الحمد لله الذي جعل بيني وبينه البحر» .

هكذا تمكن عبد الرحمن من القضاء على اعدائه واحمد الثورات التي قامت عليه في كل مكان ففشل ثورة غياث بن علقة الاعجمي في شذونه وثورات اليحاصية في بلده NIEBLA وباجه BEGA واشبيلية^(١) . ولم يفلح ازعيم البربر شقيا بن عبد الواحد الذي ادعى انه سليل النبي باتزاع الامر من عبد الرحمن رغم قوته ورغم انصمام البربرى اليه اذ قتل بابدي اثنين من اصحابه في سنة ١٦٠ هـ = ٧٧٦ م .

وكانت من اكبر الاخطار التي هددت عبد الرحمن حملة شرمان

(١) ثار في بلده سعيد اليحصي وثار في باجه عبد الغافر اليحصي وثار في اشبيلية ابو الصبار بن يحيى اليحصي .

واجتازه جبال البرنة لاحتلال إسبانيا .

وقصة ذلك أنه في سنة ١٥٧ هـ = ٧٧٤ م ثار سليمان بن يقطان بن العربي والي برشلونة BARCELONA والحسين بن يحيى الانصاري والي سرقسطة ZARAGOZA وتحالفاً على قتال عبد الرحمن وخالمه وعلى الرغم من أنها استطاعا الاتصار في المناوشات الأولى على جند عبد الرحمن إلا أنها لم يكونا واثقين من النهاية ولذلك فكرا بالاستجحاد بالفرنجية فسارا إلى لقاء شارلسان في سنة ١٦١ هـ = ٧٧٨ م في مدينة باذربون في مقاطعة وستفاليا وعرضوا عليه التحالف معهم وغزو الولايات الشاهية ويقال أنها وعداه باعطائه أحدى مدينتي برشلونة أو سرقسطة وإن يكونا مع جيوشها خاضعين له منضدين تحت لوائه .

ولبى شارلسان طلب الواليين العربين وسار بجيشه مخترقاً جبال البرنية فلما أشرف على بنبلونه POMEONA عاصمة نافارا NAVARRA حاصرها واستولى عليها وأغضب بذلك المسيحيين في إسبانيا ثم سار إلى سرقسطة حيث كان يعتقد بأنه سيجد حلفاءه بانتظاره للانضمام إليه في احتلال البلاد ولكن الوضع كان قد تغير ونشبت خصومة بين سليمان بن يقطان والحسين بن يحيى، امتنع على إثرها الحسين ببلده وصم على صد الفرنجة . وبالفعل لما وصل شارلسان أمام المدينة وجد أبوابها موصدة فحاول فتحها لكنه فشل مما كان منه إلا أن قبض على سليمان الذي أصبح يشك في صدق حلفه معه وعاد من حيث أتي يجر أذى الخيبة . ولكن ابناء سليمان الأسير جما انصارهما وتبعاً للجيش الفرنجي لعلها يستطيعان تخليص والدهما من الاسر وانضم إليها في تلك الحملة فريق من البشكتش النصارى انتقاماً لما أزله الفرنجة ببلادهم وعاصمتهم بنبلونه من التدمير والتخريب وانقض

الجُمِع على مُؤخرة جيش شارلمان عند معركة RONCESVALLES في جبال البرنس^(١) فاعملوا في جنودها القتل فمات فيها زهرة الجيش الفرنجي وعلى رأسهم رولان بطل الاشودة المشهورة التي نظمت فيها بعد هذه الموقعة . وانسحب المهاجمون قبل ان يستطيع شارلمان انقاد الموقف . وبهذا الشكل تخلصت الاندلس العربية من هذا الشر المستعير الذي كان يهدد بالقضاء على الدولة الاموية الناشئة لولا ان الظروف حالت العرب .

تخلص صقر قريش من ^(٢) الخطر الفرنجي الخارجي ولكنه لم يتخلص من الفتن الداخلية . فقد ظل يكافح طوال العشر سنوات التي عاشها بعد محاولة شارلمان احتلال اسبانيا ضد الطامعين في الحكم والمتهزئين في مختلف أنحاء البلاد . فاضطر الى قتال عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلي في جهات تدمير TODMIR ودحية الفساني في جهات غرناطة GRANADA وابراهيم بن شجرة في حصن مورو MOROU والرمادي بن عبدالعزيز الكتافي في الجزيرة الخضراء ALGECIRAS وابي الاسود محمد بن يوسف الفهري في اطليطلة وما جاورها . . وقد استطاع الاتصار على هؤلاء جميعاً وخابت آمالهم في الوصول الى امارة الاندلس .

(١) - يقع هذا الممر الذي يسميه الشريف الادريسي « باب شيزورا » تحريراً عن الاسم الروماني القديم PORTUS CISERI في غرب البرنس شمالي شرق بنبلونه وعلى بعد حوالي ستة وثلاثين كيلو متراً منها .

(٢) - يقال ان الخليفة العباسي ابا جعفر المنصور قد سمي عبد الرحمن معاوية « صقر قريش » في احد مجالاته لما كانت يراه فيه من شدة الائى والجرأة والذكاء والحكمة في تدبير الامور .

هذا ولم يحجم عبد الرحمن في خلال ذلك عن مهاجمة بعض الملك
الإسبانية النصرانية في الشهل كنافارا مثلاً ، كما أنه تقد سلاماً مع شارلمان
توحدت بسببه الصدافة بينهما ودامـت حتى وفـاة عبد الرحمن .

علاوة على كل ما تقدم فإن عبد الرحمن لم يشغل عن البناء
وال عمران بالفن والثورات بل استطاع أن يولي هذا الامر أيضاً اهتمامـه
فأنشأ في شمال غربي قرطبة قصراً فخماً تحيط به الحدايق البدعية وسمى
ذلك المنطقة بالرصافة والتحذـها مركزاً لامـاته . كما أنه أنشأ سور قرطبة
الـكـبير الذي دام العمل فيه عدة أعـوام . ولكن أروع عمل بالشروع
به هو بناء المسجد الـأـموي الجـامـع في قـرـطـبة . وقد بدأ العمل في هـذـا
الـمـسـجـد مـتأـخـراً بالـنـسـبـة لـامـارة عبد الرحمن ، في سـنـة ١٧٠ - ٧٨٥ مـ
أـيـ قـبـلـ وـفـاتـهـ بـحـوـالـيـ سـنـتـيـنـ فـجـلـبـ لهـ الـأـعمـدةـ الـفـخـمـةـ وـالـرـاخـمـ الثـمـينـ
ولـكـنهـ تـوـقـيـ قـبـلـ اـقـامـهـ فـقـامـ بـاعـبـائـهـ بـعـدـ اـبـهـ هـشـامـ وـزـادـ فـيـهـ مـلـوكـ بـنـيـ
أـمـيـةـ حـتـىـ أـصـبـحـ أـعـظـمـ مـسـاجـدـ الـأـنـدـلـسـ بـلـ رـبـعـاـ أـعـظـمـ مـسـاجـدـ الـعـالـمـ .

هـكـذـاـ اـسـطـاعـ هـذـاـ الـأـمـوـيـ الـفـارـ أنـ يـعـيدـ مـجـدـ اـمـرـتـهـ فـيـ بـلـادـ
قـائـيـةـ بـعـيـدـةـ فـأـسـسـ مـلـكـاـ عـظـيـمـاـ تـوـارـيـهـ اـبـنـاهـ وـأـحـفـادـهـ مـنـ بـعـدـ وـاسـطـاعـتـ
الـدـوـلـةـ الـأـمـوـيـةـ هـنـاكـ أـنـ تـنـافـسـ فـيـ قـوـتـهـ وـحـضـارـتـهـ آـنـذـاكـ أـقـوىـ وـأـرـقـيـ
دـوـلـ الـعـالـمـ .

هـذـاـ وـخـتـاماـ لـهـذـهـ الـدـفـحةـ عـنـ أـعـمـالـ عبدـ الرـحـمنـ الـأـوـلـ لـاـ بـدـ أـنـ
أـشـيرـ إـلـىـ أـنـهـ وـرـغـمـ الـقـوـةـ الـقـيـمـاـ بـلـغـيـاـ هـذـاـ الـأـمـوـيـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ وـرـغـمـ
الـاـنـصـارـاتـ الـمـتـالـيـةـ الـقـيـمـاـ بـلـغـيـاـ هـذـاـ الـأـمـوـيـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ وـرـغـمـ
لـمـ يـشـأـ أـنـ يـتـلـقـبـ بـالـخـلـافـةـ بـلـ أـكـنـتـفـيـ بـلـقبـ الـأـمـارـةـ وـسـيـسـيـرـ عـلـىـ هـذـهـ الـخـطـةـ خـلـافـهـ
مـنـ بـعـدـهـ حـتـىـ يـصـلـ إـلـىـ الـحـكـمـ عبدـ الرـحـمنـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ اللهـ الـلـقـبـ «ـبـالـفـاـصـرـ»ـ
فـيـتـلـقـبـ بـالـخـلـافـةـ وـيـصـلـ بـالـدـوـلـةـ الـمـرـيـةـ فـيـ إـسـپـانـيـاـ إـلـىـ أـوـجـ مـجـدـهـ كـاـ مـسـنـرـيـ .

عبد هشام بن عبد الرحمن :

اختار عبد الرحمن الداخل من بين أولاده الأحد عشر ابنه هشاما ليخلفه في حكم الاندلس . ولم يكن هشام الولد الأكبر وإنما كان موضع ثقة أبيه لما كان يرى فيه من المزايا والمواهب العالية . وقد ولد هشام في قرطبة في ٤ شوال ١٣٩ هـ مارس ٧٥٧ م وكانت عمره لدى توليه الحكم في سنة ١٧٢ هـ - ٧٨٨ م ثلاثة سنّة ودام حكمه حوالي ثمانين سنوات فقط إذ توفي في سنة ١٨٠ هـ - ٢٩٦ م .

ساد الامن والاستقرار ربوع الاندلس في عهد هشام على الرغم من بعض الثورات المحلية التي قامت في وجهه ويرجع ذلك على الغلب إلى الصفات الحميدة التي كان يتمتع بها الامير الاموي من حرص على النظام وحب للعدالة وميل نحو الدين والتقوى وشفف بالجهاد وتقدير لاعلم والعلماء وعطف على الفقراء والمساكين واهتمام بشؤون الرعية .. فاستطاع بذلك كلّه أن يحافظ على التراث الكبير الذي تركه له أبوه كما استطاع أن يتبع ما بدأه عبد الرحمن الداخل من بناء وتأسيس دولة الاسرة الاموية في الجهة الغربية من البحر الايضاً المتوسط .

كانت اولى الصعوبات التي واجهها هشام وتقلب عليها هي ثورة أخيه سليمان وعبد الله الذين ادعيا حقهما بالخلافة وتحالفا ضد أخيها . وقد فر إلى طليطلة وأعلنوا الثورة فيها إلا أن الجيوش التي أرسلها هشام للاحتتمها اضطررت سليمان إلى الهرب والتخفّي وطلب عبد الله الامان بعد ما حل بأخيه فأجابه أخيه إلى ذلك وغاف عنده وسمح له بالعودة إلى قرطبة معززاً مكرماً . ثم ما لبث ذلك سليمان أن طلب العفو أيضاً فاعطى له على أن يرحل مع عائلته إلى المغرب . وقد دفع له هشام مبلغ ٧٠ الف ديناراً

كتعويض له عن أثر أية كي يستعين بها على قضاء حاجاته في مقر حياته الجديدة . هذا وقد قرر عبد الله في آخر لحظة الانضمام إلى أخيه سليمان ومرافقته إلى المغرب .

افجرت بعد ذلك بعض الثورات في الشهال لم يكن نصيبيها النجاح وتمكن هشام من القضاء عليها بسرعة كالثورة التي أعلنتها معيذ بن الحسين الانصاري بطرطوشة TORTOSA والثورة التي أعلنتها مطروح بن سليمان بن يقطان في برشلونة . أما الفتنة التي أثارها البربر في منطقة رندة RONDA في سنة ١٧٨ هـ - ٧٩٤ م فقد تمكن هشام من اخمادها أيضاً . واستعمل فيها قائد جيوش الامويين عبد القادر ابان بن عبد الله منتهي القسوة فخرب ودمر ما استطاع كي لا يفكر البربر في تلك المنطقة بالعودة إلى الثورة ثانية .

رغم هذه الثورات الداخلية ، فان هشاما لم يقصر عن غزو الاداء النصارى في الشہل والفرنجة في فرنسا . كان يرى بأم عينيه كيف ان الفرنجية كانوا يشجعون الدول الاسبانية في الشہل على مهاجمة امراء قرطبة وبعدونهم بالمساعدة كما انه كان يشعر في قراره نفسه برغبة ملحقة للجهاد والفوز . ولذلك زاره يستعد في سنة ١٧٥ - ٥٧٩١ م لاسير نحو الشہل وما ان يأتي صيف تلك السنة حتى يتوجه الجيش الاموي نحو جليقية LALICIA غازيا ببلادها . ويدرك بعض المؤرخين ان عدد الجيش الذي كان يقوده عبد الله بن عثمان قد بلغ اربعين الف مقاتل تمكن بشجاعته وقدمه في فن القتال ان يتصر على الملك الجليقي برمودو الاول BERMUDO I واعت في البلاد خرابا ثم عاد الى قرطبه محلا بالفنائيم والاسلام .

في نفس السنة كان جيش آخر بقيادة يوسف بن مخت ينتصر على الملك
برمودو نفسه في غرب البه Alava ويشتت شمال جنوده .

وقد تكررت غارات المسلمين بعد ذلك على الدول الإسبانية في
الشهر وحارت انتصارات رائعة في الفترة الواقعة بين سنة ١٧٥٥ - ١٧٩١ م
وفاة الأمير هشام الأول في سنة ١٨٠٥ - ١٧٩٦ م.

وكأن هشاما أراد أن يتبع فتوحات موسى بن نصير والسمع بن
مالك الخولاني وعبد الرحمن الغافقي فيما وراء جبال البرنيه في فرنسا
فشكّل جيشاً قوياً عهد بقيادته إلى الحاچب عبد الملك بن مغيث فتوجه
نحو الشمال وعبر البرنيه سنة ١٧٦٥ - ١٧٩٢ م فاستولى على مدينة جيرونا
CERONA التي كانت يد الفرنج وهاجم عدداً من العاقل والمحصنون
ووصل بعد ذلك إلى منطقة سبتانيا . ولما كان
شارليان ملك الفرنج مشغولاً آنذاك بمحاربة القبائل السكسونية ان ابنه
لويس هو الذي وقع على عاتقه صد هجمات العرب ، لكنه هزم أمامهم
هزيمة منكرة وغم العرب غنائم عظيمة فحملوا معهم ما استطاعوا حمله من
زوات بلاد الفرنجية وعادوا يصحبون معهم عدداً هائلاً من الأسرى والسي .

وكان آخر غزوة قام بها هشام نحو الشهـل في سنة ١٧٩٥ -
١٧٩٥ م هاجم فيها بلاد جليقية من جديد فشبّق قتال عنيف بين المسلمين
وبيـن الملك الجليقي الجديد الفونسو الثاني اتـصرـ الخلـقةـ فيـ بدـاـيـةـ لـكـتـبـهـ
ما ليـشـواـ انـ هـزـمـوـاـ وـغمـ العربـ كلـ ماـ وـقـعـ تـحـتـ أـيـدـيـهـ .

هـكـذـاـ اـسـطـاعـ الـأـمـيرـ الـأـمـوـيـ الثـانـيـ هـشـامـ انـ يـوـطـدـ الـأـمـتـ فيـ
الـدـاخـلـ وـيـتـصـرـ عـلـىـ اـعـدـاءـ الـبـلـادـ فـالـخـارـجـ .ـ وـاـنـهـ لـمـ يـثـرـ الـاعـجـابـ فـيـ
هـذـاـ الـأـمـيـ الـأـمـوـيـ اـنـ يـوـجـهـ أـيـضاـ اـهـتـامـهـ إـلـىـ الـبـنـاءـ وـالـعـمـرـانـ
فـعـيـ باـقـامـ مـسـجـدـ قـرـطـبـةـ الـذـيـ بـدـأـ أـبـوـهـ باـنـشـائـهـ كـاـنـقـامـ عـدـةـ مـسـاجـدـ أـخـرىـ وـأـمـرـ
بـتـجـدـيدـ قـنـطرـةـ قـرـطـبـةـ الشـيـرـةـ فـازـدـهـرـتـ عـاصـمـةـ الـأـنـدـلـسـ فـيـ عـهـدـهـ .

عهد الحكم ابن هشام :

ترفع الحكم على كرمي الامارة في قرطبة وعقب وفاة ابي ياطم اي في الثامن صفر سنة ١٨٠هـ = ٧٩٦ م . وكان قد ولد في قرطبة سنة ١٥٤هـ = ٧٧٠ م فكان له من العمر حين تولى امارة الاندلس ستة وعشرين عاماً ودام حكمه قرابة ستة وعشرين عاماً إذ توفي في سنة ٢٠٦هـ = ٨٢٢ م وقد ناهز الثانية والخمسين من عمره .

استطاع الحكم خلال هذه المدة الطويلة التي حكم فيها ان يتتصر على الحركات العادية التي قامت بوجهه وعلى رأسها كما سترى ثورة الريض وحركة التمرد في طليطلة التي انتهت في موقعه الخفرة كما تمكن ان يحافظ على حدود بلاده على الرغم من ازدياد قسوة المسيحية في الشمال وعلى الرغم من اطماء الفرنجية في الاجزاء الشهالية من الاندلس واذا كان ثغر برشلونة قد ضاع في عهده فليس ذلك ضعفاً منه او تقصيراً وانما يعود قبل كل شيء الى بعد هذه المدينة عن مركز الدولة الاموية في قرطبة والى كونها محاطة من جميع جهاتها بدول اسبانية معادية والى انشغال الحكم اثناء حصارها بالثورة التي اعلنها عليه عممه عبد الله بن عبد الرحمن .

واذا اردنا ان نبدأ بالحديث عن الثورات الداخلية التي جابها الحكم خلال حكمه نرى اولها كانت ثورة عميه سليمان وعبد الله الذين كانوا قد رحلا الى الغرب كارأينا في عبد هشام بن عبد الرحمن ولكنها كأنابير قبان الفرصة على ما يظهر من الطرف الثاني للمضيق فلما علموا بوفاة أخيها هشام عملا على احتياز البحر واعلان الثورة على الامير الجديد الحكم . ولم يتورعا

من أجل الوصول إلى مأربها من الاستنجاد بالفرنجة إلا أن ذلك لم يفدها لأن الفرنجة عدوا في آخر لحظة عن التوغل في الاندلس خوفاً من الوقوع في كمين عربي أو مواجهة قوات لا قبل لهم بها . واضطر سليمان وبعد الله أزاء ذلك أن يخوضا المعركة وحدهما ضد جيوش الحكم مما ادى إلى هزيمتها مع انصارها واتهى الأمر إلى القبض على سليمان في قرطبة سنة ١٨٤ھ = ٨٠٠م . أما عبدالله فقد طلب المغفور من الحكم فلي طلبه وزوج اثنين من أخواته إلى ابنة عميه عبدالله فحمدت حركة هذا وخلد إلى السكينة في مدينة بنسية طوال المدة الباقيه من امارته الحكم .

وقد ثار في تلك الفترة ايضاً هاول بن مرزوق المعروف بأبي الحجاج ، ثار في الثغر الأعلى واحتل سرقسطة كما ثار عمروس بن يوسف حاكم مدينة وشقة HUESCA وتأمل كل من الاثنين الاستفادة من الظروف الصعبه التي كان يواجهها الحكم اذاك من جراء الهجوم الفرنجي على الاندلس الا ان الغزو الفرنجي قد ارتد دون قتال كما ذكرت منذ هنئه واضطر الواليان الثائران ان يعودا إلى طاعة الحكم فاسترد هذا سلطانه على المناطق الثائرة .

وحدث انه في سنة ١٩٠ھ = ٨٠٦م اعلن الثورة في مدينة ماردة زعيم بوري شديد البأس عظيم الوجاهة اسمه اصبع بن عبدالله بن وانسوس . وقد استطاع هذا الثائر العنيف ان يستقل في المدينة مدة سبع سنوات تتمكن خلالها من رد الجيوش التي كانت تردد لحصاره . ولكنه امام اصرار الحكم في القضاء عليه رأى انه من الاصلح له ان يطلب الامان فاعطاه الحكم مارداد وعادت ماردة إلى الطاعة .

اما طليطلة عاصمة الغرب الادنى ، هذه المدينة الثائرة التي لم يفت
سكنها و معظمهم من الولدين والسترين ينورون على الدولة الاموية
منذ انسحاب عبد الرحمن الداخل في الاندلس ، فقد كان سكانها
يميلون الى التمرد بطبيعتهم ولا يريدون الخضوع لحكم اي امير يحكم في
قرطبة لأنهم كانوا لا يزالون يعتقدون مدينتهم على ما يظهر العاصمة الحقيقة
للبلاط بصفتها كانت عاصمة لالقوط الغربيين الذين كانوا يحكمون اسبانيا
قبل احتلال العرب لها . ولذلك نرى بأن سكانها مستعدون دوما للانضمام
الى كل من رفع لواء الثورة في مدinetهم وميالوت الى عدم الاعتراف
بسلطنة اي امير يقوم في قرطبة وهذا ماحدث با لضبط في ایام الحكم
فقد قلم فيها سنة ١٨١ هـ = ٧٨٧ م الشاعر عبيد الله بن خمير واعلن
خلمه طاعة الحكم فوجه اليه هذا القائد عمروس بن يوسف لخاربه فاشتبك
مع الثوار في عدة معارك ثم لجأ الى سلاح الاغتيال فدس على عبيدة
من قتله فاخمدت الثورة . ولكن المدينة لم تلبث ان عادت كعادتها الى
الثورة فنجحا الحكم الى تعين القائد عمروس واليا عليها بصفته كان مولدا
كمعظم السكان فيها . واخذ يعمل منذ توليه مقاليد الامور في المدينة
لاجتثاث عوامل الثورة والقضاء على جذورها . وقد رأى انه طالما
يوجد في المدينة زعماء يسيطرون على سكانها ، ووجاهه يأثر الناس بأمرهم
فإن السيطرة عليها من اصعب الامور وابعدها عن التحقيق . لذلك فكر
والى عمروس بطريقة يتخلص بها من الرؤوس الكبيرة في المدينة كي
تفقد المدينة رأسها المدبر ويقضي على عامل التحرير ففيها فدر مذبحه
الحفرة وقصة هذه المذبحه ان عمروس بعد ان استطاع افساء سكان
المدينة بازه صديق لهم وانه ناقم على الدولة الاموية مثلهم انشأ جواقبهم
قلعة حصينة في ظاهر المدينة تمحج بها لسكن الجندي كي لا يخالطوا
بالشعب فيزعجونه . ثم ارسل الى الحكم يطلب اليه المحبه مع جيش

له واعلن في المدينة ان الجيش قادم للسير نحو الشمال ومقاتلة الاعداء وارسل الحكم فعلا جيشا الى طليطلة عبد بقيادته الى ابنه عبد الرحمن الذي سيصبح عمما قريب ولها لعنه . فلما اصبح الجيش في المدينة دعا عمرو بن وجاه المدينة وبارها الى حضور وليمة ادعى بأنه يقيمها على شرف ابن الامير . فلما وفد الناس على مكان الوليمة في القلعة امر عمروس جنوده ان يقودوا كل عشره من الضيوف على حدة الى قاعات الطعام وان يمدووا الى قتلهم هناك وهذا ما نفذ بالفعل ، وقتل أكثر من مائة من الوجوه قبل ان يشعر احد من المدعون بذلك اذ ان عمروس كان قد اعلن ان الدخول من باب والخروج من باب آخر فكان الموجودون يظنون ان الذين دخلوا قد خرجوا من باب آخر .

وكان الجنود يمدون الى وضع رؤوس القتلى في حفره كانت قد حفرت في مؤخرة القصر خصيصاً لذلك وادعى عمروس أنها لذبح البقر . ولما فطن المدعون الى الامر كان معظم الوجاه قد قتلوا فلم يتمكن من الفرار الا القلائل . وقد وقع ذلك في سنة ١٩١ هـ = ٧٩٧ م .^(١)

على الرغم من ذلك كله فإن طليطلة عادت الى الثورة من جديد بعد ان التأمت جراحها بعد بضعة سنوات من الحادث اي في سنة ١٩٢ هـ = ٨١٢ م فباجهها الحكم قوات كبيرة ولم يجد كبير عنا هذه المرة في دخولها فخضعت من جديد ورضيت صاغرة بقبول حكم الامير الاموي .

(١) ذكر هنا التاريخ ليبروفال في كتابه : HIST. DE L. SJMUS. ج ١ من ١٠٤ من الطبعة الاسانية . بينما ذكر مؤرخون آخرون وعلى رأسهم دوزي ان الحادثة وقعت عشر سنوات بعد ذلك ١٩١ هـ = ٨٠٢ م .

وقدت ثورات محلية أخرى في باجة حيث ثار حزم بن وهب وفي ماردة حيث ثار مروان بن يوسف الجايقي ولكنها لم توفق للانتفاض من سلطة الحكم فقضى عليها وهي في المهد .

اما الثورة الداخلية التي شكلت خطاً حقيقة على امارة الحكم بصورة خاصة وعلى الحكم الاموي بصورة عامة فهي ثورة العاصمه نفسها في ١٩٨٥ م و هي الثورة المسماة بثورة الربيع .

كان الامير الحكم هو اول امير من الامويين اظهر البذخ والترف في بلاطه في الاندلس فقد غدا قصره يشبه بلاطات عظماء الملوك والباطرة في ذلك العهد لفخامته وروعته وعدد الخدم والحاشية فيه ، كما انه كان ميلاً الى الابو والمصید يفضل مجالس النساء والشعراء على ندوات العلم والتقاليف ويحاول ابعاد الفقهاء ورجال الدين عن التدخل في السياسة والتأثير على بعري الحوادث . لهذا كان نقم عليه العلماء والفقهاء وثارت نقوسمه ضده وأخذوا يثنون الدعاية السيئة له بين افراد الشعب فيرونون الاشاعات والاحاديث عن اسرافه في الابو والبذخ والشراب وارتکاب العاصي ولقد لاقت دعایتهم صدى حسناً عند بعض فئات الشعب الناقمة وخاصة بين البربر والولدين والستعرين . هذه الفئات التي كانت تتغنى دالماً الفرص لثورة على السلطة الحاكمة .

وحدث انه في سنة ١٩٦ م — ٨٠٥ م در الفقهاء والاعيان الابقاء بالحكم وعيينا رئيساً عليهم محمد بن القاسم الرواني . الا ان هذا خشي عاقبة الامور وبادر الى ابلاغ المؤامرة للحكم فقبض هذا على مدبرها واعدم منهم اثنين وسبعين رجلاً صلبهم على شاطئ النهر امام القصر ، فأثارت قسوته تلك الحفائظ وزادت نفقة الناس عليه . ولم تمض اشهر

معدودة حتى ظهرت بوادر ثورة جديدة في سنة ١٩٠٥ = ٨٠٦ م وكان الحكم غالباً عن المدينة آنذاك ، فلما بلغه خبرها عاد مسرعاً وقبض على بعض زعماء الفتنة فصلبهم ومثل بهم .

كانت هذه كلاماً مقدمات للثورة الكبرى التي نشبت في سنة ٢٠٢ = ٨١٨ م ففي خلال الفترة الماضية زاد تجربة افراد الشعب على الحكم حتى صاروا يتعرضون له في الطريق احياناً ويسمونه كلامات قارصة وشعر الحكم بخطورة الموقف فأمر بتحصين القصر واتخذ للأمر اهتمامه . واشتعلت الثورة ذات يوم على اثر صدام بين احد مماليك الحكم واحد العامة فهو الناس من كل صوب وتبجمعوا خاصة في الحي الثائر ثم ساروا نحو قصر الامير فأمر الحكم فرقه من غلاته وحرسه بتصديهم كما امر قساً منهم ان يحاولوا الوصول الى الربيض الثائر فيحرق المنازل كي يلهي الثائرين عن مهاجمة القصر . وقد نجحت خطط الحكم فعلاً ، فبينما كان القتال يدور بين قوة الحرس وبين العامة استطاع فريق من الاولين ان ينفذ عبر الجموع الى الضاحية الثائرة فأشعل فيها الحريق . فاما رأى الناس دورهم تشتعل تركوا القتال وعادوا لانقاد ما يمكن من عيالهم واثائهم فلحق بهم افراد الجيش واعملوا فيهم القتل حتى ابادوا عدداً كبيراً منهم يقدر بالآلاف . وقد دام القتال والسفك في الربيض الثائر قرابة ثلاثة أيام وصلب ثلاثة من الثوار وأجبر من بقي منهم على الخروج حالاً من قرطبة فتفوقوا في اتجاه الاندلس وعبر قسم منهم البحر على سفن افلاتهم حتى الاسكندرية فاشتركوا في الحرب الاهلية التي كانت قائمة هناك آنذاك . ثم ما عتموا ان توجهوا الى جزيرة صقلية فاحتلوها وانشأوا فيها حكومة عربية دامت نحو قرن من الزمن .

لقد اعطى المؤرخون لهذه الفتنة اهمية كبيرة من حيث وقائعها

وتائجها حتى انهم دعوا الامير الحكيم « بالحكم الربضي » لما اشتهر عنه في تلك الموقعة من القسوة والشدة في احمد الثورة وملحقة الثائرين .

رغم كل ما تقدم فان الحكم لم يشغل عن الفزو الخارجي وتأمين حدود بلاده ولم يكن اقل اهتماماً بهذه الناحية من اسلافه الامراء الامويين .

ففي بداية عهده اي في صيف ١٨٠ هـ = ٧٩٦ م سار الحاجب عبد الكريم بن مغيث غازياً بالصائفة الى البة والقلاع (منطقة الحصون او قشتالة القديمة) واستولى على قلعة قبرة CALOHARA وعاد في البلاد في البلاد ونعم غنائم كثيرة ثم عاد الى قرطبة .

وتكررت حملات المسلمين على مملكة استورياس ASTURIOS في السنوات الواقعة بين ١٨٠ - ٢٠٠ هـ = ٧٩٦ - ٨١٦ م في سنة ١٨٧ هـ = ٨٠٣ م هاجم عبد الملك بن مغيث اخو الحاجب عبد الكريم الباشا والقلاع وحاصر على انتصارات بالغة وفي سنة ١٩٢ هـ = ٨٠٨ م اجتاح هشام بن الامير الحكيم البلاد التي تحطمتها دولة البرتغال الحالية وعاد منها بغنائم كثيرة . ثم في سنة ٢٠٠ هـ = ٨١٦ م قاد الحاجب عبد الكريم الصائفة الى بلاد استورياس وانتصر على ملكها الفونسو الثاني في معركة كبيرة كانت آخر المعارك التي خاضها جيش الحكم الاول ضد هذه المملكة الشهابية النصرانية .

هذا بالنسبة لعلاقة الحكم بالدول الاسبانية الشهابية . اما بالنسبة لافرنجية وشارمان فان هذا لم يكن قد تخلي عن فكرة التدخل في امور الاندلس نهائياً بل على العكس من ذلك كان مصمماً على ازعاج امرائهم العرب وال Giulole اذا استطاع دون نشوء دولة عربية قوية في جنوب بلاده تهدد

غرشه وعرش ابنائه من بعده في كل لحفلة . وقد عمد في سنة ١٨٢ هـ = ٧٩٨ م الى عقد معاهدة مع أمير جليقية الفونسو الثاني لكنه يضمن ولاء البشكنس وتأييدهم . ثم سير في سنة ١٨٥ هـ = ٨٠١ م جيشاً قوياً نحو ثغر برشلونة يغطي فتحها . ولما وصل الجيش امام المدينة ضرب الحصار عليها ورابط قسم منه في جنوب المدينة كي يتسع وصول الامدادات .

وعلى الرغم من كثرة القوة المعاصرة ومن وصول النجذبات فإن مدينة برشلونة العربية قد حممت في وجه المهاجرين حوالي سنتين دون أن يستطيعوا الدخول إليها . ولكن عندما شاق والي المدينة العربي ذرعاً بالحصار وبعد وصول الامدادات حاول تحت جنح الظلام أن يصل إلى قرطبة ليعود بالنجذبات ولكن العدو قبض عليه واسره ففت ذلك في عهد أهل المدينة واستطاع العدو أن يفتح بعض الثغرات في المحسون فدخل منها الفرنجة ونشب قتال داخل المدينة كان النصر به للمهاجرين نظراً لعدم وجود رأس مدبر ونظراً لحالات اليائسة التي كان عليها أهل المدينة بعد ذلك الحصار وسقطت المدينة في أيدي الفرنجة .

إذا استطاع هؤلاء أن يربحوا احدى الجولات مع العرب في الاندلس فان حظهم في الجولات التالية كان سيئاً والنتيجة ضد مصلحتهم في عامين متتالين ١٩٣ و ١٩٤ هـ = ٨٠٨ و ٨٠٩ م سد الحكم هجومين فرنجيين على حدود الاندلس الشهابية مني المهاجرين خلالهما بخسائر فادحة وعادوا بحرثون اذبال المهزولة والخيبة .

هذا وقد سير الحكم في ١٩٧ هـ = ٨١٣ م جيشاً نحو الشمال بقيادة محمد عبدالله اللبناني فغزا كاتالونيا CATALUNNA وهاجم مدينة

برشلونة بشدة محاولاً استعادتها وانتصر على الفرنج في عدة مواقع دون أن يستطيع اخضاع أسوار المدينة . وشعر كل من الفريقين على ما يظهر بأن خصمه قوي وعنيف ففضلًا عقد هدنة مؤقتة استمرت في الحقيقة حتى وفاة شارلماן .

في آخر أيام الحكم وعندما شعر بدنو أجله استدعى ابنه ولي عهده عبد الرحمن فالقى إليه وصية بين له فيها ما يجب أن تكون عليه خطته في الحكم وفي سياسة الرعية . ثم توفي كما ذكرت سابقاً في عام ٥٢٠٦ م — ٨٢٢ :

عهد عبد الرحمن بن الحكم :

تولى إدارة الاندلس في اليوم الذي توفي فيه أبوه وكانت سنة آنذاك ثلاثة عشر سنة أذ كان مولده في حلبيطة سنة ٥١٧٦ - ٧٩٢ . وقد عرف باتساع ثقافته وخبرته في شؤون الحرب والإدارة فازدهرت الاندلس في عهده وبلغت درجة لم تبلغها في عهد من سبقة من الأمراء الامويين .

ان الفتن الداخلية التي كانت تقوم في الاندلس بصورة مستمرة كانت شيئاً طبيعياً انظر لاتساع البلاد وتعدد المناصر التي تشكل المجتمع الاندلسي والمنافسة القائمة منذ بدء الاحتلال بين قبائل العرب أنفسهم . والدرس الذي كانت تقوم به الدول المسيحية الإسبانية الشالية كـ توقع بين الامير وولاته من الطامعين في الحكم والماليين إلى احتكار السلطة لأنفسهم لذلك كله فانتلا تستغرب قيام عدد من الثورات في عهد الامير العظيم عبد الرحمن بن الحكم لم يكن لها إلا نتيجة ايجابية بل فشلت كلها وتابعت الدولة الاموية في الاندلس حياتها وتقديمها وزدهارها .

في فاتحة ولاية عبد الرحمن الثاني ، ثار عليه عمه عبدالله الذي طالما رأينا

يرفع لواء العصيان وقد التف حوله في هذه المرة عدد كبير من الناس واحتل
منطقة تدمير وقرر الزحف الى قرطبة الا ان المرض لم به وعاجله فتوفي في
سنة ٥٢٠ هـ = ١٨٢٣ م فانقلب موطنه حركة ثورية طالما ازعجت الامراء
المويين وشغلتهم .

وشغل عبد الرحمن بعد ذلك بأحمد فتنة نشبت بين المضريه واليمنيه في تدهير فارسل الجيوش لتهديه الاحوال الا انهم تفلج في ذلك وتعاب زعيم اليمينيين على المنطقة عدة سنوات غير مترى بقائه الامير عبد الرحمن حتى اذا انت سنه ١٣٥٢ — ١٣٨٤ م مل المقاومة وطلب الامان وعاد الى الطاعة

وكان ضمن حركات التحرر الكبرى التي ظهرت في عهد عبد الرحمن ايضا ثورة البربر في ماردة بقيادة الزعيمين سليمان بن مرتبين و محمود بن عبد الجبار . وقد انضم النصارى المعاهدون الى هذه الثورة كاشجاعا وامددها الفرننج بالرجال والاموال وقد دامت هذه الثورة بضعة سنوات تنقل خلالها الثوار من مكان الى آخر من بطليوس BEBA الى اكتونبه BADAOZ الى باجه OCSONOBA حتى لقىهم الاعياء فلما جآ محمود مع اخته البارعة الحسن جميلة الى جلاقيه لاجئا الى بلاط ملكها الفونسو الثاني ، فرحب به واكرمه . وعندما فكر محمود بالعودة الى طاعة امير قرطبة قتله ملك جلاقيه واسر اهله وصحبه وزوج اخته جميلة فحملها على اعتناق المنصرانية .

هذا وقد عادت المدينة التي اعتادت على الثورات - اعني حلية طلطة - الى التمرد في عام ٥٢١٤ - ٨٢٩ م فثار بها رجل من العامة يدعى هاشم الفراب واجتمع حوله عدد جم من الناس فأخذ يغير على المدن المجاورة ويعيث فيها فساداً . فارسل اليه عبد الرحمن جيشاً لقتاله اشتباك معه في عدة مواجهات غير حاسمة حتى تمكن في سنة ٥٢١٦ - ٨٣١ م من قتله خلال

احدى المعارض فتفرق اصحابه وخدمت حركته . ولكن على الرغم من ذلك فان طليطلة مستابع حياتها الثورية وستظل طوال حكم العرب في الاندلس مقرأاً لناقدين على اولى الامر في قرطبة وملاذا للفارين من وجه العدالة والخارجين على القانون .

الى جانب هذه المفاسد الداخلية فقد ظهر في عهد عبد الرحمن بن الحكم خمار جديد على الحكم العربي في الاندلس لم يتعرض له من قبل وهو خطر الفزوات النورماندية الشهابية .

ففي سنة ٥٢٢٩ - ٨٤٤ هـ هاجم اسغول نورماندي من الشام المؤلف من ثالنين مركباً مرفأ لشبوته LISBOA (عاصمة البرتغال حالياً) فنزل بمحارته - المعروفي في التاريخ باسم الفيكنج VIKINGS إلى البر واعملوا النهب والسلب والقتل في تلك المدينة واشتبكوا مع العرب في عدة وقائع فارسل إليها إلى عبد الرحمن بن الحكم يخبره بالخطر الداه . وبعد أن عاث النورمانديون فساداً في لشبوته مدة ثلاثة عشر يوماً توجهوا نحو الجنوب ومن ثم دخلوا نهر الوادي الكبير GUADAL QUIBIR ووصلوا حتى أشبيلية فاقتحموها وعاثوا في أنحائها سبعة أيام ثم غادروها وعسکروا في مكان قربها . وهزت العرب من كل مكان لصد الزحف النورمانديين فنشبت بين الفريقين بضعة معارك غير حاسمة حتى إذا كان الخامس والعشرون من صفر سنة ٥٢٣٠ - ١١ نوفمبر ٨٤٤ هـ هزم النورمانديون في معركة حاسمة وقتل عدد كبير منهم بعد أن احرق قسم من سفنهم ، فرأوا بأن الانسحاب افضل فارتدوا إلى سفنهم وتوجوا ثانية نحو المحيط . ولكنهم انتصروا من العرب في طريقهم بالاغارة على مدينة لبله وباجه ثم مرروا على ثغر لشبوته ومن هناك يموا وجهم شطر الشهـل بعد أن بقوا بضعة اسابيع يهاجمـون المدن الاندلسيـة ويلـقون الفزع والرعب في

نفوس السكان .

وكان من تأثير هذه الغارة المفاجئة ان عبدالرحمن بن الحكم وجه اهتمامه الى تقوية الاسطول وتحصين المدن وانشاء بعض دور الصناعة لبناء السفن ، فزاد بذلك عدد قطع الاسطول العربي في غرب البحر الامير متوسط وتمكن عبدالرحمن بذلك من اخضاع جزيرة ميورقة MALLORCA واحدى جزر الباليدار BALEARES فاضطر اهلاها الى دفع الجزية وتعبدوا بالولاء لامير قرطبة . ثم اتسعت بعد ذلك فتوحات العرب البحرية فوصلت الى كورسيكا وسردينيا وصقلية وهاجوا ثغر مرسيليا الفرنسي وغزوا ولاية بروفانس عند مصب نهر الرون وهاجوا مدينة ارل واقاموا عددا من المستعمرات في تلك الجهات .

واهتم عبد الرحمن الثاني كذلك بالغزو والجهاد ضد الدول الاسبانية في الشہل ضد الفرنجة فيها وراء البرية فمنذ السنوات الاولى من حكمه سنة ٢٠٨ هـ - ٨٢٣ م وجه جيشا الى الشہل بقيادة الحاج عبد الكرم بن عبدالواحد بن مغيث ضد ملك جليقه الذي كان قد اغار على مدينة سالم فاخترق الجيش العربي اراضي الاعداء وخرب منطقة اليه والقلاء وفرض الجزية على اهلاها ثم عاد متفقاً بالغنائم والسي .

بعد ذلك بستين عاماً عادت الجيوش العربية الى الاعارة على منطقة اليه والقلاء فاحرزت بضعة انتصارات عقدت على اثرها هدنة بين الفونسو الثاني ملك استورياس والامير عبدالرحمن الثاني دامت حوالي عشر سنوات .

بهاية المدنة اي في سنة ٥٢٢ هـ - ٨٣٨ م عاد عبدالرحمن الى سيره الغزو فأخذت الجيوش العربية منذ ذلك التاريخ تتعدد الى المناطق الشمالية غازية

انباء المدنة التي حدثت بين قسمي اسبانيا الاسلامية والسيجية وفي سنة
٥٢٧-٨٢٧ م بالتحديد اغار الفرنجة من ثغر برشلونة على الحدود الشمالية للبلاد
الاندلس العربية فسير اليهم عبد الرحمن جيشا هاجم مقاطعة كاتالونيا وانتصر على
الفرنجة في عدة معارك وحاصر مدينة برشلونة دوو ان ينجح في احتلالها ،
ولكنه اظهر للاعداء ان الدولة العربية ساهرة وانها لا زالت قوية
منيعة الجانب .

وقد تكررت محاولة غزو برشلونة من قبل جيوش عبد الرحمن الثاني في
سنة ٥٣٦-٨٥٠ م دون ان توفق الى ذلك مكتفيه بالحصول على كيات من العائد
والاسلاط مصطلحة معها عددا هائلا من الاسرى .

واخيراً قبل ان انهي هذه الامامة عن حكم الامير العظيم عبد الرحمن بن
الحكم لا بد ان اطرق الى ذكر حركة التصب الدينى التي اجتاحت بعض
النصارى الذين كانوا يعيشون في الاندلس فجعلتهم يقدموه على ارتكاب اعمال
لا يقرها الدين المسيحى ولا يؤيدوها المتذلون منهم .

وقصة ذلك ان عددا من نصارى الاندلس كانوا يعتقدون بأن حق وفهم
مهضومة في الدولة الاسلامية في الاندلس وان الحكم يعامـلونهم معاملة خاصة
بخجفة ، وان الوعود التي قطعواها على انفسهم حين احتلال البلاد لم تطبق بصورة
فعالية فنشأت بينهم حركة من التذمر والتصب ضد حكامهم العرب المسلمين وضد
الدين الاسلامي الذي اعتبروه السبب فيما اصابهم من الظلم والاضطهاد ، فلجاجاً بعضهم
الى سب الرسول العربي وتوجيه الاتهامات الى الدين الاسلامي معتقدين انهم بذلك
يقومون بواجب من واجباتهم الدينية والوطنية .

واما عالمنا بان الحكم الاسلامي في الاندلس قد اتصف باعظم ميزات

التسامح في الاندلس فترك للمدميين حرية ممارسة شعائرهم وتجارتهم والحق في بناء الكنائس وقرع النواقيس والاحتفال باعيادهم الدينية الخاصة وافسح لهم مجال الوظائف الكبرى وشغل عدد منهم مناصب كبار القادة في الجيش الاندلسي اذا علمنا كل ذلكرأينا كيف ان موجة التعصب التي اجتاحت اوائل المتمردين التعاملين لم يكن لها ما يبررها ، وان الغاية الاسامية منها كانت خلق الفوضى والفتنة ورمي بذور الثورة في نفوس الناس كي يعملا على التخلص من الحكم الاسلامي العربي .

وقد عمد عدد من هؤلاء المتعصبين الى سب النبي العربي علينا في الطرقات وفي الامكنته العامة وامام القضاة فاظهر المسؤولون المسلمين في باديء الامر تساهلا نسبيا معهم ولم يأمرروا باعدامهم فورا مع ان حكم من يتجرأ على التعرض للارسول القتل حالا ، ولكن هؤلاء زادوا في اهانتهم وصرحو علينا بأنهم يفعلون ذلك كي يقتلوا وينالوا الشهادة فلم يكن بوسع القضاة المسلمين امام ذلك الاصرار والتغطرف والتعصب الا الحكم على عدد من اوائل المتعصبين بالقتل . فنفذ ذلك الحكم وكان على رأسهم الزاهي اولو خيو والفتانان «فلورا» و«ماريا» الذين وضعهم رجال الدين الاميين بعد مقتلهم في عداد القديسين . الا ان تلك الحركة قد خدمت حين اعلن مؤتمر نصرا في عقد خصيصا لذلک الغرض بأنه يشجب تلك الاعمال ويعتبر مرتكيها خالفين تعاليم الدين المسيحي الصحيح وحيث زالت الرؤوس التي كانت تدبر تلك الفتنة وتشعلها .

وتوفي عبدالرحمن بن الحكم في سنة ٥٣٨-٨٥٢ وهو في الثانية والستين من عمره بعد ان حكم حوالي احد وثلاثين عاما . وكان مما يذكر له بالفضل والمعungan علاوة على توطيد الامن في احياء البلاد وحماية حدود البلاد من غارات العدو ، اعتناقه بالعلم والفن والبناء . قد زاد في مسجد قرطبة بهوين

جديدين فوسع مساحته واصبح يتسع لعدد اكبر من المصلين ، كما انه انشأ المسجد الجامع في اشبيلية ايضا وبني سورها الكبير بعد غزو النورمانديين لها ؛ وزين قرطبة بعدد من الحدائق الغناء .

وعلاوة على كل ما ذكر فقد ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة في عبده وزاد الدخل زيادة عظيمة فاصبحت الاندلس من اغنى دول العالم واقواها خطب ود امرائها اعظم الملوك والباطرة في ذلك الزمن فاتت السفارات الى قرطبة من الامبراطورية البيزنطية وهي مملكة الداغارك (حيث كان النورمانديون) ومن عدد من الدول المجاورة فعمض شأن الدولة وارتقت مكانتها .

عهد محمد بن عبد الرحمن بن الحكم :

صعد محمد الى سدة الحكم عقب وفاة ابيه في سنة ٨٥٢ = ٥٢٣٨ وعمره حوالي ثلاثين سنة اذ ان مولده كان في سنة ٨٢٣ - ٥٢٠٧ وكان ذكرياً منتفها الامور الا ان الثورات والمشاكل التي صادفها في عبده نفست عليه امارته وشققت طول مدة حكمه .

فإن المدينة الثانية طليطلة اعلنت كعادتها لواء العصيان منذ بدء حكمه ثم عادت الى ذلك بعد سنتين اي في سنة ٨٥٤ = ٥٢٤٠ بعد ان تناقض اهلها مع اردونيو الاول Ordonio ملك ايون وكذلك مع ملك نافارا ورأى محمد الخطر مستفحلا في هذه المرة فسار نحو طليطلة ، ولما قارب من الوصول اليها امر القسم الاكبر من جيشه ان يختفي ، وراء التلال وسار بالقسم البالقي نحو اسوار المدينة ، فلما رأى اهل طليطلة خالة الجيوش القادمة لاخضاعهم خرجن لقتالهم ومعهم حلفاؤهم الاسبان الشهابيون فتراجع محمد وجيشه متظاهرين بالهزيمة حتى وصلوا الى حيث تكمن باقي فرق الجيش

فخرج جنود الامير محمد من مخايمهم وانقضوا على اهل طليطلة وحلوائهم
 واعملوا فيهم القتل حتى قدر بعض المؤرخين عدد قتلاهم بأكثر من عشرة
 الاف وقدرها البعض الآخر بحوالي عشرين الفا . ورغم ذلك كله فان
 المدينة لم تهدأ بل اصبحت ملائكة لكل الناقمين على حكومة قرطبة الاموية
 وحتى القسس المتعصبين الذين كانوا يدعون الدعاية في كل مكان ضد الحكم
 الاسلامي ، ويدعون التنصارى الى التحرر من الاضطهاد والظلم . وقد ادت
 كل هذه العوامل الى قيام الفتنة في المدينة في مناسبات متعددة بعد ذلك
 واضطرب الامير محمد الى ارماں الجيش تلو الاخر لاخضاعها . وحصل في احدى
 المرات سنة ٤٢٤-٨٥٨ م ان لجأ الامير الى طليطلة فامر بهدم قواعد القنطرة
 الكبيرة مع تركها قائمة ثم اوعز الى جنوده بالانسحاب وحينذاك خرج اهل
 طليطلة لقتالهم ، فاما اصحابها فوق القنطرة سقطت في النهر وقتل منهم عدد
 واخر . وهاجم محمد بعد ذلك اسوار المدينة وابراجهها فخر بها حتى اضطر
 اهلها الى طلب الصلح واعلان الطاعة .

هكذا لبست طليطلة مدة طويلة تزعج حكومة قرطبة بثوراتها المتواترة
 لانها - وهي عاصمة القوط القديمة - لم تنشأ انطلاقاً من امام الفاتح العربي
 الجديد . وكانت تستمد من مناعة موقعها ووعورة الطريق المؤدية اليها سلاحا
 تعتمد عليه في خروجها عن طاعة امراء قرطبة .

وقد نشبت ثورات داخلية كثيرة اخرى في عهد الامير محمد بن عبد الرحمن
 بن الحكم تمكن من التغلب على معظمها فاحتل قلعة رباح Calatrava وعُقِّن
 من القضاء على ثورة مارده في سنة ٤٢٥-٨٦٧ م فطلب زعماؤها الامان وفي
 مقدمتهم عبد الرحمن بن مروان الخليقي وابن شاكر .. وقد استجاب الامير محمد

الىهم واعطام الامان على شرط ان يتقلوا الى قرطبة ويعيشوا فيها ، ففعلوا وبقي ابن مروان الجليقي بضعة سنوات في قرطبة اختلف على اثرها مع الوزير هاشم بن عبدالعزيز ففر من المدينة ولجأ الى قلعة Alanga في جنوب شرقى مارده واعلن الثورة من جديد بعد ان عني بتحصين اسوار القلعة .

وكان رد فعل الامير محمد سريعا اذ ارسل اليه جيشا حاصرا مدة ثلاثة اشهر حتى اضطره الى طلب الامان على ان يسمع له بالانصراف الى بطليوس Badajog وما ان عادت الجيوش الاموية متوجهة نحو قرطبة حتى اخذ عبد الرحمن بن مروان يقوى حصونها ، بل انه تحالف مع ملك ليون . ولما اتى الوزير هاشم لاخضاعه على رأس جيش ازل بهذا هزيمة فادحة واخذه اسيرا ولم يطلق سراحه الا بعد عامين من اسره لقاء فدية كبيرة دفعها من اجله الامير محمد . وحاول حكام قرطبة اخضاعه بشتى الوسائل فاستعصى عليهم ذلك في الاعوام التالية ، فلجأوا الى خطة الاعتراف به وواليا على ما يده من الحصون وامنوا بذلك الحال الموقت شره . واستطاع الامير محمد كذلك اخضاع بعض الثورات التي قامت في الشہل واهبها ثورة بني قسي اذ ان مطرفا واخاه اسماعيل ابني موسى بن موسى بن قسي استوليا على تطليه Tedela وسرقسطه فسار الامير محمد على رأس جيش ضخم في سنة ٨٧٢-٥٢٥ فاخضع تطليه وقبض على مطرف بن موسى اما سرقسطه فقد ظلت مدة خارجة عن سلطة الامراء الامويين في قرطبة والجيوش تتردد عليها وتحاصرها حتى استطاع المنذر بن محمد اخضاعها في سنة ٨٨٢-٥٢٦ فاعلن اسماعيل بن موسى خضوعه وقدم الرهائن عربونا على صدقه . ولكن ما ان عادت الجيوش الى قرطبة حتى انتزى في سرقسطه محمد بن اب بن موسى بن اخي اسماعيل وتحالف مع الفونسو الثالث ملك ليون فاسرع محمد في ارسال جيش استولى على المدينة من جديد بعد قتال عنيف .

اما الثورة الكبرى التي قامت في عهد الامير محمد وامتدت حتى ایام ابنه المنذر وعبد الله وكادت تطیح بالاسرة الاموية وتهـدد دولة الاسلام في الاندلس فـهي ثورة عمر بن حفصون التي اعلنها في جبل برشـتر Bobastro .

ينتسب عمر بن حفصون الى اسرة من المولدين ترجع الى اصل نصراوي قديم ، وقد دخل جده الرابع في الاسلام ، وكان ابوه غنياً ذات مكانة ورثوة لكن عمراً نشأ فاسداً سيء السيرة فأخذ يمارس اعمال النهب والاصووصية لان ذلك صادف هو في نفسه وانتف حوله بعض المفسدين والمعاطلين عن العمل فشكل عصابة اخذت تعيش في جهات ريشتر وريه Reyyo فساداً وتمدّى على الناس الاميين . ولم يوفق والي ريه في القضاء على حر كته فقوى شأنه وازداد عدد انصاره ، لكن جيشاً اموياً استطاع الانتصار عليه فاضطر الى التسلیم وحمل مع عدد من اصحابه الى قرطبة حيث عفا عنه محمد وعينه ضابطاً في جيشه . لكن نفس ابن حفصون الوثابة وجبه للتزعيم والرئاسة دفعه الى الفرار من جيش الامير والمودة الى منطقة ثورته الاولى في ريشتر حيث عاد من جديد الى سيرته الاولى في النهب والسلب والعيث ، فلما سار المنذر بن محمد لاخضاعه في صيف ٥٢٣-٨٨٦ وحاصر الحصن الذي التجأ اليه ابن حفصون اتاه نباء وفاة ابيه اثناء الحصار فحمد الى رفقه حالاً وعاد الى قرطبة فانهزمها الثائر فرصة ليقوى نفسه وبواسع منطقة نفوذه في ايام الامير الاموي الجديد المنذر بن محمد .

على الرغم من جميع المشاكل والثورات التي ملأت عهد الامير محمد فإنه لم يقصر عن توجيه الحملات والغزوات نحو الدول الشهابية كي يصد

اعتداءاتها ولكي يقوم بسنة الجهد القدس التي حصلها منذ تأسيس الامارة
الاموية الحاكمة الامير عبدالرحمن الداخل .

فقد توجبت عدة حملات قاصدة تغريب شلونة وما حولها من الحصون في
اعوام ٥٢٣٩ و ٥٢٤١ و ٥٢٨٥ و ٥٢٨٣ فتمكن من الاستيلاء على بعض الحصون
وارهاب الفرنجية دون ان تتمكن من الاستيلاء على برشلونة نفسها . اما بالنسبة
للهوال المسيحية الاسانية في الشهال فقد وجه الامير محمد عدة حملات الى ليون
ونافارا وقتلله واراجون استطاع في احداها على نافارا سنة ٥٢٤٦ م ان
يخرج حصون بانبلونه وان يأسر ملك نافارا الذي سبق الى قرطبة واعتقل فيها
حوالي عشرين عاما . كما اعاث في غاراته الاخرى على الدولة ذاتها فسادا في احائمها
وتخربيها لخصوصها واراضيها اما بالنسبة للدولة ليون فان ملوكيها كثيرا ما كانوا
يفضلون عقد الصلح مع المسلمين حين يشاهدون القوة الكبيرة المهاجمة كما حصل في
سنة ٥٢٦٨ و ٥٢٧٠ و ٥٢٨٣ ففي هذه السنة الثانية نجح سفير ليون في
عقد الصلح مع المسلمين في قرطبة وعاد الى العاصمة اويفيد Oviedo وهو يحمل
رفات القس Elulogio وصاحبته لوكريسييا Lucrecia اللذين اعدما
بقرطبة قبل ذلك بنحو عشرين عاما لتهمهم بمعتقدات المسلمين ولا هما هم
الرسول العربي .

يعتبر الامير محمد بن عبدالرحمن من خيرة امراء بني امية واوفرهم
ذكاء وحزم وقد سار اثناء حياته على خطة اقتصادية جيدة ، فجنب
يت المال كثيرا من المصارييف الزائدة ، وضعف في اقامه نفوذ الجواري
والصفالة في القصر . هذا ولم يتسع له الوبق لقيام بمشاريع انشائية
ضخمة فيما عدا بعض الزيادات التي ادخلها على المسجد الجامع بقرطبة وعلى
القصر الكبير واصحاته .

عبد المنذر بن محمد بن عبد الرحمن :

يُو碧ع بالamarah في سنة ٨٨٦ = ٥٢٧ هـ وهو في الثانية والأربعين من عمره اذ كان مولده في قرطبة سنة ٢٢٩ هـ = ٨٤٤ م . وقد ابىت منذ مطلع حكمه قوة شخصيته واعتماده على نفسه في تسيير الامور اذ انه بطلس بالوزير القديم هاشم بن عبدالعزيز لتعاظم هذا وطغيان سلطنته وندب لحاجاته شخصا آخر هو عبد الرحمن بن امية بن شهيد .

وقد وجه الامير المنذر جيشا الى مدينة طليطلة التي كانت قد عادت الى الثورة لاخضاعها ، فاستطاع ان يهزم الشوار ويتصر عليهم كما انه اوعز في السنة ذاتها الى صاحب التغر الاعلى محمد بن اب ان يفزو اراضي مملكة ليون الاسپانية ففعل وقال على اعداء العرب عدة انتصارات .

الا ان ام ما شغل المنذر في المدة القليلة التي حكم فيها هو ثورة ابن حفصون . فان هذا مند ان رفع المنذر الحصار عن اراضيه بعد سماعه بنبأ وفاة ابيه محمد ، لم يفتّا يقوى نفسه ويفتر على الاراضي والمحصون المجاورة فيحتلها حتى اصبحت رقمه كبيرة من البلاد خاضعة له . فخرج اليه المنذر سنة ١٠٤ = ٨٨٨ م معزما القضاء عليه ، وقد بدأ المنذر بمحصار ارشدونه فأخضعها وبقى فيها على يثيل ابن حفصون المولود عيشون ثم قطع بعد ذلك حصنون جبل باقه واسر فيها حارث وعون وطالوت من بي مطروح وارسلهم الى قرطبه مع عيشون حيث قتلوا صلبا . وصلب مع الاخير خنزير وكلب امعانا في اهاته . وكان ابن حفصون ممتنعا في برشتر ففرض المنذر عليه الحصار الشدد ، ولما خشي عمر ان تقع المدينة بيد المنذر لجأ الى الحيلة فأعلن بأنه يريد الاستسلام على ان يعطي اليه

مائة بغل لتحمل أهله ومتاعه كي يرحل مع الامير إلى قرطبه . وفي الطريق
 إلى العاصمة ، وبعد أن تأكد عمر أن الجيش قد أصبح بعيداً عن
 برشتر فر تحت جنح الفلام مع البغال والأشياء التي كانت تحملها وعاد إلى
 برشتر يعلن الثورة من جديد . وغضب المنذر لثلك الخيانة وصمم على
 المودة لاخضاع الشائر ، لكن المرض المفاجئ الذي لم به حال دون
 تمكنه من ذلك بل أودى بحياته وهو يقوم بمحصار المدينة الثائرة ، وكان
 ذلك في سنة ٢٧٥ = ٨٨٨ م . وتذكر بعض الروايات أن عبد الله أخاه
 المنذر كان هو السبب في موت أخيه كي يصعد إلى سدة الحكم مكانه .
 ففريق يقول أنه مات على أثر فصده ببعض مسموم ، وأآخر يقول بأن أخيه
 قد قدم إليه شراباً مسوماً . وعلى أي حال رفع الحصار عن برشتر لدى
 وفاة المنذر وعاد الجيش إلى قرطبه ينظم شؤونه كي يقوم بغارات جديدة على
 ابن حفصون في عهد الخليفة الجديد . وقد كان المنذر سياسياً محظياً وقائداً
 عسكرياً ناجحاً بامكانه اخداد الفتنة في الاندلس والقضاء على ثورة عمر
 بن حفصون لو طال به الامد أكثر من هذا ، ولكن وفاته منعتنا من أن نقدر
 حق تقديره ، وفتحت باب الامارة لأخيه عبد الله .

عهد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن :

خلف أخيه المنذر في نفس اليوم الذي توفي فيه من شهر صفر سنة
 ٢٧٥ = ٨٨٨ م وكانت مولده في قرطبه سنة ٢٣٩ = ٨٤٤ م
 وسننه حين تولى الامارة اربعين واربعين عاماً .

بدأ عبد الله حكمه في ظروف صعبة قاسية فكان عليه ان يواجه
 الفتن التي قامت في كل مكان ، الفتن التي كان يقوم بها الزعماء العرب
 انفسهم حين يرون الفرصة سانحة والثورات التي بدأ البربر يعلنوها والمارك

التي كانت تتشبّه بصورة مستمرة بين العرب والولدين كنتيجة لامداوة المنصورية
بينهم ، والخروب الاهلية بين العرب والبربر . فامتلاط الاندلس في ایام الامير
عبد الله بالفن وصار في كل جهة متغلب ، ولم تزل كذلك طول ولايته . (١)

وكان أول الثورات التي فكر عبد الله في ضرورة اخمادها هي
الثورة الخطيرة التي اعلنها ابن حفصون على الحكومة الاموية والتي لم يوفق
اخوه ولا ابوه في القضاء عليها . اخذ الامير يستعد لمهاجمة ابن حفصون
في معاشه ولكن هذا اراد على ما يظهر ان يقوم بخطوة يكسب بها رضى
الامير ، ويحافظ على المناطق التي يده ، فحمد الى ارسال ابنه حفص
الى قرطبه طالباً عقد السلم مع الامير عبد الله على أن يقيمه واليَا
لمنطقة برشتر .

وقد وجد الامير بدورة تلك المناسبة ملائمة للاتهاء من ثورة
جامعة كثورة عمر بن حفصون ، فقبل غرضه وأقره في منطقة برشتر .
وأعاد ابنه اليه مع كثير من المهدايا ، كما ارسل معه عبد الوهاب بن
عبد الرؤوف ليكون مساعدًا لابيه في حكم المنطقة . ولكن ما ان مهى
على ذلك بضعة اشهر حتى شق ابن حفصون عصا الطاعة من جديد فطرد
مثل الامير وعاد يعيث في الارض فساداً . وقد وصلت غارانه قرب
العاصمة فدب الذعر بين الناس وصمم عبد الله حينذاك ان يخرج اقتاله على
رأس قوات كبيرة . وتوجه عبدالله هذه المرة لحصار احد الحصون القوية
التابعة لابن حفصون وهو حصن بلاي Poley ولا اقرب من الحصن

(١) ابن الاثير الكامل ج ٧ ص ١٥٤

كانت قوات ابن حفصون بانتظاره على مقرية من الحصن ، فثبتت بين الفريقين معركة هائلة في سنة ٢٧٨ هـ = ٨٩١ م انتصرت فيها قوات الامير انصاراً مبيناً وقتلت الوفا من الثوار ، واختر ابن حفصون للفرار الى شعب الجبال في الجنوب منها الى بربشتر قاعدته الرئيسية . وسار الامير بعد ذلك الى مدينة استجه escija التابعة لابن حفصون فاحتلها ثم تابع طريقه الى بربشتر ولكن قوات ابن حفصون لم تجبره على خوض معركة جديدة معه بل اكتفت بالمقاومة من وراء الاسوار . ويظهر أن الامير رأى بأن احتلال المدينة صعب لأن الاستعدادات لم تكن قد اخذت لاقيام مثل ذلك العمل الجبار فعاد الى قرطبة بعد ان وجه لابن حفصون ضربة اليمة .

بعد ان مضى عامات على هزيمة ابن حفصون أمام حصن بلاي ، رأى الامير عبدالله أن عليه أن يجدد هجماته على منطقته كي لا يتنهى الشائز فرصة السلم فقوي نفسه ويصبح من الصعب القضاء عليه . ولذلك ارسلت الحملات المتتابعة لقتال ابن حفصون ما بين سنة ٢٨٦ و ٢٨٩ هـ = ٨٩٤ و ٨٩٩ م دون ان تسفر عن نتيجة حاسمة . وفي سنة ٢٨٦ هـ = ٨٩٩ م اعلن ابن حفصون اعتناقها للنصرانية مع سائر افراد اسرته واتخذ لنفسه اسم جديداً هو سموئيل . ويظهر ان ابن حفصون لم يكن مخلصاً في اسلامه . ولكن على أي حال كان لذلك أثر سيء على ابن حفصون وقواته ، إذ هجره على أثر ذلك كثير من انصاره وتار عليه بعض قواده المسلمين وامتنعوا بحصونهم وارسلوا الى الامير يعلنون له طاعتهم .. أما ابن حفصون فقد حاول أن يقوى نفسه عن طريق التحالف مع الفونسو الثالث ملك ليون ومع بني قبي . كما حدث انه في سنة ١٨٨ هـ = ٩٠٠ م ساءت العلاقات بين

الامير وبن ابراهيم بن حجاج والى اشبيليه فثار هذا وتحالف مع ابن حفصون
فشكك الاثنان قوة لا يستهان بها .

في ذلك الوقت ، حدثت محاولات لاصلاح بين الامير وبن حفصون ،
لكتها لم تصل الى نتيجة وعاد القتال الى ما كان عليه . وقد توالى
حملات الامير على ابن حفصون حتى عام ٩٥٩ - ٩١١ م دون ان تفلج في القضاء
عليه نهائيا وأن نجحت في احباط خططه وإنهاك قواه .

خلال ذلك نشب عدد من الثورات التي لم يكن لها أهمية كبيرة
في مختلف أنحاء الاندلس فاخمدتها عبد الله تارة بالقوة وطوراً بالياسة
وآخر بالحيلة . فقد ثار بعض الزعماء العرب في بعض المناطق كرد على
ثورات المولدين في بريشتر وطليطلة وغيرها وأشتبك اصحاب تلك الثورات
بالمولدين والمصارى فعلاً ، فحدثت بين الفريقين معارك طويلة غير حاسمة .
وكان في عداد المناطق التي أعلنت الثورة منطقة البيرة elbira التي
كانت كلها قتل فيها زعيم عمدت البيوتات العربية إلى انتخاب زعيم آخر
مكانه يشي على خطة سابقه في قتال المولدين والمصارى ، وانتشرت الثورة
أيضاً في شذونه وجيان jaen وباغه ولبله ومرسيه Murcia ولورقة Lorca ..
إلا أن هذه الثورات لم تكن ذات خطورة كبيرة كما
قلت ، ولم تكن تصطبغ بتلك القسوة والقوة التي كانت تظهر في ثورات
المولدين والبربر . وقد استطاع بعض أولئك الزعماء العرب أن يحافظوا على المناطق
التي انتزوا فيها حتى مجيء عبدالرحمن الناصر .

هذا وقد كانت اشبيليه أيضاً أعظم المدن الاندلسية وأمنها آنذاك
تمد قرطيه مسرحاً لفتنة دموية طويلة خلال حكم الامبراطور عبد الله .

فقد ثار فيها بنو عبه خلال بضع سنوات ، ثم لما ضعف شأنهم تسلم زعامة المدينة بنو حجاج وبعد هؤلاء بنو خلدون . وكان الامير عبد الله يضطر في كثير من الاحيان أن يوافق على ولادة بعض أولئك الزعماء العرب في اشبيليه قائماً بظاهر الخضوع الاسمي التي كان الولاية يعنونها له عوضاً عن قيامه بأعباء الحرب ضده .

بالنسبة لابطليوس فان الامير عبد الله أقر عليهم الزعيم الشاذ عبد الرحمن بن مروان الجليقي ، وظللت المدينة بيده ويدى خلفائه حتى انتزعها منهم الناصر في سنة ٩٣٧ هـ = ٥٢٩ م كاسنترى .

وأما طليطلة فقد كان يسيطر فيها عائلة بربريه هي عائلة بني ذي النون منذ أيام الامير المنذر . ولكن بني قسي استطاعوا التغلب عليهم في بعض الفترات وانتزاع المدينة منهم . وفي سنة ٩٠٦ هـ = ٩٣٣ م نجح زعيم من البربر الحليين هو ابن الطريشة حليف بن ذي النون في الاستيلاء على المدينة الى أن انتزعها منه الناصر . وقد استمر بنو ذي النون يحكمون في المناطق القرية من طليطلة حتى منحت لهم الفرصة في أواخر أيام الخلافة الاموية فاستولوا على طليطلة وأسسوا دولة كان لها شأن بين دول الطوائف فيما بعد .

وفي سر قسطنه كان بنو قسي يشرفون على أيامهم الاخيرة ، حيث أن التجيبيين بزعامة عبد الرحمن بن عبدالعزيز التجيبي وأبنه محمد من بعده المعروف بأبي يحيى تمكنوا من انتزاع النصافة منهم . فكان محمد بن لب آخر امراء بنو قسي فيها ، ذهب ريحهم من بعده وأصبح التغر كله يد أبي يحيى محمد التجيبي .

وفي مدينة تقليله وما جاورها أقر الامير عبدالله لبا بن محمد بن

لب الولاية فيها بعد وفاة أبيه محمد أمّام أسوار سر قسطنه . فلما مات هذا تابع أخوه عبدالله بن محمد بن لب خصوّعه للامير الاموي في قرطبه ، لكن قام ثائر جديده في تلك المنطقة ينافّعه السلطة وهو محمد بن عبد الملك بن شبريط الملقب بالطويل فوقع معارك عديدة بينه وبين عبدالله ابن محمد بن لب واستولى على كثير من المدن والمحصون التي كانت بأيديهم فاشتد بأسه وقوى أمره حتى أضطر عبدالله بن لب إلى مهادنته ، واشترك الاثنان في الجهاد ضد النصارى في الشهال فقتل الطويل في أحدى الفزوات وقام أولاده مكانه .

لم تترك الثورات السابقة الذكر من الوقت للامير عبدالله محمد ما يسمح له بالقيام بالفزوات التي اعتاد أمراء قرطبه شنها على الدول النصرانية في الشهال ، كما أن النصارى من جهتهم لم يقوموا بفزوات ذات شأن في الاراضي الاسلامية عدا عن تمكن الفونسو الثالث ملك ليون من الاستيلاء على مدينة سمورة Samora في سنة ٢٨٠ هـ = ٨٩٣ م . ولكن اذا لم يتمكن عبدالله من الفزو بسبب الفتن والثورات الكثيرة ، فإن بعض ولاة الثغر الاعلى والمناطق الشمالية قاموا بشيء من ذلك الواجب فغزا لب بن محمد بن لب آل قبي أراضي ليون سنة ٢٩١ هـ = ٩٠٤ م واستولى على بعض الحصون واقتصر على الفونسو الثالث كأنه غزا دولة نافارا في سنة ٢٩٤ هـ = ٩٠٦ م فثبت بينه وبين الملك سانشو معركة شديدة هزم فيها لب وقتل عدد من جنده . ثم توفي لب بن محمد فظنن النصارى أنهم تخلصوا من غارات الولاية العرب ، يد أن الطويل خيب ظنهم باغارته على منطقه بليمارس في أقصى الشهال في عامين متتالين فعمّ كثيراً من الفنائيم وقتل كثيراً من الاعداء . ثم اشترك في سنة

٢٩٨ = ٩١١ م مع عبدالله بن لب من أمراءبني قبي أيضاً في غزو نافارا والزحف الى عاصمتها بابلوونه وسلك كل من الاميرين طريقاً مستقلاً ، ولكنها لم يتمكنا من الفوز في معركة حاسمة . كما أن الطويل عاد الى غزو مقاطعة كاتالونيا (وعاصمتها برشلونة) في العام التالي فانتصر في إحدى المارك على أميرها اللقب بالكونت ثم ما لبث الطويل أن قتل في تلك المعركة بالذات في غزوة ثانية قام بها هناك .

إذا لم يستطع الامير عبد الله الاستيلاء على أي جزء من أراضي النصارى في الشمال ، فإنه قد استطاع بفضل قواده الشجعان المفامرين من التوسيع في جهة أخرى هي الجهة الشرقية : أعني في جزر الباليار . ففي أواخر عهد عبد الله سنة ٢٩٠ هـ = ٩٠٣ م عرض القائد عصام الخولاني على الامير مشروع فتح جزر الباليار التي كان عصام قد عرفها أثناء إحدى اسفاره في الحج ، فوافق الامير لتوه وأمد عصام بالسفن والمؤن . ولما وفق هذا إلى فتحها أقره الامير على ولايته ودخلت الباليار منذ ذلك الوقت في حظيرة الدولة الإسلامية .

بعد هذا كله ، وبعد أن استطاع عبدالله انتقاد الدولة العريبة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط من الاميرات من جراء الفتنة التي قامت في إنحائها ومن جراء تأمر المؤمنين والنصارى على حكومة قرطبة ومن جراء ظهور البربر واطماعهم على مسرح الاندلس السياسي ، ذهب إلى خالقه في سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م وهو في الثانية والسبعين من عمره بعد أن حكم خمساً وعشرين عاماً مليئة بالاضطراب والضلال .

وقد كان عبد الله أميراً ورعاً محبًا للخير علاماً أديباً يجيد نظم

الشعر حريصاً على إقامة العدل قاسياً في تعريف الحق والحدود . ولم يتورع
عن قتل أعز الناس لديه حتى ولدين من أولاده وآخرين من أخوته عندما
رأى بأنهم قد خرجوه عن الطريق السوي ، وعندما صوروا له بأنهم
يتربصون به الدوائر كي يزيموه عن الحكم .

المقدمة المائية

عصر الخلفاء

عبد الرحمن الناصر

تولى بعد وفاة جده عبدالله مباشرةً أبي في سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م وكان عبدالله قد اختار محمدًا أكبر أولاده ليخلفه في ولادة المهد. إلا أن أخيه مطرفاً حقد عليه وقتلته، فتحول عبدالله حينذاك الامارة إلى حفيده عبد الرحمن بن محمد المقتول وأوصى الجميع بعطانته. وقد ولد عبد الرحمن في قرطبة في شهر رمضان ٢٧٧ هـ - يناير ٨٩١ م فكان له من العمر حين ولادته أحدي وعشرون سنة.

ظهرت على الامير الجديد منذ نعومة أظفاره علامات النجابة والذكاء والتفوق ، فاستبشر الناس خيراً به ورجوا الخير والازدهار على يديه . فلما تمت بيعته علق الناس على حكمه اعدب الاماني وأكبر الآمال .

ولقد كان عبد الرحمن عند حسن ظن الشعب به ، إذ استطاع اخراج مختلف الثورات في الاندلس . فلم يجد يحيى ثائر على اعلان العصيان

وقضى نهائياً على حركة ابن حفصون . كما قام بالكثير من الغزوات الى الذول النصرانية في الشہل فالقى الرعب في قلوب سكانها ولم يؤثر عليه انتصار العدو في معركتي شنت انتبان San Esteban والخندق Alhoudega وتمكن من احتياج أراضي ليون وفافارا واستورياس وقتلاته فطلب معظم ملوكها الصلح واضطروا للدفع الجزية في بعض السنوات . هذا وقد تمكن الناصر أيضاً من رد الخطر الفاطمي عن الاندلس ، بل زاده على ذلك استطاع احتلال بعض مناطق الغرب التابعة للفاطميين أو التي كان يطمع الفاطميون بسط تفوذه عليها نهائياً ، فحد من توسيعهم وأظهر لهم قوته فلم يجرؤوا على التفكير في غزو الاندلس مع العلم بأنه لو عاصرهم في تلك الفترة أمير ضعيف لما ترددوا في الاستيلاء على بلاده وضمنها إلى امبراطوريتهم الواسعة التي امتدت من مراكش إلى سوريا ، ورغم مشاغل الحكم الكثيرة ، فقد وجه الناصر عنابة كبيرة للبناء فشيده عدداً من الابنية الفخمة على رأسها مدينة الزهراء التي جعلها عاصمة لملكه ومقرأ له ولعائلته وحاشيته ، وقد ذاع صيته في الآفاق لدرجة أن معظم ملوك ذلك العصر خطبوا وده وسمعوا إلى صداقته ، فارسلوا إلى قرطبة السفاراة ولو الأخرى لعقد معاهدات التحالف معه وتوسيع الصلات مع دولته القوية .

في السنة الأولى من حكم الناصر خرج بنفسه على رأس جيش متوجاً إلى منطقة جيان حيث كانت الثورة قائمة فيها فاستولى على أهم حصونها وقدم له زعماء الثورة طاعتهم . ثم سار بعدها إلى وادي آش Gljuadiax ومنه إلى سلسلة جبال الثلج Sierra Nevada فاخضع تلك المنطقة كلها ، وقضى على العناصر الثائرة فيها وعاد إلى قرطبه بعد أن استغرقت غزوه زهاء ثلاثة أشهر .

وفي سنة ٣٠١ هـ = ٩١٣ م تمكن عبد الرحمن من إخضاع أشبيلية بعد حصار طويل لها ، فهدم أسوارها وأرسل إليها وال من قبله فقضى بذلك على ثورة الولدين فيها . أما في الأعوام التالية التي اقضت من سنة ٣٠١ - ٣٠٥ هـ فان عبد الرحمن تمكن من التغلب في بعضه معارك على ابن حفصون وحلفائه النصارى ، وافتتح عدداً كبيراً من المدن المنيعة والمحصنة القوية ، حتى إذا أتت سنة ٣٠٥ هـ = ٩١٧ م وقع حادث كان له أكبر الاثر في تهدئة الاحوال في الاندلس وهو موت الثائر الكبير عمر بن حفصون .

اما اولاده الاربعة سليمان وعبد الرحمن وجعفر وحفص ، فقد حاولوا المضي في المقاومة ، إلا أن قواهم كانت تضعف اليوم بعد اليوم ومحصونهم تقع في أيدي جيوش الامير حتى قضى على آخرهم في سنة ٣١٥ هـ = ٩٢٨ م وخضعت مدينة يشتري للامير عبد الرحمن ، وأخرجت رفات ابن حفصون وولده سليمان منها فارسلت الى قرطبه . وكان لابن حفصون قنطرة اسمها Argentea قبض عليها فيما بعد وأعدمت لارتدادها عن الاسلام وتعسكها بالنصرانية وتهجيمها العلني على الدين الاسلامي . وقد حدث ذلك سنة ٣٢٦ هـ = ٩٣٧ م .

وقد أخضع عبد الرحمن في تلك الفترة أيضاً طليطلة وبطليوس وتدمير وبلنسية VALENCIA فاستطاع بذلك القضاء على الشورة في مختلف التواحي بعد أن لبت مدة طويلة تقض مضاجع الدولة في قرطبه و تستنفذ قواها المادية والعسكرية .

لئن شغل عبد الرحمن باخداد الفتن الداخلية فان ذلك لم يكن يمنعه من القيام بالجهاد المقدس ضد الدول النصرانية في الشمال .

وكان هؤلاء كثيراً ما يقومون ب زيارات السلب والنهب والفتوك على حدود الدولة المرية وضمن أراضيها فيضطر الامير الاموي الى اجابتهم بسفارات فتاكه مدمرة كي يلزمهم حدهم ويشعرهم من حين لآخر بقوة الدولة العربية .

فقد حدث أنه في سنة ٣٠١ هـ = ٩١٢ م هاجم ملك ليون اردونيو الثاني ARDONH أراضي العرب فتوغل في منطقة ماردة وأخذ منها القنائيم والاسلاط ، ثم عاد من دون أن يجرأ أحد على الاعتراض عليه . فلما علم عبد الرحمن بالأمر أرسل قائمه أحمد بن أبي عبيده في جيش كبير الى أراضي ليون فهزم جيشها في عدة معارك وعاد في أنحاء البلاد فعاد ثم عاد معملا بالقناائم والأسري . إلا أن اعتدالات النصارى قد تكررت على حدود الاراضي الاسلامية فتعددت الحالات التي أرسلها الناصر لقتالهم والتي تكانت من اجتياح عواصم الدول المسيحية بابلونه (عاصمة نافارا) وسمورة (عاصمة ليون) وبرغش BURGOS (عاصمة قشتالة) حتى خضع ملوكيها وطلبوا الصلح .

لقد تكبدت جيوش الاسبان من الانتصار في معركتي شنت اشتباخ في سنة ٣٠٥ هـ = ٩١٧ م والتفدق سنة ٣٢٧ هـ = ٩٣٩ م على الجيوش المرية الاسلامية - ولكن هذه استطاعت أن تحرز انتصاراً في معارك متعددة لا بل استطاعت أن تحرز النصر الاخير على الدول الاسبانية المسيحية في الشهاب رغم اتفاق جيوشها في كثير من الاحيان ضد حكومة قرطبه اضطر معظم ملوكيها الى أن يطلبوا الصلح مع عبد الرحمن الناصر ، وأرسلوا الى قرطبه سفارات من أجل هذا الغرض كاسنرى ، فاستقرت الاحوال فترة من ازمن وساد السلم ربوع اسبانيا في الفترة الاخيرة من حكم الناصر .

لم ينس الخليفة عبدالرحمن — وكان قد اخذه لقب الخلافة منذ سنة
 ٣١٧ = ٩٢٩ م — أن يوجه اهتمامه لمقاومة الدعوة الفاطمية التي
 اجتاحت شمالي إفريقيا وأخذت تهدد الاندلس . كان عبدالرحمن يخشى انتشار
 المذهب العلوي في الاندلس كـ يخشى تغلب الفاطميين العسكري عليه .. فبادر
 لاظهار قوته بارسال سطول الى سنته استولى عليها^(١) مما دفع أمراء البربر من
 الادارسة وزراثة الى مهادنته وطاعته فامتدى نفوذه الى فاس ، وتحالف معه
 موسى بن أبي العافية أمير مكناسه فأمدده الناصر بالهدايا والاموال .. وقد
 يقى الفاطميون طوال حكم الناصر وبعد ذلك حاولون بسط نفوذهم على
 المغرب كله والقضاء على خلفاء الناصر ، إلا أنهم لم يتمكروا من ذلك لأن
 الأمير الأموي كان يراقب حركاتهم ويقف على اهبة الاستعداد لرد خطورهم
 فاكتفوا بمنازعته السلطة في تلك الجهات دون أن يحاولوا عبور مضيق
 إلى شبه الجزيرة الإيبيرية الا بهم إلا بعض سفنهم التي أغارت في سنة ٤٣٣هـ
 = ٩٤٥ م على مرفأ المرية ALMERIA فعاثت فيه فسادا ورد الناصر
 على تلك الغارة بارسال قوة بحرية بقيادة أمير البحر عاب الى شواطئ تونس
 عاثت فيها ورجعت غائمة بعد أن ثارت لغارة الفاطميين .

لم تمنع مشاغل الحرب والسياسة الخليفة الناصر من القيام بأعمال
 الانشاء والمعمران ، فأشاد عدداً من القصور الرائعة واستدعي من أجل
 ذلك المهندسين والفنانيين من مختلف أنحاء العالم ، كما انشأ منتزهات عامة جلب
 إليها الماء من الجبال المجاورة . ولكن عمله الرئيسي في البناء والمعمران هو
 اشادته لمدينة الزهراء ...

كانت تقع المدينة الخلافية الجديدة على مسافة خمسة أميال من

(١) كانت سنته في يد بعض الولاة من البربر المواليين للفاطميين .

قرطبه ، وقد بدأ العمل فيه سنة ٩٣٥ م = ٥٣٦ هـ ولم تنته تماماً حتى
 بعد وفاة الناصر رغم أن هذا قد انتقل إليها مع عائلته وحاشيته منذ سنة
 ٩٤٠ هـ جاعلاً لها مقره الجديد ، وتصف لنا كتب
 التاريخ الاندلسي ما كانت عليه تلك المدينة من المظمة والروعه ، وما كانت عليه
 قصورها من الفخامة والترف ، وما كانت تحويه من التحف والذخائر التي
 جابت من مختلف أصقاع الأرض وأهديت إليه بمناسبة بنائه لمدينة الزهراء .
 وقد اتصل البناء بينها وبين قرطبه حتى أصبحت تشكل جزءاً منها رغم أنها
 كانت محاطة بسور خاص بها له سبعة أبواب من الحديد . ييد أن الزهراء لم
 تعم طويلاً كاسنرى لأن الخاقب المنصور بن أبي عامر عندما استولى على
 مقدرات الامور في البلاد وأصبحت السلطة الحقيقية له وليس للخلفاء
 الامويين ، عمد إلى بناء مدينة جديدة أسمتها الزاهرة جعلها مقرّاً له وقادده
 لحكمه فتحولت الأهمية من الزهراء إليها . ثم لما قامت الفتنة في الاندلس وبدأ
 الزراعة الطويل الدامي بين العرب والبربر هوجمت مدينة الزاهرة في عدة
 مناسبات وأحرقت ولم تأت نهاية الدولة الاموية حتى كانت قد أصبحت
 اشترا بعد عين ففارقتها الحياة التي كانت تدب فيها من قبل وامتدت
 بمحاجل مناظرها وعذب مائتها خراب واطلاولاً لا حرّكة فيها ولا أثر لحياة بين
 جوانبها .

هذا ولا بد لنا قبل أن نختتم هذه النبذة عن عبد الرحمن الناصر
 أن نذكر شيئاً عن مدى اعتماده على بعض المناصر غير العربية في توطيد
 أمور دولته وتسيير شؤونها كأنصقالبه والوالى والبرارة ، وبصورة خاصة
 الصقاله .

كان عبد الرحمن يشك في أخلاص القبائل العربية له أخلاصاً تماماً ،

وكان يعلم مدى الدور الذي تلعبه العصبية والقرابة عند العرب . فعمد ، تكيناً لمركزه ، إلى اقصاء بعض الرعماء العرب عن المناصب الكبرى واستبد ممظمهما إلى فتیان من الصقالبة بعد أن أبقى لنفسه كل السلطات الحقيقة في الدولة ، فوجه بعمله ذلك إلى الارستقراطية الغربية ضربة شديدة لم تستعد نفوذها بعدها مما أدى تقوية إلى المناصر الأخرى حتى نافت العرب في الحكم واستطاعت أن تحكم في بعض أجزاء البلاد عندما قامت الفتنة الكبرى وأنهارت الخلافة وقامت على انقضائها دولة الطوائف .

بقي علينا أخيراً أن نقول أن هذه الدولة القوية التي أوجدها عبد الرحمن الناصر في الأندلس قد تبوأ المكانة الأولى بين الدول العربية الإسلامية آنذاك . فاتجحت إليها انتظار الدول الأوروبية والنصرانية بصورة عامة وسمعت إلى عقد العلاقات الدبلوماسية معها ، فتوافدت إلى قرطبه سفارات تمثل أقوى تلك الدول وأعظمها نفوذاً . وفي عام ٩٤٧ هـ = ١٣٣٦ م وفد إلى قرطبه رسول قسطنطين السابع إمبراطور البيزنطيين يحملون معهم المدحيا النفيضة ، فاستقبلاه أحسن استقبال وبهرتهم عظمة بلاط الناصر وجلاله وزخارفه ومشاهير الغنى فيه . ثم عادوا إلى القسطنطينية يصححهم وزير من قرطبه بعد أن قضوا مئتين في رحلته .

ثم توافدت بعد ذلك بالتوالي إلى الأندلس سفارات تمثل بطرس ملك الصقالبة ولويس الرابع ملك فرنسا وأوتو الأكبر إمبراطور المانيا والدول النصرانية الإسبانية في الشهاد من ليون إلى نافارا إلى قشتالة وغيرها .. فذاع اسم الناصر وعاد للامميين مجدهم . وترك عبد الرحمن الذي وفاته في سنة ٩٦١ هـ = ١٣٥٠ م دولة غنية زاهرة يرفرف فوق ربوعها الامن

وتنسابق الدول الى توثيق الصلات معها .

عهد الخليفة الحكم الثاني :

خلف الناصر أكبر أولاده الحكم المستنصر بالله الذي آتاه أبوه
منذ حداثته على سائر أخواته وولاه عبده . يويع في اليوم الذي توفي فيه
الناصر أي الثالث من رمضان سنة ٩٣٥ هـ = ١٢٥١ م - وكان
الحكم يومئذ في السادسة والأربعين من عمره إذ كان مولده في قرطبة في جمادى
الآخر سنة ٩١٥ هـ = ٤٠٢ م .

كان الناصر قد ترك كذا ذكرنا دولة موظدة الاركان قوية الدائم ،
فلم ير الحكم نفسه بحاجة الى تحريض العبروت لسحق الثورات بل عرفت
البلاد في عهده نوعا من الاستقرار والرخاء كان امتداداً لافترة الاخيرة من
عهد عبدالرحمن الناصر تمكن الحكم خلالها من الاهتمام بشؤون دولته الداخلية
وتوجيه المزيد من العناء الى السياسة الخارجية .

لم يكن قد مضى سوى وقت قليل على وصول الحكم الى المرش
حين ظهرت بوادر المدواان من جانب النصارى الاسپان في الشہل . وكان
الناصر قبيلاً وفاته قد أمد ملك ليون سانشو الاول بعض المال والجند
لاسترداد عرشه من ابن عمّه المفترض اوردونيو الرابع الذي اضطر الى
الفرار الى مدينة برغش في الشہل سنة ٩٤٩ هـ = ١٢٥٠ م واشترط
الناصر شيئاً لمساعدته هدم وتسليم بعض الحصون على الحدود . فلما توفي
الناصر نكث سانشو بالعهد وأدى تنفيذ ما وعد به . يضاف الى ذلك أن
الكونت فرنان كروثات والي مقاطعة قشتالة التابعة لمملكة ليون ، أعلن
آنذاك استقلاله وبدأ يسعى الى توسيع حدود دولته الجديدة بالاعتداء على
الاراضي العربية .

تجاه هذا النكوت بالعهد والاعتداء على أرض الدولة العربية ، قرر الحكم الرد بقوة على الدول الاسبانية الشهابية وأنقذ كتبه إلى سائر الولاية والقواد بضرورة الاستعداد لغزو ، وقد زاد تصميم الحكم على الغزو لجوء الملك الخالق أوردونيو الرابع إليه يطلب منه الموت لاسترداد عرشه ، وقيض الرواية العربية في وصف مقدم أوردونيو الرابع على قرطبه واستقبال الخليفة الحكم له في قصر الزهراء وكيف وعده تقديم المونة له وقدم المهدى إليه .

ولكن بينما كان الحكم على أبهة السير إلى الغزو ، جاء رسول من قبل الملك سانشو الذي خشي اتحاد خصمه مع المسلمين ، يعرضون عليه تنفيذ ما تهد به ملوكهم للناصرين وتسلیم الحصون الواقعية على الحدود وهدم البعض الآخر .

وقد قبل الحكم هذا العرض وعدل عن الغزو في ذلك العام ، يد أرت أوردونيو الرابع ما لبث أن توفي فعاد سانشو إلى النكوت بعده وعاد الحكم يتذهب لغزو .

في صيف سنة ٣٥٢ هـ = ٩٦٣ م خرج الحكم غازياً فهاجم أراضي قشتالة واستولى على قلعة شنت اشتباك المئنة وانتصر على الكونت فرنان كونثال في مواقع متعددة حتى اضطره إلى طلب الصلح . ثم لما نكث عهده استولى العرب على المدينة المأمة التي يس ATIENYA وقد أرسل الحكم في الغزو ذاتها قسماً من جيشه لمهاجمة أراضي مملكة نافارا فاستولى العرب على مدينة قاهره وعلي بربة yerpa ثم عاد الحكم إلى قرطبه بعد أن القى الرعب في قلوب سكان الشہان من الإسبان .

وتروى لنا الكتب التاريخية العربية قصة غزو أخرى قام بها الحكم في صيف سنة ٣٥٤ هـ = ٩٦٦ م إلى أراضي قشتالة واستيلائه خلاها على حصن غرماج GORMAG كما ذكر غزوات ناجحة

أخرى قام بها الحكم في سنتي ٣٥٥هـ و ٣٥٦هـ = ٩٦٨ و ٩٦٧ م اغا لا غلوك عنها آية تفاصيل تقريراً.

في هذه الفترة بالذات ، هدد الاندلس خطر كبير كانت قد تعرضت له قبل ذلك بعده وهو خطر الغزوات النورماندية .

في سنة ٣٥٥هـ = ٩٦٦ م هاجم النورمانديون القادةون من الداغارك سواحل الاندلس العربية في جنوبى مدينة لشبونة ، كان عدد سفنهما في هذه المرة ثانية وعشرين مركباً فعاثوا في تلك المنطقة فساداً ونهبوا وسلبوا ما استطاعوا حتى تجمع المسلمين لقتالهم فحدثت معركة قتل فيها كثير من الفريقيين . وفي تلك الاثناء خرج اسطول اشبيليه لقتالهم فحدثت بين الجانبين معركة بحرية دمرت فيها بعض السفن النورماندية وارتند الغزاة نحو الشهاب . وقد ابتووا في المياه العربية يجوسون خلالها ويهاجون من حين لآخر بعض نقاط الساحل مدة من الزمن ثم انقطعت أخبارهم حتى عادوا الى الظهور من جديد في سنة ٣٦٠هـ = ٩٧١ م فأمر الحكم بتسيير الاسطول العربي ضدهم . إلا أنها لا زالت ذكرها لم يحربة حدثت بين الطرفين في ذلك الوقت . ويدو أن الغزاة قضوا بالرجوع دون الاشتباك في معركة مع العرب لمارأوه من تفوق قوام . وكان هذا آخر عبد العرب بهم أيام الحكم .

وقد ظلت قرطبة أيام الحكم الثاني على ما كانت عليه أيام الناصر من كونها مركزاً أساسياً لتجويم السياسة في شبه الجزيرة الإيبيرية كلها ، فكانت الوفود والسفارات تتواли عليها باستمرار من مختلف الدول الإسبانية والأوروبية كما كان ملوك وأمراء النصارى يلتجأون إليها لطلب المساعدة من خليفتها أو للإقامة فيها برهة من الزمن ربما تنفرج الامور . وقد

علق أحد المؤرخين الإسبان على ذلك بقوله « وصلت الخلافة الاندلسية في ذلك العصر إلى أوج روعتها وبسطت سيادتها على سائر إسبانيا فامتنت بذلك السلام والسكينة » .

أما ممتلكات الدولة المرية الاندلسية في أفريقيا ، فقد عددها أيام الحكم خطر كبير هو الخطر الشيعي . ففي أوائل سنة ٣٦١ هـ = ٩٧٢ م سار بلکین بن زیری بن مناد الصنهاجی قائد الخليفة الفاطمی المعز لدین الله من تونس غازیا الى مراكش ليسطع هناك سلطان الفاطميين وينتفع من قبیلة زنانه لقتل أخيه زیری بن مناد .

ولدى وصوله الى مراكش صمدت له جموع زنانه وبنو خرز وخلفائهم وحصلت بين الفريقين معركة ضارية انتهت بهزيمة زنانه هزيمة منكرة وانتصار أميرها الذي فضل الموت على عار المهزيمة .

وقد سارع أمير الادارسة المعروف بتقبيله والسمى الحسن بن كنون الى تقديم طاعته لقائد الشيعي بعد أن خلع طاعة الحكم ، وأخذ يدعو للخليفة المعز على النادر . إلا أن القائد الشيعي بلکین سرعان ما رأى نفسه مضطراً لمغادرة البلاد والعودة الى تونس فقيت السلطة في المغرب للامير الادريسي الحسن بن كنون .

علم الحكم بتجربات الحوادث فأعد جيشاً فضحاً سلم قيادته الى محمد بن القاسم وكلمه بالاستيلاء على المغرب الاقصى . وقد تكون محمد من الاتصال في بادي الأمر ، ولكن ما لبث الحظ أن حالف الحسن بن كنون فدارت الدائرة على الاندلسيين وهزموا . حينذاك أرسى الحكم حيث جديداً بقيادة مولاه عالب بن عبد الرحمن وأوصاه بأن لا يعود قبل أن يستأنصل شافة الادارسة .

وقد تمكن هذا بالفعل بعد قتال طويل من اخضاع المغرب واضطر الامير الحسن بن كنور أن يسلم نفسه ، فدخل غالب قلعته الخصينة المسماة جحر النسر ودعا فيها ل الخليفة الحكم ثم نقل معه الحسن وعدداً من أتباعه إلى قرطبه ففعلاً عنهم الحكم وأجرى عليهم الارزاق وعمر عدداً منهم في حاشيته وديوانه . إلا أنه بعد مضي حوالي عامين على ذلك سُمّ الخليفة الحكم وحاجبه جعفر المصيحي ثقفات أولئك الادارسة ولم يكن الاندلسيون قد نسوا فظائع الحسن وقسّوه وكيف كان يرمي الاسرى من أعلى قلعته إلى الأرض فيصلون إليها أرباً ، فأمر الخليفة بآخر جهم من الاندلسيين رحلوا إلى تونس ومنها إلى مصر حيث زلوا في كتف الخليفة الفاطمي المزير بالله فاكرم هذا وفادتهم ووعدهم بالمساعدة .

أما من ناحية العمران ، فإن الخليفة الحكم منذ اليوم الثاني لتوشه الحكم أصدر مرسوماً بتوسيع المسجد الجامع في قرطبه . وكانت الزيادة التي طرأت عليه تتساوى مساحتها الأصلية فتضاعف بذلك حجمه . وقد استغرق بناء الزيادة حوالي أربعة أعوام وعملت له قبة فخمة زخرفت بالسيقان البديعة التي نقى الحكم قسماً كبيراً منها من قصر القسطنطينية رومانوس الثاني . وأنشأ الحكم أيضاً مقصورة جديدة لما قبله على الطراز البيزنطي وابنى إلى جانب المسجد داراً لاصدقه وأخرى لوعاظه وعمال المسجد .

ولا بد أنا قبل أن تنتهي هذا البحث الوجز عن خلافة الحكم ، من أن نذكر ازدهار الآداب والعلوم في عصره وأزيد بأد عدد المؤلفات في المكتبة الاموية المظيمة ازيداً مدهشـاً ، وكل ذلك بفضل اهتمام الحكم بالعلم وشفقه بجمع الكتب .

ولم يكن الحكم يتورع عنبذل مبالغ فخمة ل الحصول على كتاب

نقيس أو حديث القبور ولو انتصره الأمر إلى إرسال رسول لشرائطه من أقصى المعمورة . وقد أدت هذه الترعة إلى أن يتجمع في خزانة أكثر من أربعين ألف مجلد تتعلق ب مختلف أنواع المعلوم في العالم . ويقال بأنه قد قرأها كلها وعلق عليها حتى سماه البعض بودة الكتب لفطر اهتمامه بالطاعة والقراءة والبحث . هذا وقد انشأ الحكم دورا خاصة لتجليل الكتب والاعتناء عليها موظفين فدين يتقاضون رواتب ومكافئات من ميزانية الدولة . فارتفع شأن العلم في عهده وقلده الكثيرون من الاغنياء والوجاهاء فلادهموا بالثقافة وجمع الكتب وأصبح يوجد في قرطبه عدد ضخم من الكتب الخمسة عشرة بالكتب ، فمال الناس إلى الكتابة والتأليف وارتفع المستوى الثقافي عمما كان عليه قبل الحكم .

شعر الحكم في أواخر عهده بالرص والضعف فلوصي بولاية العهد من بعده لابنه الصغير هشام وأخذ له البيعة قبل وفاته . فلما انتقل إلى جوار ربه نفذت مشيته ونعيت أبنته هشام خليفة المسلمين في الأندلس .

عبدال الخليفة هشام بن الحكم وساججه المنصور بن أبي عامر :

عندما توفي الخليفة الحكم المستنصر في ٢ صفر ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) حاول خدامه الصقليان فائز وجوزرأخذ البيعة من بعده لأخيه المغيرة بن عبد الرحمن الحاصل على مخلافين بذلك رغبته في تولية أخيه من بعده . إلا أن الحاچب جعفر بن عثمان المصيحي بمساعدة عدد من الوجاهة وكبار الموظفين استطاعوا أن يبطوا تدبير الصقليين وعمد محمد بن أبي عامر إلى المغيرة فقتلته ثم أخذوا البيعة لهشام في ٣ صفر ٣٦٦ هـ = ١ أكتوبر ٩٧٦ م قبل أن يكمل الثانية عشر من عمره .

لم يكن الخليفة الجديد في من تسمع له بمحارمة شؤون الحكم ،

فاضطاع بها بنيابة عنه عدد من الشخصيات البارزة على رأسهم أمه صبح البشكتية الاصل والتي كانت تتمتع في عهد أبيه بمحظوظة كبيرة ومكانة جليلة في الدولة . كما بدأت تلمع شخصية سيقدر لها أن تلعب دوراً هاماً في تاريخ الأندلس ، تلك هي شخصية محمد بن أبي عامر المقدم الذكر .

يرجع محمد بن عبد الله بن محمد عبد الملك بن أبي عامر إلى أصل من أعرق الأصول العربية . زارت أسرته في الجزيرة الخضراء وعرفت بالعلم والواجهة . كان أبوه عالماً بالحديث والشريعة وأمه « بريمه » تسمى إلى بني تميم .

وقد نشأ محمد على تقاليد أسرته مؤثراً حيّة الدرس ، ووُفق على قرطبه ليتعلم في معاهدها . وقد برع في الآداب والشريعة ودرس على أيدي عدد من كبار الأئمة . ولما بلغ السابعة والعشرين من عمره رشحه الحاج جعفر بن عثمان المصفحي لمنصب الشرف على أملاك عبدالرحمن بن الحكم ولم يكن قد توفي الخليفة بعد .

وكانت صبح أم هشام تعرفه وتُعجب بذكائه وشخصيته فوق عليه الاختيار لشغل الوظيفة السابقة وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً في الشهر . وذلك في سنة ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م وبما أن عبد الرحمن توفي طفلاً فقد عين لإدارة أملاك أخيه هشام . وتقديم محمد بن أبي عامر في وظائف الدولة بسرعة فاضيف إليه الإشراف على الخزانة العامة كما أصبح أميناً لدار السكة ثم عين لانتظر في المواريث فقاضاً لاشبيليه ولبله حتى وصل إلى وظيفة مدير لشرطه وناظر للحشام في سنة ٣٦١ هـ = ٩٧٢ م . هكذا وصل محمد بن أبي عامر إلى أرفع وظائف الدولة في أعوام قلائل بسبب مواهبه وكفاياته وخاصة عطف صبح عليه وحماية لها . وكان هو

لا ينفك يغمرها بالنفس المدعايا والتحف مما كان يزيد أعيجتها وتعلقها به . ولم تلبث علاقات صبح وأبن عامر أن غدت حديث أهل قرطبة وعرف الجميع بأنها قد استحالـت إلى علاقات غرامية . ولما توفي الحكم المستنصر كان ابن أبي عامر يتمتع بـأكبر نفوذ في الدولة إلى جانب الحاجب الصحفـي .

منذ وفاة الحكم نصبت صبح وصية على ابنها هشام واخذت علاقتها
بأبن عامر تزداد توتفقاً ، فلم تمض أيام قلائل على تولية هشام حتى رقى ابن
أبي عامر الى مرتبة الوزارة واصبح معاوناً لاحاجب الصحفي في تدبير
الدولة .

ومنذ ذلك اليوم نشأ صراع خفي على السلطة بين الحاجب الصحفي وبين ابن أبي عامر ادي في النهاية إلى سقوط الاول وعلو شأن الثاني واستبداده بالامر وحكمه الأندلس حكمًا فردًا مطلقاً.

كان الخليفة هشام المؤيد بالله ميالا بطبيعته الى الابو والدعة ، ولم يكُن يمتع بالخلال الرفيعة التي تؤهله للاحتفال بهام الملك فكان يغضي اوقاته في حداقه بين الات الغارب والنساء الجميلات ، مما كان يسر ابن أبي عامر ويفسح له المجال للقبض على ناصية الامور بيده . وصار الناس يتحدثون بان الخليفة هشام ليس له من الامر شيء وأنه شبه سجين في قصره لا يسمح له بالخروج منه الا تحت مراقبة شديدة يفرضها عليه ابن أبي عامر . وكانت صحبة راضية بذلك طلما أن أهدافها كانت متفقة مع ابن أبي عامر وطالما أنها كانت تعتبره الصديق الوفي لها .

عمل ابن أبي عامر بعد ذلك على الاستبداد بالحكم دون أي شخص آخر أو فئة أخرى . وقد رأى بثاقب نظرة أن الصقالبة بعددهم الكبير

وتدخلهم في شؤون الدولة ، يجدون نوعاً ما من سلطته ، فتميل على التخلص منهم بقتل بعض زملائهم وسجن البعض الآخر ونفي قسم منهم إلى بعض الجزر النائية ، فانهار بذلك سلطانهم وأمن ابن أبي عامر شرهم .

أخذ بعد ذلك يعمل للتخلص من نفوذ الحاجب جعفر بن عثمان الصنفي . فسعى لدى الخليفة حتى أمر بعزل محمد بن الحاجب عن حكم مدينة قرطبة وتسليمها إلى ابن أبي عامر فسيطر هذا على العاصمة وضبط أمورها شيئاً تاماً فساد فيها الأمن والمدحوه .

واراد الحاجب جعفر أن يقف في وجه ابن أبي عامر ونفوذه فسعى لمحاصرة القائد العظيم غالب بن عبد الرحمن ليستعين به على ابن أبي عامر ، وطلب يد ابنته لابنه محمد فوافق غالب على الطلب . وسمع ابن أبي عامر بذلك فثارت نفسه وكتب إلى غالب يطلب منه يد ابنته لنفسه ، وقد دعمه في ذلك صبيح وموظفو القصر فنزل غالب عند رغبته وقبل معاشرته فزرت ابنته إلى محمد بن أبي عامر وسط احتفالات رائعة .

واستقدم الخليفة غالباً من الثغر وقلده خطة المحاجبة إلى جانب جعفر الصنفي ، فكانت ضربة شديدة لهذا عرف منها أن نهايته قد اقتربت . وبالفعل في الثالث عشر من شعبان سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٨ م أصدر الخليفة أمره بمقتل الحاجب الصنفي والقبض عليه وعلى اقربائه وأعوانه ومصادرة اموالهم ووضعهم في السجن .. وقد بقى الصنفي في السجن حوالي خمس سنوات حتى توفي فيه ، وقيل أنه مات مقتولاً بتحريض ابن أبي عامر .

هكذا تخلص ابن أبي عامر من منافسه الأكبر الحاجب الصنفي ، فصفا بذلك له الجو وأخذ ينظم الجيش حسب هواه يجعله تحت سيطرته

الثانية . ومنذ ذلك الحين أصبح السيد المطلق لبلاد الأندلس لا ينمازنه في حكمها منازع .

رأى ابن أبي عامر أن وجوده في مدينة الزهراء أصبح يشكل خطراً عليه لأن اعداء قد تكاثروا وهم يتربصون به الدوائر ليتخلصوا من نفوذه كما أنه رغب في إنشاء مركز مستقل لنفسه يدير منه شؤون البلاد فامر ببناء مدنية الراحلة في سنة ٣٦٨ هـ - ٩٧٩ م . وما أن اتى العمل فيها سنة ٣٧٠ هـ - ٩٨٠ م حتى أمر بنقل الدوائر الرسمية إليها كما نقل عائلته وحاشيته إليها فاصبحت تنافس المدينة الخلافية في الفضخامة والرونق .

وأخذت العلاقات منذ ذلك الوقت نفسد بينه وبين صبيح لأنها تأكّدت من أن ابن أبي عامر يرغب في تجريد ابنها من السلطة تجريداً تاماً ، فخفقت عليه وأخذت تسعى لاسقاطه دون أن تتمكن من ذلك .

ورعا كان لصيغ تأثير في الجفوة التي حدّت بين ابن أبي عامر وصهره القائد غالب ، إذ أن هذين الاثنين ما لبساً أن اختلفا وأدى التزاع بينهما إلى القتال المشهود فقتل غالب في المعركة وتفرق اتباعه .

حتى هذا الوقت كان ابن أبي عامر قد قام باربع زيجات في أراضي الدول الإسبانية النصرانية حالفه التوفيق خلاطها وعاد بكثير من السبي والغنائم . أما عقب فراغه من أمر صهره غالب فقد قام بسلسلة من الغزوات الشهيرة العديدة تناهض الحسين عزوه لم يهزمه في إيه واحدة منها . وتمكن خلاطها من الوصول إلى أقصى شمال الجزيرة الإيبيرية واحتضان مختلف الدول الإسبانية النصرانية التي تعهد ملوكها بدفع الجزية له . وقد انحدر محمد بن أبي عامر منذ سنة ٣٧١ هـ - آخر ٩٨١ م لنفسه لقب المنصور

بـالله عـلـى أـثـر اـنـصـارـة فـي الصـافـة الـي قـام بـهـا فـي ذـكـالـعـام فـأـسـبـعـ يـدـهـيـ لـهـ عـلـى النـسـابـرـ بـاسـمـ «ـالـحـاجـبـ الـنـصـورـ بـالـلـهـ مـحـمـدـ بـنـ أـبـيـ عـامـرـ».

ولقد شغل النصور أيضاً علاوة على غزوته في شمال إسبانيا في أخضاع شمال إفريقيا. ذلك أنه في سنة ٣٧٥ هـ - ٩٨٥ م قدم الحسن بن كنون زعيم الادارسة من مصر حيث كان متوجهاً لدى الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، إلى المغرب لاسترجاعه بتأييد محمد هذا ومساعدة منه . فلما علم النصور بذلك أرسل جيشاً قوياً لحاربه بقيادة ابن عمه الوزير عمر بن عبد الله بن أبي عامر الذي كان من جملة قواده عبد الملك بن النصور بن أبي عامر .. وقد هزم الحسن بن كنون واضطرب إلى تسلیم نفسه فاقتيد إلى قرهبه كما حدث في أيام الحكم ولكن النصور أرسل إليه من قتله في الطريق واتاه برأسه حتى لا يفك في المسودة إلى الثورة . فانهار بذلك حكم الادارسة في المغرب الأقصى وأصبح هذا الأقليم تابعاً لحكم الاندلس العرب بصورة مباشرة .

يد أن الاحوال لم تهدأ نهائياً في هذا الأقليم من شمال إفريقيا بل ظل مصدر تعب واضطراب لحكام إسبانيا العرب مدة طويلة من الزمن فلم تكن تحمد فيه ثوره حتى تتفجر أخرى إلى أن قامت فيه دعوة المرابطين .

في سنة ٣٨١ هـ - ٩٩١ م رشح النصور ولده عبد الملك للحجابة من بعده . وهو فقي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره فأخذ له العهد بذلك من الناس ، كما عبد بخطبة الوزارة في السنة ذاتها إلى ابنه الثاني عبد الرحمن فم لبني عامر السيطرة على مختلف المراكز الحساسة في الدولة .

رأـتـ صـبـحـ حـيـنـذـاكـ بـاـنـهـ لـمـ يـقـ لـاـبـنـاـ هـشـامـ شـيـءـ مـنـ الـحـكـمـ ،

فأرادت أن توقع بالنصرور . ولذلك بعثت رسالتها إلى زيري بن عطية حاكم المغرب تستنصره على النصور بن أبي عامر . وكان زيري من أتباع النبي عليه وله من أشد الخلاصين لقضائهم فاندفع مع صبح وأعلن تأييدهما له . فلما علم النصور بذلك أرسل ابنه عبد الملك فاستولى على الأموال التي كانت بين يدي صبح حتى لا تستطيع إرسالها إلى زيري ، ثم عاتب هشاما على ذلك فأعترض له هذا بالفضل وشكراه على اضطلاعه بشؤون الدولة .

منذ ذلك الوقت لم تعد الروايات تتطرق إلى ذكر صبح باي خبر ويظهر أنها توفيت بعد ذلك بعده ، مغمورة بعيدة عن الشهرة .

أما بالنسبة لزيري بن عطية فقد قطع النصور عنه الارزاق فاجابه ذلك بقطع ذكره من الخطبة في المغرب . فما كان من النصور إلا أن أرسل إليه جيشاً بقيادة واضح حاربه دون أن يفلح في التغلب عليه . فارسل النصور جيشاً ثانياً بقيادة ابنه عبد الملك تكون من الانتصار على زيري ومطارده في الصحراء .

عاش النصور أربعة وستين عاماً يذوق خلالها طعم المهزيمة إلى أن توفي أثناء غزوه الأخيرة ، فقد اشتد به المرض خلال تلك الغزو التي استهدفت أراضي قشتالة سنة ٥٣٩ـ ١٠٠٢ م وسار نحو أسبوعين محمولاً على محفنة حتى وصل إلى مدينة سالم ، وهناك توفي بعد أن أدى بناصائحه إلى ابنه عبد الملك . وكانت وفاته في ٢٧ رمضان سنة ٥٣٩ـ ١١ آب (أغسطس) ١٠٠٢ م ودفنت في المدينة نفسها .

ال حاجب عبد الملك بن أبي عامر :

لدى وفاة النصور ، بادر ابنه عبد الملك بالمودة إلى قرطبة تاركاً لأخيه

الاصغر عبد الرحمن امر العتيبة بدفع ايه وقيادة الجيش الى قرطبه . وقد بادر فور وصوله ل العاصمه الى رؤية الخليفة هشام المؤيد فتسلمه الرسوم بتوليه الحجابة وجلس في ازاهره مكان ايه . وقد استتب الامر لعبد الملك دون جهد او حدوث اضطرابات بل استبشر الناس بهده .

كان مولد عبد الملك سنة ٣٦٤ - ٩٧٤ م لذلك فقد كانت منه حين تولى الحجابة ثانية وعشرون عاما واقبه المظفر بالله . وقد اظهر عبد الملك منذ مطلع ولايته حزما وحسن تدبير وتواضعا وشجاعة وصفات أخرى قببيه بأنه سيكون تطير ايه في الحكم . ولكن كانت تغلب عليه خلة ميئه واحدة هي شفقة بعاقرة الشراب واهتمامه بحياته الخاصة .

بدأ عبد الملك حكمه باسقاط بعض الضرائب عن الناس فارتاحوا بذلك . ثم أقر حكم المغرب الخاضعين لدولته في مراكزهم فامر المعز بن زيري بن عطية زعيم قبائل مغراوه بالدعاء له على منابر المغرب وصار يرسل اليه كل عام مبلغا من المال والهدايا .

وأراد عبد الملك ان يطير الناس بأنه ليس باقل شجاعة في الحروب من ايه وانه لا يتوي تغيير سياسة الغزو التي كان يسير عليها والده بل هو مصمم على اتباعها وعلى مهاجمة الدول الاسبانية النصرانية . ولذلك فمنذ السنة الاولى انسنه اي في شعبان سنة ٣٩٣ - ١٠٠٢ م قام عبد الملك بعزوفه الاولى نحو الشهاد فعاش في الحباء برشلونه وافتتح بعض المخصوص وحاز على كثير من الفنائيم والسي وقضى عيد الفيلار في تلك الانحاء باحتفال عظيم ثم قفل عائداً الى قرطبه فاستقبله الناس مهيبين مستبشرين وقد من فوره الى الخليفة هشام فاستقبله هذا احسن استقبال وخلع عليه فشكراه عبد الملك وقبل يده ..

على اثر تلك الفزوة علم الملوك الاسبانيون بان الحاجب الجديد لا يقل عن ما

وجريدة عن اية المنصور فارسلوا السفارات الى قرطبه وأخذوا يخطبون وده . ولكن هذا لم يتم عبد الملك من القيام بزوات أخرى نحو الملك الإسبانية النصرانية بين سنتي ٣٩٤ و ٣٩٩ م = ١٠٠٤ و ١٠٠٨ م بلغ بمجموعها بما فيها الأولى سبع غزوات لم يتكرر في احداها . وكان معظمها نحو أراضي قشتالة .

هذا وقد تلقى عبد الملك مفارقة من قيسر الروم في القسطنطينية الامبراطور باسيل الثاني يطلب فيها استئناف العلاقات الحسنة والصداقة التي كانت قائمة بين ملوك بي أمية في المشرق وبين القياصرة . وأرسل الى عبد الملك هدية وبعض اسرى المسلمين الذين كانوا في حوزته فسر الحاجب بذلك ورد عليه احسن رد .

لم يطل حكم عبد الملك أكثر من ستة اعوام وبضعة أشهر مرض بعدها اثناء غزولته السابعة ، فحمل الى قصر الزاغرة يحفل به أفراد حاشيته وعلمائه حيث توفي على الاثر في ١٦ صفر سنة ٣٩٩ م = ٢٠ أكتوبر ١٠٠٨ م . وقيل أن آخر عبد الرحمن دس له سجناً في الشراب فتناوله ومات وعلى اثره دون أن يثبت ذلك بصورة قطعية .

and I am a long way from home
and I am not used to the weather
so I am not able to go outside very much

I am still staying with my old friend Paula
she has been wonderful to me and
has helped me through some difficult times
she has given me lots of advice and support
I am grateful for her help and I am

now trying to make friends with other people
but it is hard because I am not used to
going out and meeting new people
but I am trying to make friends with other people

I am still staying with Paula
she has been wonderful to me and
has helped me through some difficult times
she has given me lots of advice and support
I am grateful for her help and I am

now trying to make friends with other people
but it is hard because I am not used to
going out and meeting new people
but I am trying to make friends with other people

I am still staying with Paula
she has been wonderful to me and

she has given me lots of advice and support
I am grateful for her help and I am

القسم الثاني

الأسباب البعيدة لسقوط الدولة الاموية في الاندلس

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ
الْحُكْمُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ

الفصل ادماي

الاسباب البعيدة لسقوط الدولة الاموية في الاندلس

بعد ان استعرضنا بصورة سريعة اهم الاحداث التي جرت في الدولة العربية الاموية منذ وطأ عبد الرحمن الداخل ارض الاندلس حتى خلافة هشام المؤيد ، ورأينا عظمة تلك الدولة التي تمكن صقر قريش من تأسيسها في بلاد بعيدة عن موطنها ، نائية عن مركز عصبيته ، وشاهدنا تلك الاتصالات التي احرزها حكام الدولة الاموية في قرطبة على اعدائهم في داخل البلاد وخارجها خاصة في عهد الخليفة الناصر وال الحاجب المنصور الذين بلغت الدولة في عهدهما اوج عدتها وقوتها واتساعها ، بعد ان شاهدنا ذلك ومررنا بالحضارة الراية التي اوجدوها في تلك البقعة من بقاع اوروبا ، وكيف ان علومهم وآدابهم ومعرفتهم كانت تشع نورا وتنقاء على العالم الاوروبي الغارق في ظلام الجهل والتآخر اندما . توقف قليلا قبل ان يبدأ بالكلام مفصلا عن السنوات الاخيرة من حياة الخلافة الاموية في الاندلس لنتشـفـ الموـاـمـلـ الرـئـيـسـيـةـ التي ادت الى قلم جـسـدـورـ تلكـ الخـلـافـةـ القـوـيـةـ الرـامـيـخـةـ وـلـمـ يـغـيـرـ تـلـافـونـ سـنـةـ بـعـدـ عـلـىـ وـفـاةـ الحاجـبـ العـظـيمـ محمدـ بنـ اـبـيـ عـامـرـ النـصـورـ .

لو حاول بعض المؤرخين أن يرجعوا انهيار الخلافة الاموية في قرطبة الى عوامل الضعف التي كانت تكمن في جسم الدولة قبل سنة ٥٣٩هـ=١٠٠٢م فقط اي قبل وفاة المنصور بن أبي عامر لكان بعثهم ناقصا . ولو حاول فريق آخر ان يعلل ذلك الانهيار بالحوادث المريرة التي مرت بها الدولة الاموية بعد انقراف الدولة العامرة لكان مقصرا ايضا . اذ ان البحث التاريخي يظهر لنا الحوادث المختلفة التي مرت بها الدولة الاموية قبل انقراف العامريين ، والفتنة العارمة التي عمت بلاد الاندلس بعد انقرافهم شكلت كلها معا مجموعة الاسباب التي ادت الى تداعي الخلافة الاموية في الغرب .

ولم يكن عنصر واحد من العناصر المتعددة التي تشكل المجتمع الاندلسي هو المسؤول عن انهيار الدولة الاموية ، ولم يكن رجل واحد هو الذي قصر في حق تلك الدولة ، بل اشتراك العناصر كلها وساهم الرجال كلهما في اشاعة ذلك التراث العظيم الذي بناه في الاندلس عبدالرحمن بن معاوية . فلنحاول ان نتبين حقيقة الامر .

مسؤولية العناصر العربية :

بعد ان فتح العرب اسبانيا وسيطروا عليها من جبل طارق حتى جبال البرانة بدأ يتشكل منها طبقة من السكان العرب الذين اتوا مع الجيش الفاتح او هاجروا اليها فيما بعد من مختلف أنحاء البلاد العربية فتساءلوا مقايد الامور بآيديهم وخاصة في الفترة الاولى من حكم العرب في اسبانيا وهي الحقبة التي تدعى بحكم «الولاة» ولكن الحكماء العرب الجدد لم يكونوا جميعهم متفقين في آرائهم السياسية وفي الخطة التي يجب ان يسير عليها الحكم العربي في تلك البلاد ، عدا عن ان النزرة والتحاصل والاطماع الشخصية كانت تلعب دورها فيها بغيرهم مما ادى

إلى تنازع تلك العناصر العربية الحاكمة وبالتالي إلى ضعف الدولة من جراء الفتن الأهلية والحروب الداخلية .

لم يتمكن أي من الولاة العرب الذين حكموا الاندلس حوالي نصف قرن تقريباً =٧٥٥=٧١١=٦١٣٨ من جمع العناصر كلها على طاعته . فكان هناك دوماً طامعون في الحكم يمكرون المؤامرات لاسقاط الوالي القائم ، أو نواب على الولايات ينسرون في مقاطعاتهم أملاً في الاستقلال والحكم الذاتي . وقد استطاع بعض الولاة الأقواء أمثال السمح بن مالك الخولاني وعبد الرحمن المافق ويوسف بن عبد الرحمن الفهري .. أن يثبتوا قوته شخصياتهم في الموقف الحاسمي وأن يحرزوا كثيراً من الانتصارات الخارجية خاصة في الناحية الشهالية ، إلا أن المصاعب كانت تتغلب عليهم دوماً وتنتهي إلى سقوطهم . وكانت أبرز المشاكل التي اعترضت حكم الولاة في الاندلس هو النزاع التقليدي بين القبائل العربية اليمنية من جهة والقيسية أو المضدية من جهة أخرى ، فإن كلام من الولاة الذين وصلوا إلى الحكم كان يتحيز لفريق أو لآخر فيتم عليه أحدهما ويظل يعمل ضده حتى يسقطه ويرفع إلى الولادة رجلاً من انصاره فيأتي دور الفريق الآخر في المعارضة حتى يصل إلى غايته .. وهكذا كان حكم الولاة العرب في الاندلس سلسلة من المنازعات الدائمة مسيّتها فيما بينهم العصبية القبلية القد侮ية التي حملوها معهم من صهرائهم في شبه الجزيرة العربية قبل أن يولد الإسلام بعد ، ولم يتخلوا عنها رغم ابعادهم عن عصور الجاهلية ورغم استئثار الدين لها والحضور على بذها .

وقد أضطر بعض الولاة إلى تفريغ العناصر العربية في المدن المختلفة كي ينحفقوها من شوكتهم ويجعلوا دون اجتماعهم على هدف واحد كما فعل أبو الخطمار حسام بن ضرار الكلي حين وزع الجندي المربي على مختلف المدن الكبرى في

الاندلس فارسل الدمشقيين الى غرناطة وجند حمص الى اشبيلية وجند فلسطين الى شذونه والجزيرة وجند الاردن الى ريه وجند قوسرين الى جيان .. ولكن مع ذلك فانه لم يتخلص من مشاعبهم خاصة عندما اظهر ميلا الى جماعة من اليمنيين فقامت الثورات عليه في كل مكان ..

ولما امس عبد الرحمن الداخل حكم السلالة الاموية في الاندلس ، ظن الناس لوهله من الزمن ان الامور مستقرة وان العناصر العربية ستجمع كلها على تأييد هذه السلالة الحاكمة التي اعتاد الناس على رؤيتها افرادها يترعون فوق عرش الملك في الفرف الاخر من البحر الايبيزن المتوسط ، الا ان شيئاً من ذلك لم يحدث ربما خفت حدة العصبية القبلية بين البعلون الوزعة في اتجاه الاندلس ولكن زاد عدد الطامعين في العرش وزاد عدد الاسرارات الحاكمة العربية التي ابهرت لمنافسة الاسرة الاموية ومناوتها ، وظهرت الثورات والقتن في كل مكان فاقدت ماضع الحكام الامويين وشغلت معظم وقتهم .

ولقد رأينا في الحلقة الماضية كيف ان الامراء والخلفاء الامويين لم يكونوا يتبعون من احمد ثورة اعلنتها احدى الاسر العربية في منطقة من المناطق حتى يضطروا الى الاسراع الى منطقة ثانية انتزت فيها اسرة عربية اخرى .. حتى صمت تلك الثورات قواهم واضعفت مقاومة العرب بصورة عامة لاعدائهم الخارجيين فتمكن هؤلاء من القضاء عليهم واسقاط دولتهم .

وان الثورات التي قام بها آل الفهري واليعاسية وبنو مردان وبنو قى وبنو الحجاج وبنو عبده وبنو خلدون وغيرها من الاسر العربية في اثناء الحكم الاموي في قرطبة هي اكبر دلالة على الانانية التي كانت تسيطر على العناصر العربية في الاندلس مما لا يدع مجالا لشك بان اسباب الخلافات التي كانت تحصل بين هذه العناصر لم تكن مسيئة عن نزع عرقي فقط بين القبائل واليمنيين

واما كان الزراع لداعم شخصية ايضا جعلتهم يضربون عرض الحائط بالصلحة العامة في سبيل الوصول الى مأربهم الخاصة .

علاوة على ما نقدم فان مسؤولية العناصر العربية في انهيار الدولة الاموية توجد ايضا في طبيعة الحياة التي كانوا يحيونها في تلك البلاد؛ اذ انهم كانوا الطبقة الحاكمة فليرضوا ان يزاولوا اي نوع من انواع العمل بل ترکوا التجاراة والزراعة وغيرها من الاعمال الحرفة الى غيرهم من عناصر المجتمع الاندلسى ، فخيم عليهم بذلك حب الراحة والدعة والكسل واستسلاموا للملذات واطلاقن الحياة وزوج الكثيرون منهم بنساء من الاسپانيات فلم يلبشو ان ذايو في العنصر الابرىء الكبير المدك كا حدث لاجنود السورين الذين فرقهم ابو الخطاف الكلى في سنة ٥١٢٥-٧٤٢م كما ذكرنا منذ قليل .

هذا ويجب ان نذكر انه بذوق هذه العناصر وتدخلها في العناصر الاسپانية الرومانية كانت تضعف مع الزمن ايضا المقاومة التي كانت تلاقها الدول الاسپانية الشمالية في استرجاع الاجزاء المحتلة من الجزرية الابرىء

يضاف الى ما نقدم طريقة معاملة العرب لاهل البلاد المفتوحة ، اذ اعتبروا اسبانيا بلدهم وملكا لهم ، فذمتموا كثيرا اعراضة شعور السكان ودراسة عادتهم وتقاليدهم ، ولم يعبروا اهتماما كبيرا الى الحكم الداخلي ، اذ شفّلوا عن ذلك باحمد الفتن والتورات وتوجيه الغزوtas نحو الشہل ، بينما كانت العناصر الاصلية من سكان البلاد تتألم من ذلك الوضع وتعمد الى اظهار استيائها حين تستعليع ذلك .

وكان من اهم الاسباب التي عجلت في سقوط الدولة الاموية ، استنجاد بعض الولاة العرب الذين كانوا يرثمون لواء الثورة في مناطقهم ، بنصارى الدول

الاسپانية الشهالية او بالفرنجية يطالبون معاوئهم ضد الحكومة المركزية في قرطبة و كثيرا ما كان هؤلاء يستجгиون الى نداء الولاية الثائرين لاعطاها عليهم وجها بهم و اغا طمعا في الاستفادة والتوصي على حسابهم و اتهام الفرس لدفع حدود بلادهم نحو الجنوب قدر المستطاع . وهذا ما حدث بالضبط حين ثار سليمان بن يقطان الكليبي والي برشلونة والحسين بن يحيى الانصاري ^{والى سرقسطة في سنة ١٥٧هـ} ٧٧٤ فاستجده ابشارلان ، ولكنه لم يبلغ مرآمه كارأينا . وهذا ما حدث ايضا حين تحالف بني قبي مع الدول الاسپانية الشهالية فعقد محمد بن اب مثلا امير سرقسطة معاهدة صداقة ودفع مشترك مع الفونسو الثالث ملك ليون . وتكرر لجوء الولاية العرب الى الاستعانت بالنصارى مرارا في ثورات المدينة الدائمة الغليان « حلبيطة » وفي ثورات غيرها من المدن الاندلسية ، وما على الانسان الا ان يلقي نظرة على تلك الثورات المتعددة التي كان يقوم بها بعض الولاية من العرب حتى يدرك صحة ما يقول . ولم يكن هذا كله سوى عاملا قويا ساعد الاسپان على استعادة بلادهم شيئاً فشيئاً من ايدي حكامها العرب . فكانوا يدفعون حدود بلادهم بعد كل تدخل ضد الدولة الاموية قليلا نحو الجنوب حتى اضعفوها باقتطاعهم تلك الاجزاء الهامة من مقاطعاتها الشهالية .

أما الفطائع التي كان يرتكبها عرب الاندلس ، البعض ضد الآخر فقد ساهمت أيضا بتصيب كبير في اضعاف دولتهم في الاندلس ، فان خلافاتهم كانت لا تحل إلا بالدم الغزير برأس اهوارا فيولد الاحفاد ويدفع الى الاخذ بالثار مما زيد الامر تفاقما مع الزمن . فلو استطاعت اليمنية ان تقضي على القيسية لفعلت وعكس ذلك صحيح . ولو تمكن الولاية المتنافسون أن يزهقو أرواح خصومهم جملة لما ترددوا في ذلك ناسين كل معانى الرحمة والشفقة . ومن يطالع تاريخ العرب في الاندلس يرى الى أي حد كانت تصل الفطائع التي يتبادلها السكان العرب

فيما ينهم خاصة أثناء حصار المدن وبعده والقصوة التي كانوا يستعملونها مع الأسرى أو مع سكان المدن المفتوحة . فكأنوا بذلك يضعون أنفسهم ويقضون على امكانية الوقوف في وجه الزحف الإسباني نحو الجنوب في سبيل استرجاع البلاد .

وتكملاً لبحث مسؤولية العناصر العربية في سقوط الدولة الاموية لا بد انما أن ت تعرض الى ذكر شخصية بعض الخلفاء الامويين ولا سيما الآخرين منهم والذين حكموا في الفترة الواقعة ما بين سنة ٣٩٩ - ٤٢٢ هـ = ١٠٣١ م إذ انهم تعاقبوا على الحكم في هذه الفترة بسرعة مدهشة فبلغ عددهم تسعة خلفاء خمسة منهم تولوا الخلافة مرتين ولم تزد مدة اطولهم حكم على الأربع سنوات بينما لم يزيد حكم بعضهم على أربعين يوماً كاسندي ذلك مفصلاً في الحلقات التالية التي تتناول بحث هذه الفترة .

كان ضعف الخلفاء الذين تعاقبوا على عرش الاندلس في هذه الفترة ظاهراً للعيان فمن يتمع منهم بعض المزايا ينفع البعض الآخر ، ومن كان كفيراً بان ينفع في الحكم كان يعجز ازاء المشاكل والصعوبات والغوضي التي كانت تمر فيها البلاد في تلك الفترة ، حتى يئس الناس من صلاح حكم الامويين فعمدوا الى انتهاء وابداله بنوع جديد من الحكم كاسندي .

هذا وقد وجد قبل سنة ٣٩٩ هـ ايضاً أبي قبل سقوط الدولة العامرة وبده الفتنة في الاندلس بعض الخلفاء الضعاف أمثال الحكم بن محمد حفيد عبد الرحمن الناصر وخليفة الذي كان على الرغم من عدم اهلاه شؤون الدولة والحكم يوجه الى الامور الثقافية من مطالعة وتأليف ومناقشة اهتماماً أكبر من ذلك الذي كان يوجه الى أمور دولته السياسية فاضاع بذلك بعض الثمرات التي جناها جده الناصر . كما أن خليفته هشاما المؤيد لم يستطع ان يمارس شيئاً من

أمور دولته لصغر سنّه حين تولى الخلافة ، ولأن محمد بن أبي عامر المنصور حجز عليه بعد ذلك حجزاً تاماً فنمه من الاتصال بالشعب وجعله في قصره شبه سجين بما أخذ هو يصرف الأحوال بشكل دكتاتوري فردي .

إذا اضفنا إلى ضعف الخلفاء هذا سوء الحاشية التي كانت تحيط بحياته بهم ، وجعلت معظمهم وطمعهم في الوصول إلى الثروة بسرعة وتفضيلهم مصالحهم الخاصة على المصلحة العامة وعدم اهتمامهم برقي البلاد وتقديرها ، اذن كنا أسباب انهيار الدولة العباسية الاموية في الاندلس .

لم يكن الوزراء كفهم خاصين لخلفائهم والحكام ، كما لم يكن الحجاب كفهم من خيار الناس . وتاريخ الدولة الاموية مليء باسماء الوزراء والمحجبات الذين ينتهي مؤرخون بهم من السفلة ووضعيي الاصل ، ولذلك لم يكن يجمع الناس على احترامهم ، وإذا فقد الناس تقديرهم لرؤسائهم المباشرين من حجاب ووزراء وقادات ، تحدث الفوضى والبلبلة وتسيير الدولة نحو الانهيار . وأخيراً أود أن أورد أمراً اعتبره المؤرخ الدكتور حسين مؤنس عاملـاً من المؤامـلـاتـ التي عجلـتـ في سقوطـ الدولةـ الـامـوـيةـ وـنـؤـيـدـهـ نـحنـ فيـ ذـلـكـ ،ـ وـهـوـ أـنـ عـصـرـ المنـصـورـ نـفـسـهـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ العـلـمـةـ التـيـ وـصـلتـ إـلـيـهـ الـانـدـلسـ فـيـ عـهـدـهـ ،ـ وـشـكـلـ نـقطـةـ ضـعـفـ فيـ مـسـتـقـبـلـ الدـوـلـةـ الـامـوـيةـ .ـ ذـلـكـ لـأـنـ هـذـاـ الرـجـلـ القـويـ يـنـاهـ لـنـفـسـهـ وـلـجـهـهـ اـرـالـ كـلـ الشـخـصـيـاتـ القـوـيـةـ التـيـ كـانـ يـكـنـ انـتـعـيقـ صـمـودـهـ إـلـىـ الـقـمـةـ ،ـ فـكـانـ يـذـلـكـ يـهـمـ الـاسـسـ الـمـتـنـيـةـ لـاسـبـانـيـاـ الـعـرـبـيـةـ الـقـوـيـةـ .ـ لـافـهـ نـدـماـزـالـ مـنـ الـحـكـمـ لـمـ يـعـدـ هـنـالـكـ فـيـ الدـوـلـةـ شـخـصـيـةـ قـوـيـةـ يـكـنـهاـ اـنـ تـحـلـ حـمـلـهـ وـتـسـدـ الفـرـاغـ الـدـيـ تـرـكـهـ بـعـوـتـهـ .ـ كـاـنـ الـحـلـاتـ الـمـتـوـالـيـةـ التـيـ قـامـ بهاـ الـمـنـصـورـ عـلـىـ الدـوـلـةـ الـسـيـحـيـةـ الـاسـبـانـيـةـ فـيـ الشـمـالـ وـالـتـيـ بـنـتـ جـمـداً لـاعـربـ فـيـ اـسـبـانـيـاـ وـجـعـلـتـ اـسـمـهـ مـهـابـاـ فـيـ اـنـهـاءـ اوـرـباـ باـسـرـهـاـ اـدـتـ فـيـ الـوقـتـ ذـاتـهـ إـلـىـ

فراغ الخزينة نوعاً ما وقد ان الكثيرون من الجنود المقاتلين وتذمر الناس من وطأة الحروب وكثرةها المعنوية .

هذه هي في نظري اهم المسؤوليات التي تقع على عاتق العناصر العربية في مقوط الدولة الاموية . فلتر مسؤولية العناصر الاخرى .

مسؤولية العناصر البربرية :

ان معظم العناصر التي كانت تشكل جيش طارق والتي تم على يدها فتح الاذلس كانت بربرية من شمالي افريقيا . فان سكان تلك البلاد الاشداء الذين اشتهروا بشجاعتهم وقاومتهم الضارية لفتح الاسلامي ، انقلبوا بعد ان عم "احتلال العرب لبلادهم" جنوداً متحمسين في صفوف الجيش الاسلامي حملوا على عاتقهم القسط الاكبر من النضال العربي في شبه الجزيرة الابيرية ، واحرزوا اولى الانتصارات التي تمت للعرب في تلك البلاد .

ان طبيعة الحياة التي كان يحييها البربر في بلادهم ؛ تلك الطبيعة الصحراوية او الجبلية التي جعلت طباعهم قريباً من طباع العرب ، اجرت هؤلاء على خوض معارك طاحنة ضدتهم كي يتمكنوا من السيطرة على بلاد شمالي افريقيا اثناء التوسيع الاموي نحو الغرب . ولكن منذ ان تم ذلك اصبح البربر عmad الجيش والعنصر الاساسي الذي تعتمد عليه الخلافة الاموية لدفع حدود الدولة نحو الغرب .

بعد ان انتهت العمليات الحربية التي رافقت احتلال العرب لاسبانيا اخذ افراد الجيش الفاسح يتوضعون في مختلف احياء البلاد ؛ وقد ظهر منذ الوهلة الاولى ان الفاتحين يشكلون طبقتين اجتماعيتين متميزيتين هما طبقة الجندي العرب وطبقة الجندي البربر . وقد سكن العرب في الاراضي الجنوبيّة بينما سكن معظم

البربرة في المناطق الشمالية الفاحلة ما عدا جماعات قليلة منهم كانت موزعة في باقي أنحاء الاندلس . وقد تج عن هذا الوضع ان البربرة بالدرجة الأولى لم يكونوا مسرورين من إقامتهم في تلك المناطق الجبلية التي يصعب العمل فيها . ولا تعطي إلا متوجاً ضئيلاً . وبالدرجة الثانية انه كان عليهم بحكم إقامتهم في تلك المناطق الشمالية ان يكافحوا العدو المسيحي وان يشكلوا سداً منيعاً في وجهه يعوق سيره وتقدمه نحو الجنوب ، ولهذا السببين مجتمعين لم يكن البربرة راضين عن إقامتهم في الاندلس ، وكانوا ينفرون إلى المناصر العربية نفرة الحسد وعدم الرضى لأنهم اصطفوا لأنفسهم أحسن الراضي وتركوا لهم أسوأها .

وهنا رعايا يقول قائل ان معظم البربرة كانوا يسكنون في بلادهم مناطق جبلية ، فلماذا يتذمرون الان من سكنتهم في مثلاً في الاندلس ؟ والجواب على ذلك ان هؤلاء البربرة قد وعدهم قوادهم قبل الفتح وعلى رأسهم طارق بن زياد بأنهم اذا انتصروا فائهم سيستولون على بلاد مليئة بالخيرات والنعم والطيبات والملذات ، فدفعوهم بذلك الطريقة الى الاستئثار في سبيل النصر . فلما لم يتحقق حالمهم نعموا على السادة العرب الذين حرمونهم في اعتقادهم من تلك الاشياء باصطفائهم لأنفسهم .

لم يكن بالطبع عامل التوزع السككي هو العامل الوحيد الذي اوجده ذلك التفتور بين العرب والبربر ، بل هناك عدد وافر من الدوافع والاسباب كانت تزيد مع الزمن شقة الخلاف بين الفريقين حتى أصبح خلافاً علنياً صريحاً اتطور فيما بعد الى القتال المسلح والمجازر الدامية مما اضعف الدولة الاموية في الاندلس وجعل في سقوطها .

لم يكن هناك انسجام في الطابع بين العرب والبربر فلكل من الفريقين طريقة حياته وعاداته وتقاليده . ولكل من الفريقين خطته في الحكم والسياسة

واداره الامور .. فلم يكوفا يستطيعان الوصول الى اتفاق دائم تم على المشاكل
القائمة بينهما مما كان يباعد وجهة النصر بينهما وتحول دون اتحاد الفريقين من اجل
خدمة المصلحة العامة .

ويذكر بعض المؤرخين ان القادة العرب كانوا عندما يتصرفون في بعض
المعارك لا يعمدون الى توزيع الغنائم توزيعاً عادلاً بين العرب البربر من الجندي ،
فيأخذون لافتهم ولا يتابعهم معظمها ويتركون الكمية القليلة الباقية للبربر
يتقاسمونها بما أخذوا هؤلاً عليهم وجعلهم يشعرون كأنهم دخلاء على المجتمع الانداسي
وتشكل من جراء هذا الشعور لدى البربر مع الزمن شعور بالنقض رافقهم بعد
ذلك طوال فترة الحكم العربي في الاندلس واصبح صفة ملزمة لهم كانت
السبب في اثارة كثير من المتابع للدولة الاموية في قربطبة وجعلتهم على
حدوث دائم من العرب .

هذا ولا نستطيع ان ننكر ايضاً ان العرب في اسبانيا - خاصة في الحقبة
الاولى من حكمهم - كانوا هم المتسللين او الوظائف الكبرى في الدولة ، وانهم لم
يتركوا لعناصر الاجنبي سوى وظائف من الدرجة الثانية . ولقد كان هذا
 شيئاً طبيعياً نظراً لخبرة التي كان يتمتع بها العرب في الادارة والسياسة والتي كانت
تفوق المعلومات البدائية التي كانت لدى البربر عن هذه الاوضاع ، ولكن على
الرغم من ذلك فان هذا التفوق لم يحل دون شعور البربر بالظلم الاجتماعي وبأنهم
لا يعاملون على قدم المساواة مع العناصر العربية . هذه الاسباب المتقدمة وغيرها
اوقدت ثار الخلاف بين الطبقتين الرئيسيتين في الاندلس فلجاً افرادها الى حل
الخلاف بالقوة في مناسبات متعددة ، ونشأ عن ذلك ازمات متعددة خلال الحكم
الاموي اضعفـت من قوته وساعدـت على انهياره

وما ثورة البربر الكبرى في سنة ٥١٢٤-٧٤١ التي كادت ان تنتزع الحكم من ايدي العرب ، وثورة الزعيم البرברי اصبع بن عبدالله بن وانسوس في ماردة سنة ٥١٩٠-٨٠٦م وثورات البربر في طليطلة وثورة سليمان بن مرتبين ومحمود بن عبدالجبار وغيرهم الا ادلة ظاهرة على شدة الخلاف الذي احتمد بين العرب والبربر

ولقد نتج عن ثورة ٧٤١=٥١٢٤ التي كاد البربرة خالماها ينبعجون في الاستيلاء على الحكم لولا مجيء بلج بن بشر وجندوه الشاميين وانضمامهم الى العناصر العربية مما رجع كفتهم وجعلهم يتضررون في اللحظة الاخيرة ، نتج عنها ان كثيرا من البربر الذين كانوا يقيمون في شمال الاندلس ويحرسون المرات التي يمكن ان يمر منها النصارى نحو الجنوب . عادوا الى بلادهم كرهافي العرب لما ارتكب في الخاد تلك الثورة من الفظائع ولا نهم لم يريدوا ان يبقوا تحت حكمهم ، ويدرك البعض ان الجماعة التي حصلت في تلك الاونة وبعدها بقليل هي التي جعلتهم يهاجرون من الاندلس .

وعلى اي حال اود ان اخلص من هذا كله الى القول بأن رجوع البربرة ومجادرة الكثيرين منهم تلك المناطق الشمالية كان له اثره في اضعاف مقاومة المسلمين لنصارى الشمال والنتائج التي حصلت من جراء هذه الثورة السابقة يمكن ان تعمم على كل الثورات الاخري التي قام بها البربر بما يربينا الا ز العميق الذي تركه ذلك الخلاف العربي-البرברי في تاريخ الاندلس .

ولقد بدأ شأن البربر برفع وعدهم بزداد منذ وصول عبد الرحمن الداخل الى الاندلس ، اذ انهم ايدوه ونصروه عندما كان في شالي افريقيا ، فلما تغلب على اعدائه وتم له اخضاع الاندلس دخل معه اليها عدد غير منهم واخذ

آخرون بالهجرة مع الزمن سعيا وراء الثروة وهربا من المناطق الصحراوية الفاحلة نحو المناطق الحصبة الظاهرة فزاد عددهم زيادة كبيرة وانتشروا في كل مكان وأخذوا منذ ذلك الوقت يحتلون مكانهم في سياسة الأندلس العربية.

ومن يطالع تاريخ العرب في إسبانيا يرى الدور الخطير الذي لعبه فيما بعد المنصر البربرى في تسيير دفة الأمور وتوجيهها، وكيف استطاع الكثيرون منهم احتلال المناصب الخطيرة والوصول إلى مرتبة الولاية والوزارة بل انهم أصبحوا يعلمون بالخلافة وتوصلوا إليها فعلاً كما سُرِّى في عهد المُؤْمِنِين في أواخر حكم الأمويين

هذا وعلى الرغم من تكاثر البربر وعلو مكانهم في الفترة الواقعة بين امارة عبد الرحمن الداخل وخلافة عبد الرحمن الناصر فإن العداوة لم تكن شديدة ومستحکمة بينهم وبين العرب لأن هؤلاء البربر قدم معظمهم كما قلنا نقاشاً عن المظـاـفة والثـرـوة وليس لغـاـيات عـسـكـرـية مـيـاـسـيـة . فـكـانـوا بـصـورـةـ عـامـةـ مـسـالـمـينـ لاـ يـطـمـعـونـ فـيـ الـنـاسـبـ الـكـبـرـىـ بـيـنـاـ اـزـادـتـ الـعـدـاـوةـ وـاتـسـعـتـ شـقـةـ الـخـلـافـ بـيـنـ الـفـرـيقـيـنـ مـنـذـ عـهـدـ النـاصـرـ لـأـنـ هـذـاـ اـرـادـ انـ يـعـتمـدـ عـلـيـهـمـ إـلـىـ جـانـبـ اـعـتـمـادـهـ عـلـىـ الصـقـالـبـ لـكـيـ يـحـدـ مـنـ شـوـكـةـ الـأـرـسـقـاطـيـةـ الـعـرـبـيـةـ . وـبـالـغـهـ الـمـنـصـورـ بـعـدـهـ فـيـ الـاعـتـمـادـ عـلـيـهـمـ وـتـسـلـيـمـهـ جـمـيعـ الـوـظـافـ الـادـارـيـةـ وـالـقـيـادـاتـ فـيـ الـدـوـلـةـ وـفـيـ الـجـيـشـ فـاستـقـدـمـ اـفـوـاجـ كـبـيرـهـ مـنـهـمـ وـاسـيـغـ عـلـيـهـمـ نـعـمـهـ وـكـرـمـهـ وـكـانـ معظمـهـمـ مـنـ الـمـرـتـقةـ الـذـيـنـ لـأـرـعـوـونـ عـنـ اـرـتـكـابـ اـفـطـعـ الـأـمـرـ فـيـ سـبـيلـ خـدـمـةـ مـصـلـحةـ سـيـدـهـ وـالـحـسـنـ إـلـيـهـ ، فـانـتـشـرـتـ الـفـتنـ مـنـذـ ذـلـكـ الـوقـتـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ وـنـشـبـ الـقـتـالـ بـيـنـ الـفـرـيقـيـنـ فـيـ كـلـ مـكـانـ فـضـعـتـ الـبـلـادـ مـنـ جـرـاءـ ذـلـكـ وـكـانـ الـفـتـنـةـ الـأـخـيـرـةـ الـتـيـ بـدـأـتـ فـيـ حـوـالـيـ مـنـةـ ٤٠٠ـ هـ =

١٠٣٣ م هي الضربة القاضية بالنسبة للخلافة الاموية إذ أنها لم تنته إلا بسقوطها وانقسام البلاد إلى عدد كبير من دول الطوائف.

هكذا نرى أن العناصر البربرية قد أسممت أيضاً بتصنيفها في التعجيل ب نهاية الخلافة الاموية فاعتبرت مسؤولة كغيرها عن تدهور الدولة والخطاططاها.

مسؤولية العناصر الصقلية :

كانت الطبقة الثالثة في الأهمية في المجتمع الاندلسي هي طبقة الصقالبة . وقد ساعدت هذه الطبقة أيضاً بتصنفاتها عدد من أفرادها وطموحهم إلى الحكم في سقوط الخلافة الاموية في الأندلس . فان القادة الصقالبة لم يكونوا يقنعون أبداً بالرثى الذي يصلون إليه ويحاولون دائمًا الاستمرار في الصعود وازالة جميع العقبات أمامهم مما كان يؤدي إلى نوع من الفوضى والضعف في الجهاز الإداري والسياسي للدولة . فالمنصر العربي يريد أن يحتفظ بالحكم والبربر يتذمرون منه في ذلك ، والصقالبة يحاولون التغلب على الفريقين وبسط سلطتهم على البلاد . وقد اعتمد الأمراء الامويون على الصقالبة هي اعتمدوا على البربر لعدم تفهمهم - كما رأينا - بالعناصر العربية لأن هذه كانت تتنافس بصورة « مستمرة » على الحكم . وطالما أن الأمير أو الخليفة لا يستطيع أن يضمن ولاء الاسر العربية له تأييدها للملك فأنه يرى نفسه مضطراً لجلب عناصر جديدة والاعتماد عليها كي تحميده وتقوم بالجهاد ضد أعداء الوطن وتذود عن حدوده .

وقد بدأت حكومة الأندلس بالاعتماد على البربر قبل الاعتماد على الصقالبة لسهولة الحصول على الاولين دون الاخرين بحكم موقع بلادهم

القرب التي لا يفصلها عن أرض الخلافة الاموية سوى مجاز ضيق من البحر . ولكن عندما ارتقى الخليفة الناصر العرش شعره بضرورة اكتارهم والاعتماد عليهم اعتماداً كلياً كي يوجه ضربة شديدة الاستقرار اية العربية ينعموا منذ الان فصاعداً من التفكير في الخلافة ، وكيف يتشكل لديه جيش قوى يخضع لاوامره ، بمحاذيرها ويساعده على تحقيق البرنامج الفخم الذي كان ينوي اتقانه في المجالين العسكري والسياسي . على هذا الاساس أخذ الناصر يكثر من ادخال المناصر البربرية والصقالية في جيشه وفي الادارة وفي مختلف نواحي الدولة .

ويذكر المؤرخ ابن خلدون أن الناصر كان يثق بالصقالية بنوع خاص يوليهم من السلطان والنفوذ ما لا يوليه سواهم .

وقد كانت كلمة « الصقالية » تطلق في الاندلس بادىء الأمر على الاسرى والذئبيان من المناصر السلافية ، ولكنها ما لبثت ان غدت تطلق على كل الاجانب الذين يخدمون في مصالح الدولة المختلفة . وكان يؤمن باوثان الصقالية من الدول الاسانية المسيحية في الشهل ومن دول اوربا الشرقية ، كما كان قسم كبير منهم يجلبون من جهات البحر الاسود ومن سكان كالابريا ولو مبارديا وأواسط اوربا . وكانوا على نوعين : الحصيان وغير الحصيان . أما الاولون فكأنوا يستعملون خاصة لحراسة الحرم ، وأما الاخرون فيوكل اليهم الكثير من المناصب الادارية والمسكرية الحامة . ولما كان هؤلاء الصقالية يجلبون صغاراً الى اسبانيا فقد كان من السهل عليهم تعلم اللغات السائدة في البلاد وهي العربية اولاً والرومانية ثانياً ، حتى أن بعضهم استطاعوا أن يرزوا في كثير من النواحي العلمية والادبية والادارية . كما استطاعوا أن يثروا ويتلكوا الاراضي ،

فارتفعت مكانتهم وازداد عددتهم حتى بلغ في قرطبة وحدها في عهد الناصر ثلاثة عشر ألفاً وسبعيناً وخمسين ، عدا عنمن كان يوجد في المدن الأخرى .

وأصبح معظم حراس الناصر منهم كما احتلوا أكثر وظائف القصر والوظائف الإدارية في الدولة . وكان الناصر يساعدتهم على إسطنفوذهم ويرغم أشراف العرب وزعماء القبائل على الانقياد إليهم كي يخفف من هميتهم . وتوصلوا إلى تسلم قيادة الجيش أيام الناصر في شخص القائد نجدة كما أصبح دري صاحب الشرطة وتولى ياسر و تمام ادارة القصور الخلافية وما يتلقى بها .. فاصبح لهم العمل والربط في الدولة .

وقد تنبه المنصور فيما بعد إلى خطأهم العظيم عندما حاولوا السيطرة على مقاليد الأمور بمحض الخلافة عن مرشحها الشرعي هشام بن الحكم وأعطائهم للمغيرة بن عبد الرحمن فبعاش بهم ولاحقهم في كل مكان خوفاً من سيطرتهم على الدولة مسيطرة تامة . ومع ذلك فقد نجحوا فيما بعد بتأمين عدد من دول الطوائف في بلنسية والمرية والمرسية وودانيه وطرطوشة وجزر الباليدار ..

كان لسياسة الناصر هذه أسوأ الأثر في انهيار الجيش وضعف قواه المعنوية إذ أن العناصر العربية تقمصت على الناصر سياساته تلك واضمرت الحقد للدولة الاموية وأخذت تنتظر الفرصة المناسبة لتأثير الكرامتها، فأدى ذلك كله إلى زيادة الخلافات القومية والطائفية في الدولة الاموية بالأندلس ، وبالتالي إلى التعجيل في سقوط الخلافة الاموية التي لم تتد

تستطيع تحمل النزاع بين الطبقات الثلاث الكبرى في المجتمع الاندلسي وهي طبقة العرب وطبقة البربر وطبقة الصقالبة .

المولدون :

لم تكن مسؤولية هذه الطبقة الرابعة من طبقات المجتمع الاندلسي بالقل من غيرها في التعجيل بسقوط الدولة الاموية بل ربما استطاع القول بارن وجودها مساعد على إيجاد أفراد المواميل التي أضعفت الخلافة الاموية وأدت إلى انهيارها ،

والمولدون عم المسلمين من الأسبان أي الذين دخلوا حدثاً في الدين الاسلامي فاصبح يتحقق لهم أن يتمتعوا بكل الحقوق التي تتمتع بها العناصر العربية . ورغم أن الاسلام قد مساوى بين جميع المسلمين في الحقوق والواجبات إلا أن هؤلاء كانوا يشعرون دائماً بهم رغم اسلامهم ادنى من العرب من الوجه الاجتماعية ، بل كانوا يشعرون بأن العرب هم اسياد البلاد وحكامها . والواقع أن العرب الذين لم يكونوا يستطيعوا أن يتذمروا عن كبرائهم العنصري ، كانوا علاوة على ذلك يشكون في ولاء المسلمين الأسبان الجدد ، ولا يهدون اليهم المناسب الكبير والوظائف الحساسة مما كان يحقد هؤلاء أيضاً على العناصر العربية ويدفعهم إلى الثورة تلو الثورة املأاً في التوصل إلى تغيير الاوضاع وتبديل الامور دون أن يوقفوا إلى شيء من ذلك .

إن الثورات التي قام بها المولدون أو البلديون كما يسمونهم أحياناً المؤرخ ابن القوطيه كانت تحمل طابع القوة والعنف كما كانت تحمل طابع التنظيم والمدف الواسع وهو : الاستقلال التام عن حكومة قرطبة وفرض القوانين الخاصة بهم في مناطقهم كما يحلو لهم وكما يوافق مصالحهم .

وإن معظم الثورات التي قامت في مدينة طليطلة مثلاً كان يزعزعها أفراد من المولدين أو المستعمررين . ولكن أكبر هذه الثورات وأخطرها على الخلافة الاموية هي ثورة عمر بن حفصون التي رأينا نبذًا عنها في الحلقة الاولى . وقد كان هذا سليل اسرة من المولدين ترجع الى اصل نصراوي قديم ، وقد دخلت عائلته في الاسلام في عهد جده الرابع جعفر الذي كان أول من اعتنق الاسلام من اسرته . وبظاهر أن الزعيم الثاني في ييشتر عمر ابن حفصون لم يؤمن بالاسلام ايماناً حقيقياً بل كان يصر على دينه القديم ، ولذلك ما ان مضى على ثورته فترة من الزمن وساحت له الفرصة حتى اعلن عودته الى النصرانية وتحالف مع ملوك الدول الاسبانية المسيحية . وكان الثوار من المولدين في المدن الاجنبية يعتبرونه زعيماً ويعتبرون حركته هي الاساسية وثورتهم فروع منها تابعة لها . وقد ظل ابن حفصون يزعزع الخلافة الاموية أكثر من عشرين عاماً حتى تكون اخيراً عبد الرحمن الناصر من سحق ثورته في عام ٩٢٩ = ٣١٦ هـ فخدمت حركات المولدين ولم يقوموا بعدها بحركة تستحق الذكر . هكذا كان المولدون عاملاً من العوامل التي اضفت الخلافة الاموية وعجلت في سقوطها .

المستعرون :

وهو لاءً أيضاً اسهموا في اضعاف الخلافة الاندلسية بما قاموا به من الفتن الداخلية والحركات التناوئة وبما اظهروه من التعصب الشديد في بعض الفترات . والمستعرون هم النصارى الاسبان الذين لم يشاوروا أن يغادروا بلادهم بعد احتلال العرب لها فتابعوا حياتهم الطبيعية فيها خاضعين

لقوانين الدولة الجديدة وتمتعين باقصى ما يمكن من التسامح والعدل للذين نص عليهم الشرع الاسلامي .

فرضت الدولة الاسلامية الجديدة الضرائب بالتساوی على جميع المواطنين بعد أن كانت تحيى أيام حكم القوط بناء على اهواه الحاكم وحسب طبقة الفرد ومكانته الاجتماعية ، فالاغنياء من الاشراف والبنادق كانوا لا يدفعون إلا النزر القليل من الضرائب أو كانوا معفيين منها بينما كانت الضرائب الفادحة تُنزل كاهاً الطبقة الفقيرة ، فلما أتى الاسلام ساوي بين جميع المسلمين ففرض عليهم ضريبة واحدة يؤدونها الى الدولة وهي ضريبة الجزية .

وكان اداء الجزية هو كل ما يفرض على المسلمين من النصارى أو اليهود مقابل احتفاظهم بدينهن وحرمة عقائدهم وشعائرهم ، مع العلم بأنها تسقط بصورة أكيدة عن كل من يدخل الاسلام منهم فيصبح له من الحقوق وعليه من الواجبات ما للمسلم سواه سواء .

وقد ترك العرب للنصارى المعاهدين من الاسنان حق اتباع قوانينهم وتقاليدتهم والخضوع لقضاءهم وقضائهم وعينوا لهم في كثير من الاحيان حكامًا من ابناء جنسهم ، عبدوا اليهم بن الضرائب المطلوبة والاشراف على النظام والامن في المنطقة .

واننا حين نطالع مؤلفات المؤرخين العرب منهم والغربيين نلاحظ اشادة الجميع بالمعاملة الحسنة التي كان يلاقها المستعربون من حكومة الاندلس الاسلامية وكيف أنه لم يكن لديهم ما يدعو إلى الشكوى بالنسبة لاحواله التي كانوا عليها من قبل . وقد شهد دوزي للعرب أنهم

كانوا يتعلّون بكثير من التسامح فلم يرهقوا أحداً في شؤون الدين ولم يجبروا أحداً على الدخول في الإسلام لأن موارد الدولة كانت تغص من جراء ذلك . وقد اعترف معظم النصارى بذلك وحمدوا للفاتحين تساهّلهم وعد لهم مفصلين إياه على حكم الدولة السابقة فانقضى القرن الثامن كله في مسكيّة وهدوء دون أن يدّي رجال الدين أي تذمر ملحوظ^(١) .

كما يشيّ على ذلك المستشرق الإسباني جاينجوس Eoijayagos والمُؤرخ الانجليزي لين بول LONF POOLE والأمريكي سكوت Scott وغيرهم .. يقول هذا الأخير :

« ... إن اعتدال حكام العرب خفف من وقع المزية في نفوس الإسبان ، وكان دفع الجزية يضمن الحماية لاقل الناس ، وكان يسمح للورع المتّصّب ان يراوّل شعائره دون أن يحول بينه وبين ذلك أحد . والاجبار يراولون شؤونهم بسلام .. أما أقوال الكتاب النصارى التي ينسبون فيها للعرب افضل المساوى، فهي شخص مبالغة وافتراض .. »

وأن البحاثة الماصريين من الإسبان يعتّرون بصورة عامة بتسامح المسلمين في معاملتهم لأهل البلاد المفتوحة ويؤكّد التأميري أنّ معظم أفراد الشعب ظلّوا تحت الحكم الإسلامي يحتفظون برؤسائهم وقضائهم واساقفهم وكنائسهم .. ^(٢) كما يذكر كردينياس Cardenas أن المستعربين

(١) Dozy : Hist. des mus. d'Espagne T II p. 277

(٢) R. Altamiray Crevea: Hist. de Espy de la civilisacion Esp. Barcelona 1960.

استطاعوا أن يعيشوا مع المسلمين جنباً إلى جنب بفضل تسامح هؤلاء الآخرين كما احتفظ الأولون باستقلالهم ولغتهم وعاداتهم وقوادينهم ...^(١)

وهناك استشهادات كثيرة أخرى تبرهن لنا على تسامح المستعربين في ظل الحكومة الإسلامية بابداع التسامح وأحسن المعاملة يد أنها نكتفي بهذا القدر الذي ذكرناه ملخصاً في الوقت ذاته إلى أن كثيراً من نصارى الاندلس توصلوا إلى الوظائف العليا والمناسب الكبرى في الجيش والادارة بل حاربوا في كثير من الأحيان جنباً إلى جنب مع المسلمين ضد المدوس المشترك الذي كان ينوي احتلال بلادهم وانقضائهم عليهم .

هذا وقد كانت لهم مجتمعات زاهرة في قرطبة وغيرها . وكان قسم كبير منهم يشتغل بالتجارة في مختلف أنحاء الاندلس وكان معظمهم يتخلق بأخلاق المسلمين وعاداتهم ويرعون في اللغة العربية وآدابها وعلومها ، حتى أن بعضهم كان يعيت على البعض الآخر ذات الاهتمام باللغة العربية والتبوغ فيها عوضاً عن الاهتمام باللاتينية والرومانية .

ولكن على الرغم من كل ما نقدم ، فإن طائفة من المستعربين ظلت تعتبر نفسها مظلومة في ظل الحكم الإسلامي ، وربما كان الأصح أن نقول أن موجة من التعصب الشديد كانت تستولي على تلك الطائفة الصغيرة فتدفعها إلى التطرف والثورة على الحكم العربي وبعض المسلمين

(١) O Almagro y Cárdenas: la Cultura Árabe-Sevillana
Sevilla 1894 p. 10

والسخرية منهم . وكان عدد من القساوسة ورجال الدين يذرون بذور الشقاق ويضرمون نار الفتنة ويرمون أخواتهم من النصارى العتادين بالحربة والانصياع لحكم الاجنبي ..

وقد وصل ذلك التعصب الى اقصاء أيام الامير عبد الرحمن بن الحكم فأخذوا يحاولون اثارة الفتن العائشية والمشاكل الداخلية . ولما لم يكن بوسعيهم أن يجاهدوا قوات الدولة الاموية في ساحة المعركة فقد جاؤوا الى تحقيق غايتهم بوسيلة بعيدة عن المنطق الصحيح وهي المجاهدة بسب النبي العربي ودينه . وكان ذلك يشكل جريمة شنعاء يعاقب صاحبها بالقتل حتى ولو كان من المسلمين فكيف اذا كان من اعدائهم ؟ وكان القضاة المسلمين حينما يقدم لهم أحد أولئك المتعصبين من القسر أو من المدينين بتهمة التهجم على النبي وعلى الدين الاسلامي يستعملون معه الرفق والابن ويحاولون ارجاعه عمما يقول وينصحونه بالا يعود الى مثل ذلك ، ولكن التهم كان يصر على أقواله بل يعيدها أمام القاضي بشكل أقفل وكلاماً أعنف فلا يسع القاضي حينذاك وأمام ذلك الاصرار على مهاجمة معتقدات المسلمين إلا أن يحكم عليه بالموت . وهكذا حكم على بضعة من المتعصبين بالقتل ، فكان رجال الدين يكرمون رفاته ويسبغون عليهم صفة الشهادة بل ويعتبرونهم فيما بعد في عداد القديسين . وقد عقد في قرطبة على اثر ذلك مؤتمر مسيحي برئاسة مطران اشبيليه مثل الامير عبد الرحمن فيه أحد كبار الموظفين النصارى فشرح لأخواته النتائج الخطيرة التي يمكن أن تترتب على عملهم واستطاع أن يجعلهم يوافقون على استبعان مسلاك أولئك المتطرفين . ولكن تلك الحركة لم تخمد الا بعد ذلك بسنوات ودامـت حتى عهد الامير محمد بن عبد الرحمن تهدـد الحكومة الاموية بالثورة والخروج على طاعتها دون أن

تصل الى حد الانفجار الجماعي .

فالستعمرون من هذه الناحية ، ناحية كره بعض عناصرهم للعرب ومحواوتهم اثاره المتاب والمشاكل والفن في وجه الدولة الاموية ، يعتبرون أحد العناصر التي عجلت في تقويض كيان الخلافة الاموية وسقوطها .

طبيعة الشعب الاسباني :

استكملوا لذكر العوامل التي ساعدت على سقوط الدولة الاموية بسبب طبيعة المجتمع الاسباني أود أن اذكر هنا أيضاً أن طبيعة هذا الشعب تحد ذاتها جعلت حكمه من أصعب الامور واعسرها . فالاسباني لا يرضى بالقليل ولا ينقاد أقىاداً أعمى الى السلطة التي تحكمه بل يريد أن يوجه النقد اليها وأن يشتراك في تقرير السياسة العامة وسير الامور في بلاده مما كان يضع الحكومة الغربية في موقف حرج دقيق . وكان أهل الاندلس حينما يرون بأن السلطة ضعيفة يحاولون خلق المشاكل امامها . وأما اذا رأوا أنها قوية عمدوا الى التذمر والشكوى وخلق العصاب في وجهها . هذا عدا عن أن الفكر الحر والطبيعة الحرة والتزعة الفردية التي كانت يتمتع بها الاندلسيون كان يصعب القضاء عليها ومحوها فعلى الرغم من أن بعض القادة أو الامراء أو الخلفاء الاقوياء حاولوا بسط سيطرتهم التامة على أنحاء البلاد ورغبو في حكمها حكماً دكتاتورياً فردياً وذلك بفرض آرائهم وبراجيمهم بالشكل الذي يريدونه أمثال الخليفة عبد الرحمن الناصر والحاچب المنصور بن أبي عامر ، إلا أن ذلك لم يطل إلا ردحاً من الزمن ولم يدم إلا بدوام القلائل بالأمر . فلما قضى

النصرور بن أبي عامر نحبه خرج الامر من أيدي القائمين على الحكم
وشعر الناس بأنهم تخلصوا من كابوس نقيل فعمت الفوضى والثورات انحاء البلاد
وانهارت الخلافة الاموية .

طبيعة بلاد شبه الجزيرة الایيرية :

أن طبيعة الارض في اسپانيا ووعورة المسالك في انحائها ووجود
السلالل الجبلية المرتفعة العدية في وسطها وفي شمالها والانهار المترقبة في
معظم اجزائها .. كل ذلك كان يزيد في صعوبة احتلال البلاد اقسام
ويشجع الناقمين على الحكم على الخروج عن طاعة الحكومة المركزية في
قرطبة . فإنه حينما كانت تتشبث الثورات في أقصى الشمال او في أقصى
الجنوب كان الجيش العربي يرى نفسه مضطراً لا جنائز عقبات طبيعية كثيرة حتى
يصل الى مكان الثورة مما كان يعطي الفرصة لقادمين بها لقوية انفسهم
ومحاولة بسط سيطرتهم على مناطق جديدة وتحصين أنفسهم تحصينا منيعاً
ريثما تصل قوات الحكومة هذا عدا عن أن الحصول المتعدد الواقعه
على رؤوس الجبال والتي كان يستحيل تكريباً احتلامها كانت تساعد على
تفاقم الفوضى وعلى عجز الحكومة عن اخماد الثورات بالسرعة المطلوبة فادى ذلك
كله الى شف الخلافة الاموية وعجل في سقوطها .

لقد قاتل العرب وناضلو كثيراً في سبيل السيطرة التامة على انحاء
البلاد والقبض على ناصية الامور بيد من حديد ولكنهم غلبوا في النهاية أمام
العوامل الطبيعية والعوامل الاخرى السابقة الذكر فذهبوا دواهم وسكن ريحهم
في تلك الناحية من امبراطوريتهم الواسعة .

العوامل الاقتصادية :

على الرغم من اتساع البلاد التي كان يحكمها العرب في إسبانيا ومن خصوب الاراضي خاصة في المناطق الجنوبيّة ، وعلى الرغم من أن دخل الدولة قد بلغ في عهد عبد الرحمن الناصر أرقاماً هائلة تقدر بـ ١٠٠٠٠٠٠ ملايين من الدنانير إذ يقال أنه خلف عند وفاته في بيت الأموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف مليون دينار حتى قيل أنه كان أغنى ملوك عصره ، على الرغم من ذلك كله فإن دولة الأمويين في الاندلس لم تتمتع بهذا الفخامة وهذا الرخاء في مختلف مراحل تاريخها بل على العكس من ذلك ، مرت في كثير من الفترات بازمات اقتصادية حادة ومجاعات شديدة كانت تقضي على عدد كبير من السكان وتوقع البلight في ضائقات مادية كانت تعاني الامرين للتخلص منها على ذلك الازمان الكبيرتان السياسيتان الاقتصاديتان اللتان وقعا الأولى بين منتصف القرن التاسع الميلادي ومتتصف القرن العاشر أي منذ السنوات الأخيرة لحكم الامير محمد حتى بدء حكم الناصر أو حتى ثبوت حكمه في حوالي سنة ٩٣٠ م ، والثانية في أواخر أيام الدولة الاموية أي في الرابع الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي ، فان شعب الاندلس في هاتين الازمتين قاسى من الضائقه الاقتصادية والمجاعات الشيء الكثير . وانضر الناس احياناً الى اكل الحيوانات المهامة كالقطط والكلاب ، بل لجأوا الى مذابح البقر يأكلون دم الحيوانات الذبيحة فيها ..

هاتان الازمتان وأزمات أخرى أقصر منها وأقل شدة ، أثرت في كيان الدولة الاموية في الاندلس وضعضعت الحكم العربي في تلك الانحاء حتى ادى ذلك الى سقوط الدولة الاموية .

وربما يتساءل البعض الان : لماذا كانت تحدث تلك الازمات والمبارات في الاندلس طالما أن البلاد كانت متسعة والاراضي فيها خصبة منتجة ؟

إن الجواب على ذلك يكمن في عوامل متعددة منها اتساع البلاد نفسه الذي اعتبرناه سابقاً كمساعد على زراعتها ورخائها إذ لا يجب أن يغيب عن بالنا أن البلاد الواسعة تحتاج إلى عدد ضخم من اليدى العاملة لاستثمارها واستغلالها استغلالاً جيداً ، وهذا العامل كان مفقوداً في الاندلس ، إذأن سكانهم يكونونوا يتجاوزون الخمسة ملايين على الأكثرب ، وكانوا موزعين توزيعاً سيئاً — فالجهات الجنوبيّة والشرقية آهله بالسكان بينما كانت المناطق الشهاليّة والغربية خالية من السكان تقريباً ما عدا القلة منهم ، ولهذا لم يكن من الممكن استثمار تلك البلاد الواسعة والاستفادة من خيراتها استفادة كاملة ، فكان يتعذر عن ذلك صيغة ماديّة وازمات اقتصادية .

علاوة على ذلك فإنّ البلاد الواسعة تحتاج إلى الآلات تساعد الإنسان على استثمارها الاستثمار الفعلي ، مما لم يكن معروفاً آنذاك فكان العامل الزراعي يعمل يديه ومجده ويكتدح ما استطاع ، ونحن نعرف أن للانسان امكانيّة حيوية لا يستطيع أن يتخطاها ، ولذلك كان الاتّاج محدوداً .

بعض ما في ذلك أنّ قسمًا كبيراً من أراضي الاندلس الشهاليّة كان بحاجة إلى استصلاح زراعي كيما يستطيع استغلاله على الوجه الأكمل ، وبما أن سكانه آنذاك ومعظمهم من البربر لم يكونوا يملكون الوسائل الفنية من أجل القيام بذلك فقد بقي ذلك القسم الكبير من البلاد دون استغلال تقريباً أو كان يستغل استغلالاً ضعيفاً .

هذا عدا عن أن معظم السكان كانوا يأنفون من القيام بالأعمال الزراعية الاقتصادية ويتذمرون ذلك إلى عناصر المجتمع الأخرى من بربور وموالدين ومستعرين ويهود . . . بينما يتفرغون هم لاعمال الادارة والجيش والثقافة والعلم وشغل الوظائف الكبيرة في الدولة ، فـ كانوا بذلك يحرمون البلاد من جزء كبير من إيدي سكانها العاملة فتبقى في تأخر اقتصادي .

ولا بد أن نذكر في معرض كلامنا عن أسباب الأزمات الاقتصادية التي كانت تحدث في الأندلس وتضعف الحكم الاموي فيها ، مساهمة الولاة في ذلك ، إذ أن هؤلاء كانوا شبه مستقلين في مقاطعاتهم ولا يعمدون إلى ارسال الضرائب إلى الحكومة المركزية إلا بعد التهديد وكثيراً من الأحيان بواسطة القوة مما كان يضعف دوماً مركز الحكومة المأدي ، لأن الخزينة لا يمكن أن تتحمل أعباء المصروفات إلا إذا تلقت الأموال من مختلف المقاطعات وليس من العاصمة وحدها .

وأخيراً لا ننسى دور «المتزمين» وجشعهم في الضرار بمصلحة البلاد المادية . فـ ان محصلي الضرائب هؤلاء الذين كانوا يتذمرون جبايتها من منطقة معينة مقابل دفع مبلغ من المال سلفاً لـ الحكومة كانوا يرهقون الشعب بجبايتها فيستعملون مختلف أنواع القسوة ويطالبون الناس بأكثر مما عليهم فيجدون انفسهم مضطرين لذلك في كثير من الأحيان طلما أن الحكومة تويد الجباي وطالما أن الوالي قد استلم المبلغ سلفاً فلا فرق عنده في مقدار المبلغ الذي يحصله الملتزم من الشعب ، فـ كان يتوج عن ذلك تأخر في أحوال الشعب المادية يعيقه حتى تأثر الوضع الاقتصادي للحكومة فيساعد ذلك كلـه في انهيار الحكم القائم .

وبناء على ما تقدم اذن كانت العوامل الاقتصادية من اسباب سقوط الخلافة الاموية في الاندلس .

تدخل الفقهاء في السياسة :

سيطر الطابع الديني على الاسبانيين منذ أقدم العصور فمرفوا باهتمامهم بأمور الدين ورعايتها . وتمكن الكنيسة أن تجعل لها الكلمة الاولى في اسبانيا كما في مختلف أنحاء اوربا ، بل ربما كانت سلطنة الكنيسة هناك أكبر منها في أي بلد أوربي آخر . وقد تحلى ذلك بصورة ظاهرة في مطلع العصور الوسطى حين كان القوط الغربيون يحكمون شبه الجزيرة الأيبيرية ولازالت تلك الظاهرة البلاد حتى اثناء الحكم العربي . فان الشعب الاسباني بقي متدينًا يكن احتراماً كبيراً لرجال الدين والعلماء والفقهاء ويضمهم في مرتبة سامية من مراتب الشعب مما اضفي عليهم صفة خاصة جعل لهم قيمة كبيرة تميزوا بها عن بقية الناس .

وما يمكن أن يقال عن رجال الدين المسلمين ، يقال عن القسس المسيحيين ايضاً الذين تتعارض اتبعهم بمركز عال وقدسيّة جليله استطاعوا بواسطتها أن يتضمنوا أنفسهم ووجهين للشعب وقاداً له فانصاع لارائهم الناس وامتناعهم في مشاكلهم الخطيرة ولا زالوا يفعلون ذلك في عصرنا الحاضر .

وقد حافظ العلماء والفقهاء المسلمين خاصة على مكانتهم منذ الفتح العربي فتعمموا بخطورة خاصة لدى الولاة والأمراء وحرس هؤلاء الآخرين على ابقاءهم راضين عنهم ومؤيدين لهم لكسب الشعب الى

صفهم ، فاجريت عليهم الرواتب الكبيرة ورجع اليهم حكام بني أميه في الخطير من شؤون الدولة . وكان عدد من كبارهم يوجد بصورة دائمة إلى جانب الأمير ويتمتعون بصفة المستشارين ، فيما مر كثرهم وعسا شائئهم في الأندلس ،

ولكن يظهر أن سياسة الحكم بن هشام كانت تختلف عن سياسة أبيه في التقرب منهم ومدارتهم والاعتماد عليهم فاتبع الحكم سياسة الابتعاد عنهم وانصرف إلى صيده ولهموه مما اشقر الفقهاء أن مركزهم قد بدأ بالتصدع ففقدوا عليه وأخذت نفوذهم تدور سخطا على الأمير الجديد حتى أن بعضهم فكر في الثورة عليه . وبدأت نفحة رجال الدين تتجلى في احاديثهم عن الحكم ، إذ أخذوا يلمجون إلى سياسته الالادينية من فوق المنابر ، ويثنون الدعاية السليمة ضده بين أفراد العامة فيتعززون لأخلاقه الخاصة ويصفون بحاله ولهموه .. ولم يكن الحكم يعبأ باقوالهم ودعائهم فظل على حاله لم يغير منه شيئاً . فلما سنت الفرصة للفقهاء في المرة الأولى سنة ١٨٩هـ = ٨٠٥ م عولوا على تنفيذ المؤامرة التي كانوا قد جبوها خيوطها لاتخلص من الحكم نهائياً . وكان يؤيدهم في ذلك عدد غير من البربر والملodin الذين كانت الثورات تصادف هو في نفوذهم ، ومن الاعيان الناقلين على الحكم لصرامته وشدة ، إلا أن أحد العول عليهم من بني مروان وهو محمد بن القاسم الرواني كشف المؤامرة وروى قصتها ل الحكم فانتقم هذا لنفسه بشنع الانتقام وقتل اثنين وسبعين رجلا منهم عدا عن الذين أمر بعقابهم بالسجن أو بالجلد أو بغير ذلك من أنواع القصاص .

ثم عاد الفقهاء إلى الثورة من جديد بعد بضعة أشهر من ذلك دون أن يوفقا إلى غايتهم ودون أن يكون حظهم في هذه المرة أحسن منه في

الأولى . ولذلك أخلدوا إلى السكينة بضعة مئين حتى إذا اتت سنة ٢٠٢ = ٨١٧ م عادوا إلى إعلان عصيانهم يؤيدتهم في ذلك عدد ضخم من سكان قرطبة ، وكان أشد الثاريين تحمساً ضد الحكم أهل الصاحبة الجنوبيه من المدينة التي كانت تسمى بالربض و معظمهم من العامة الماطلين عن العمل ، ولذلك سميت الثورة بشوربة الربض ودعى المؤرخون الأمير الحكم أحياناً بالحكم الربضي لما كان لهذه الثورة من أهمية في فترة حكمه . وتوجه الثاريون إلى القصرين بدون الفتاح بالأمير ورأى هذا نفسه في موقف حرج فأوزع إلى حرمته أن يجاهو الثورة بالقوة فبهم هؤلاء على المتظاهرين واستطاعوا أن يفتحوا لأنفسهم ثغرة بينهم فندوا منها إلى ضاحيتهن « الربض » واصملاوا النار فيها بناء على أوامر من الأمير الحكم . فلما رأى هؤلاء يومهم تحرق ارتدوا لإنقاذهن من الباب فهاجمهم الجندي من الوراء واعملوا بهم القتل . وكانت محزرة رهيبة ، يقال أن عدد الذين قتلوا فيها من أهل قرطبة بلغ أكثر من عشرة ألفاً وخدمت دور الحي الثائر وأمر الحكم الاحياء منهم بترك البلاد في مدة أربع وعشرين ساعة فاضطروا إلى مغادرتها .

هكذا هدد العلماء والفقهاء في قرطبه الحكم الامسيوي وكادت نورتهم أن تزعزع أركانه وتفضي عليه . ولم يعد بعد ذلك العلماء والفقهاء إلى الثورة من جديد ، يد أن صوته لم يخمد أبداً وظلوا يذلون بآرائهم بشكل صريح أحياناً ويوجبون القد إلى الحكم من بين إيمانهم إلى ضرورة اتباع الطريق المستقيم .

ويظهر أن رجال الدين قد عادوا إلى سابق مكانتهم وشأنهم في زمن المنصور بن أبي عامر إذ أن هذا على الرغم من دكتاتوريته وسيطرته التامة على البلاد كان يحرص على كسب رضام وتأييدهم له ، لذلك عمداً إلى

احراق عشرات الالوف من الكتب القيمة التي تبحث في الفلسفة والمنطق وما وراء الطبيعة .. والتي كان يدعى رجال الدين انها مفسدة للإنسان ، يجب منها .

ان المنصور بسحب تلك الكتب كلها من مكتبات الامويين العاشرة ثم الایماز باحرارها علينا ليرضي الفقهاء ورجال الدين قد وجه ضربة شديدة الى الحركة الثقافية والعلمية في الاندلس ، لأنه لم يمض وقت طوبل على ذلك حتى عاد الناس يشترون بضرورة الرجوع الى كثیر من تلك الكتب لطالعها والاستفادة بها على معرفة الثقافات القديمة لشعوب المتحضرة الماضية .

هذا ولم يكن رجال الدين في الاندلس يتركون فرصة تمر الا ويحاولون الاستفادة منها لاعلاء مرکزهم ورفع مكانتهم فكانوا بتدخلهم ذلك في السياسة يحدثون أحياناً من الفوضى والاضطراب كثيراً ما كانوا يضعون من سلطه الحكومة المركزية .

الخطر المسيحي : دول اسبانيا الشمالية :

تمكن العرب من فتح بلاد اسبانيا بسلامها وغضبت لهم جميع عناصرها عدا شرذمة صغيرة من سكانها بقيت على الثورة وخللت الى المضائق الغربية في مقاطعات جليقية Galicia في أقصى الشمال يقودها الزعيم بلايو Pelayo . ولما عمدت الحكومة العربية الاسلامية الى ارسال جيش لاخضاع تلك الشرذمة الصغيرة الثائرة اعتمد افرادها في مغاربة متينة واقمة في سخرة معروفة بصخرة كوفادونجا ، فحاصرهم الجندي العربي اياماً طويلة حتى مات معظمهم من الجوع ولم يبق على ما تذكر الروايات اكثر من ثلاثين شخص منهم

ين رجل وامرأة . حينذاك رأى الجنود العرب انه لم يعد من خطر ينتظر من فئة قليلة كتلك الفئة وقلوا : ما عسى ثلثون رجلاً وامرأة يفعلون أمام القوات العربية وجحافلها ؟ ثم تركوه وعادوا .

ولقد اخطأ الجندي العربي آنذاك الحساب عندما فكروا أن تلك القلة من الثوار لم تعد تشكل خطراً على الحكم العربي ، إذ أن أولئك الثوار القلائل تمكنوا أن يضموا إليهم فيما بعد عدداً أكبر فشكروا بذلك نواة الدولة المسيحية الأولى التي بدأت تناوش الجيوش العربية وتحاول كسب الأرضي كلما منحت لها الفرصة بذلك كي تستعيد أراضيها السليمة .

هكذا تشكلت نواة مملكة ليون التي ستشاً فيما بعد من اتحاد مقاطعات جليقيا الغربية وكانتاريا الشرقية ، وبذلت حركة المقاومة النصرانية للحكم العربي .

وقد تشكلت مع الزمن كـما نعلم في شمال إسبانيا دول مسيحية أخرى هي دول أراجون وقشتالة ونافارا وكتالونيا واستورياس .. كانت تختلف أحجامها فيما بينها ثم لا تثبت أن تعود إلى الاتحاد لمواجهة الخطر العربي الإسلامي ومحاولة كسب بعض الأرضي الشمالي .

وقد رأينا في الحلقة الأولى من هذا الكتاب حين استمررتنا الموجز لتاريخ الدولة الاموية في الأندلس كيف أن أمراء وخلفاء بنى أمية كانوا يوجهون جل اهتمامهم إلى الفزو في الناحية الشمالية كي يؤمنوا حدود دولتهم في ذلك الاتجاه ويحولوا دون تقدم الدول النصرانية نحو الجنوب . ورأينا كذلك كيف أن العرب كانوا ينتصرون في معظم المعارك على الدول

الاسبانية الشالية وكيف أنهم كانوا يتفوقون عسكرياً على تلك الدول ، ولكن مع ذلك فان النصارى كانوا ينجحون في دفع حدود دولهم نحو الجنوب بين الحين والآخر . فما سر نجاحهم في ذلك يا ترى على الرغم من تفوق العرب العسكري .

ان سر نجاح نصارى الاسبان في كسب الأرضي واقطاعها من الدولة العربية الاسلامية يعود دون شك الى عوامل متعددة اهمها :

ـ أ - شجاعة المسيحيين في الشهاد وعنفهم في القتال . فقد كان هؤلاء يعيشون في مناطق جبلية قاسية عليهم حياة الشظف بينما لم تكنهم من نوال قسط كبير من العلم والثقافة ، فشلوا على قسط كبير من الفروسية والقوة وعلى نذر ضئيل من المعرفة والاطلاع ، فأفادهم ذلك في حروبهم ضد العرب ، تلك الحروب التي كانت تعتمد آنذاك على القوة الجسمية اكثر من اعتمادها على وسائل التدمير المختلفة القديمة الوجود آنذاك .

ـ ب - كثيراً ما كانت الدول النصرانية الاسبانية في الشهاد تجده فيما ينتها فتشكل ميداناً منيعاً أمام القوات العربية يمنعها من التقدم نحو الشهاد ويجعل اتصارها صعباً الا في عهد الحاج المنصور بن أبي عامر الذي تمكن من اخضاع اسبانيا كلها لحكمه من اقصى الجنوب الى اقصى الشمال .

ـ ج - تفرق العرب وعدم اتحادهم في مختلف المقاطعات واستبعاد ولاة المناطق الشالية احياناً بلوك الدول المسيحية مما كان يتبع

لهؤلاء فرصة التوسيع نحو الجنوب وكسب أراضٍ جديدة من تأييدهم
لامير دون آخر.

د - قلة السكان العرب في المناطق الشمالية وأقلهم من العناصر
البربرية التي كانت تهاجر بصورة دائمة - كما مر معنا - نحو الجنوب،
فتخلي تلك المناطق تقرباً من سكانها ويسهل على النصارى استعادتها والممل على
جعلها آهلاً بالسكان كي تستطيع الدفاع عن نفسها.

هـ - كان النصارى يحاولون دوماً احتلال الأراضي الحياتية
«La tierra de nadie» التي كانت تفصل في أغلب الأحيان بين
الدولة العربية في الجنوب والدول الإسبانية في الشمال مما لاحتكاك
بين الطرفين فيبحوث بذلك مساحات شاسعة من الأرض لا يهم العرب
باسترجاعها لأنها لم تكن تتبع اليهم في الأصل ، عاقلين عن مدى قيمة
ذلك وأهميته .

و - كان النصارى يدافعون عن بلاد يعلمون بأنها بلادهم وأخذت
 منهم ، بينما كان العرب يشعرون بأنهم كانوا محتلين للبلاد لم يكن لهم فيها
أصول من قبل . ولكن بعد أن مضت عليهم مدة في تلك البلاد أصبحوا
يشعرون بأنها ملكهم وأنهم أبناءها وصاروا يعتبرون أن حقهم فيها لم
يعد أقل من حق أهلي الأصليين بعد أن مكثوا فيها تلك الفترة الطويلة
من الزمن . هذا وقد وجد كثير من المؤرخين الذين اعترضوا على الفكرة القائلة
بان النصارى في الشهاب كانوا يقاتلون منذ البدء لاستعادة وطنهم المسلوب
داكرين أنهم في بادئ الأمر لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لكي يردوا
الخطر العربي عن حدود بلادهم ويؤمنون على أنفسهم من شر الغارات الدمرة
التي كالت تشنه القوات العربية عليهم .

وبالفعل لم يكن كره نصارى الشهاب مستحکماً للدرجة التي يمكن أن يتصورها البعض ضد المسلمين في الجنوب لأن فريقاً كبيراً من هؤلاء المسلمين كان من الإسبان ، ولأننا نرى في كثير من الأحيان جنوداً مرتزقة من النصارى يغادرون بلادهم وملكيتهم ويلتحقون بخدمة أمير عربي أو وال عربي غير شاعرين بذلك العاطفة الوطنية التي يتکلم عنها ويفيض في وصفها كثير من الكتاب الاجانب . بل أنا نرى أن القتال بين هذه الدول النصرانية الشمالية كان يحصل بصورة مستمرة ويرتكب خلاله كل أنواع الفظائع مما يدلنا على أن رغبة النصارى في طرد العرب نهائياً من أراضيهم واستعادتها سكamlها لم تتصج لهم إلا في حوالي القرن الحادي عشر الميلادي عندما بدأت الخلافة الاموية تميل الى النصف والانهيار .

هذه الموارد السالفة كلها على ما نعتقد هي الامور الأساسية التي مكنت النصارى من التوسيع نحو الجنوب على الرغم من قوة العرب . فكانت الدول الإسبانية الشمالية من أكبر الأخطار على الخلافة الاموية ومن أول الموارد التي عجلت في سقوطها .

الاخطرار الخارجية :

لقد رأينا خلال بحثنا المقتضب عن تاريخ الدولة الاموية في الأندلس كيف أن هذه الدولة كان لها أعداء خارجيون لا يتركون فرصة تمر دون أن يحاولوا التسلل منها والاعتداء على أراضيها بل والقضاء عليها اذا أمكنهم ذلك . وكان أول أولئك الاعداء الفرنجة في الشهاب والفاطميين في الجنوب والعباسيون في الشرق .

أما بالنسبة للفرنجية فقد حاول هؤلاء التدخل في شؤون الدولة الأموية منذ عهد عبدالرحمن الداخل إذ عبر شارليان وجيشه جبال اليرن وقوغلو في أراضي المسلمين يدعمهم حليفان لهم من الولاية العرب هما حاكماً برشلونة وسرقسطة ، إلا أن الحملة قد فشلت^(١) وعاد الفرنجية إلى بلادهم خائبين . ولكن مع ذلك لم يصلوا إلى بلادهم بسلامة إذ أن فرقة من الجنود العرب يساعدتهم جماعة من النصارى البشكنس هاجموا مؤخرة جيش شارليان بينما كان يعبر نهر رونسفال في جبال اليرن واتفوا تلك المؤخرة بما فيها القائد الشهور رولان فكانت تلك المعركة ضربة شديدة للجيش الفرنجي .

منذ تلك المعركة لم تهدأ الحروب تقريراً بين العرب والفرنجية الهم
إلا في فترات صلح قصيرة كان يعقدها الفريقان فيما بينهما للاستراحة من
عناء القتال . فوسمت الحرب في أيام هشام بن عبد الرحمن الداخل وكانت
في مصلحة العرب بينما كانت على عكس ذلك أيام الحكم بن هشام إذ
استطاعوا في عهد هذا أن يحتلوا ثغر برشلونة وأن يجعلوها نواة لدولة كاتالونيا .
وتجدد القتال في عهد عبد الرحمن الثاني دون أن تكون له نتيجة حاسمة وعاد
العرب إلى مهاجمة برشلونة زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن فاحتلوا عدداً
من حصونها ورموا الرعب في قلوب الفرنجية حتى إذا وصل الأمير عبد الله
إلى الحكم زرى ولادة الشهاب يأخذون على عاته قتال الفرنجية ومهاجمة
أراضيهم .

وهكذا نرى أن الخطأ الفرنسي كان يشكل خطراً حقيقياً بالنسبة

(١) راجع الكلام عن هذه المهمة في بحث عبد الرحمن الداخل في الحلقة الأولى.

للهذه الدولة العربية في الأندلس ولذلك لم يتورع هؤلاء الفرنجية عن الاتصال بالعباسيين في الشرق واقامة العلاقات الدبلوماسية معهم طالما أن المصالحة جمعت بين الفريقين وطالما أنها اتفقا على أن لهما عدو مشتركا يجب القضاء عليه وهو الدولة الأموية في الأندلس.

وفي مقابل ذلك زرى حكام الأندلس من العرب يعمدون الى
التحالف مع البيزنطيين وتبادل السفارات والمهدايا عمهم وتشكيل جهة واحدة
ضد عدوهما المشترك : العباسين في الشرق .

ان هذه الحالات التوالية التي كانت تضطر الدولة الأموية الى توجيهها لقتال الفرنجية والخروب الكثيرة التي كانت تخوضها ضد هم كفالتها الكبير من النفقات وشغلت قسماً كبيراً من وقتها، فكانت دون شك عاملاً من العوامل التي مساعدت على اضعافها والتعميل في سقوطها.

أما الخطر الفاطمي فقد تأثر من اعتناق الخلفاء الفاطميين للذهب الشيعي ورغبتهم في نشر ذلك حتى في أنحاء الأندلس . وكانت الدعوة الفاطمية دعوة قوية تستند إلى جيوش منظمه وقيادة بارعة وموارد مادية طائلة اخافت حكام الأندلس واهابت بهم إلى تجنبه إمكاناته لدفع ذلك الخطر الداهم ومنعه من تهديد سلامة دولهم . ويظهر أن خطر الفاطميين لم يتغافل ويطير تأثيره بوضوح إلا في أيام عبدالرحمن الناصر إذ أنه قبل ذلك لا نرى اهتماماً من جانب حكام الأندلس في رد الدعوة الفاطمية أو التحذف منها ، ولكن لما جاءت خلافة الناصر بدأ هذا يرسل الاسمطيل والجيوش إلى الساحل المراكبي فتحتل الاراضي وتقعد المعاهدات مع أمراء تلك البلاد وتتوسّط المعارك ضد الفاطميين حتى أرهبهم وجعلهم

يعدون عن فكرة اجتياز الضيق الى الأندلس فاكتفوا بالقيام بعض الغارات البحرية على مرفأ المريء الجنوبي ، رد عليها الناصر بغارات حائلة على شواطئ تونس . ولا شك أن الناصر لو تهاون في التصدي للدعوة الفاطمية ومهاجتها في مقر دارها لشكلت هذه الدعوة أكبر خطر على سلامة الخلافة الاموية في الأندلس .

وأما الخلاف بين الدولة العباسية في الشروق والدولة الاموية في الغرب فسيما به معروفة لا داعي ترددتها ولذلك ما أن وصل عبد الرحمن الداخل الى الأندلس واسس فيها الدولة الاموية حتى عبد الخليفة أبو جعفر المنصور الى الدس عليه والتآمر على دولته . وقد تكون من الاتفاق مع أحد الولاة الاندلسيين وهو العلاء بن مغيث اليحصي على أن يعلن الثورة على عبد الرحمن الداخل ويعده هو بالجيوش والمساعدة . هكذا حصل فعلاً إذ أن العلاء سار على رأس جيش ضخم يغطي الاستيلاء على عاصمة الدولة الاموية إلا أن عبد الرحمن الداخل اقيه في الطريق وغُرِّن من الانتصار عليه وأرسل رأسه ملفوفاً بالعلم الأسود شعار العباسيين الى المنصور الذي كان يؤدي فريضة الحج في مكة فلما رأه المنصور ارتقى لمنظره وعلم أنه لا قبل له بالقضاء على ذلك الاموي الفار فعدل على ما يظهر عن خطته وتخلص الامويون في الأندلس من ذلك الخطر الداهم .

هذه هي أهم العوامل البعيدة التي أدت الى سقوط الخلافة الاموية في الأندلس ، ولا شك أن هناك أسباباً ثانوية كثيرة أخرى يستطيع الانسان أن يستخلصها من خلال اطلاعه على تاريخ العرب في اسبانيا منذ احتلالهم لتلك البلاد حتى سقوط الدولة الاموية .

وأما الأسباب القريبة نهاية تلك الخلافة فلا داعي لبعدها إذ أن
القارئ سيمكن من استنتاجها ب مجرد اطلاعه على حوادث الفترة الواقعة
بين نهاية العاشرين سنة ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م ، ونهاية الخلافة سنة
٤٢٢ هـ = ١٠٣١ م . فلننتقل إذن إلى استعراض حوادث تلك الفترة
ونتائجها .

you do things for others that others have not
done for you. You are a good man, and I consider
it fortunate that you have not yet given up
your life's work, but that you have not yet
done it.

I am sorry to say that I have not
had time to go over your manuscript
as I would like to. I have, however,
read it through, and I think it is
a very good one. It is well written
and clearly expressed. I have
not had time to go into the
details of the manuscript, but I
will do so when I have more
time. I hope you will be
able to get it published soon.

I am sending you a copy of my
new book, "The Art of Writing Stories",
which I hope you will find useful.
I hope you will be able to get
it published soon.

الفَسْمُ الْيَمَانِيُّ

تاریخ الخلافة الاموية الاندلسية

من ٣٩٩ - ٤٢٢ هـ

م ١٠٣١ - ١٠٠٩

1860

Long Island Island

no name no name
name no name

الحلقة الأولى

سقوط آخر العاصرين

حجابة عبد الرحمن بن أبي عامر :

كانت آخر كلامتنا في القسم الأول من هذا الكتاب يتناول حجابة عبد الملك بن أبي عامر المغفر والاعمال التي قام بها والغزوات التي شنها ضد الدولة الأسبانية في الشمال . وقد رأينا كيف انه توفي بعد قضائه سبع سنوات فقط في الحكم فأخذ أخوه المطرف عبد الرحمن « شنجول »^(١) يستعد

(١) كانت يلغى عبد الرحمن بن أبي عامر بشنجول لكونه خير الملك باسمه « سانشوا جارسيس الثاني إيلاركا » Sancho Garcés II Abarca من جهة أمها ، إذ أنه هذا الملك الأسباني كان قد قدم إحدى كرياته للنصراني في آنئده من جهة أبيه ، زوجة له ، فشنجل هي تصغير لـ آنثوا . يؤرخ هذا كثيرون من المؤرخين العرب والاجانب مثل أن عذاري المراكي وأن الخطيب والويري وMenendez Pidal codera وPerez de urbel وغيرهم .

لأشغال منصب الحجابة مكانه . وما أن تمت مراسيم الدفن حتى محمد عبد الرحمن إلى تفريغ الأموال جرياً على العادة المتبعة آنذاك حين يموت أمير أو ملك ويأتي آخر مكانه . ثم توجه بعد ذلك إلى الزاهرة^(١) وجلس في مجلس أخيه المظفر فدخل إليه الناس على اختلاف طبقاتهم يهشونه بالمنصب الجديد . وكان يعد كلاماً منهم بالخير العميم والناصبة الرفيعة كي يكسب تأييدهم له منذ اللحظة الأولى .

وحين فرغ الناس من تهنيته غادر قصره بازاهرة وتوجه إلى قصر الخليفة « الزهراء » فاستأذن المตول بين يديه فاستقبله الخليفة وعزاه بفقد أخيه وقلده الحجابة رسمياً وخاتم عليه بعض الخاتم السلطانية . وبعد أن أقام لديه برهة من الزمن عاد إلى الزاهرة فدخل عليه الاعيان ثانية يداعونه بعد أن قلدته الخليفة منصب الحجابة رسمياً . وقد تلقب عبد الرحمن لحيته بالناصر ثم لقبه الخليفة فيما بعد « بالمؤمن » كاسترئ قصار الناس يدعونه الحاجب الأعلى المؤمن ناصر الدولة » .

لم يكن عبد الرحمن يتمتع بالصفات التي كان يتمتع بها أبوه وأخوه من قبله والتي تؤهله لأن يحكم حكماً سعيداً عادلاً مترناً . بل بالعكس من ذلك عرف منذ صغره بتبدل الذهن وقلة الذكاء ، وتصف حين تسلمه الحكم بالطيش وعدم الروية وتقدير العواقب فافتتح أمره بالخلاعة والمحانة فكان يخرج من منية إلى منية ومن منتهى إلى منتهى مع انجذابه والفنين

(١) الزاهرة هي المدينة التي أمر المصور محمد بن أبي عامر ببنائها لنفسه ولأولاده وعائلته واتباعه . أما الزهراء فهي المدينة الخليفة أو مجموعة القصور التي كان يسكن فيها الخليفة مع حرمه واتباعه واعوانه وحرسه ..

والمضحكين معاهرًا بالتهتك وشرب الخمر^(١) كأنه اتفق الاموال في غير وجهاً وارتكب كثيراً من اعمال الظلم فبسط يده على أملاك الناس وأخذ أموالهم ونسب اليهم باطيل من القول والفعل كي يتسرى له وضعهم في السجون حين يشاء فقلق الناس من حكمه وبدأوا يبغضونه ولم يمض على توليه الحجابة إلا القليل.

وكان مما زاد استياء القرطبيين من عبد الرحمن تقربه إلى أزيد من الخليفة هشام والاختلاط في الاختلاط به وملازمته. فان الحجاب السابقين قبله وحتى أبوه المنصور لم يكونوا يجرأون على اتخاذ الخليفة كصديق لهم محافظة منهم على هيبته ومكانته وحرصاً على عدم اختلاطه بآى كان، قال ابن عون الله: كان سلف عبد الرحمن يؤثرون تعظيم الخليفة مع البعد عنه واغباب لقائه فاعتذر بذلك الحال واستقامت السيرة^(٢).

إذن لما تولى عبد الرحمن الحجابة ، تهافت على مرضاة الخليفة هشام وأكثر التردد عليه والاختلاط به وحرص على ادخال السرور إلى نفسه فاعجب الخليفة بذلك وفضله على أخيه وايه وقربه إليه وجعله أخص شخص لديه . وتجرأ عبد الرحمن من جراء ذلك على أن يطلب إلى الخليفة أن يخرج مع نسائه وأفراد عائلته في زهرة برقة من قصر الخليفة في قرطبة إلى قصر عبد الرحمن بالراحلة لقضاء يومين هناك والترويح عن النفس، فاعجب الخليفة بالفكرة وأمر بأن تتم المطايا لركوبها إلى الراحلة كما أمر

(١) التويري : نهاية الارب ج ١ ص ٦٨ ، ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ج ٣ ص ٣٩ ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٨٤ .

(٢) ابن عون الله عن ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٤٠

الجند والفلان ان يستعدوا لاسير بين يديه في رحلته الصغيرة . وأصدر عبد الرحمن الاوامر اشرطته بان يخلوا الطريق الذي سيمر فيه الموكب الخليفي اخلاه تماما من المارة ففملوا ذلك . وزيادة في الحيطة ارتدى الخليفة « برنسا » كما تفعل جواريه لشلا يعرف منهن جريا على عادته في الاحتجاج عن الرعية .

ثم لما تمت الاستعدادات كافة ، دخل عبد الرحمن على الخليفة لاصطحابه الى الزاهرة فأنعم عليه الخليفة حينذاك بلقب المأمون علاوة على لقبه الاول ناصر الدولة - كارينا - وخطبه به مشافهه وأمره باخراج الامر عنه الى كافة الناس وانقاده الى أقطار الخلافة بالأندلس وشمال افريقيا . كما خلص عليه في ذلك المجلس خلما من خاصة كسوته ووهبه سيفا من كرام سبوفه وسار معه بعد ذلك في طريقه الى الزاهرة لقضاء بعض الوقت هناك مستريحما من مهام الخلافة وأمورها .

ما إن وصل الركب الى الزاهرة حتى طلب عبد الرحمن بن أبي عاصم من الخليفة ان يكتب له كتابا بآيات التسمية التي أنعم عليه بها منذ قليل ، فلبى هشام طلبه وكتب كتابا بذلك فأنقذه عبد الرحمن حالا مع كتاب من قبله الى الساكت جهور بن محمد (١) يأمره فيه باشاعة لقبه الجديد في كافة ارجاء المملكة .

(١) الساكت جهور بن محمد هو نفس أبي الحزم ابن جهور الذي سيصبح فيما بعد أبي سنة ٤٢٢ = ١٠٣١ مريئاً لدولة قرطبة بعد انهيار الخلافة الاموية . ويعنك من اجل الاطلاع على الدولة التي اسها العباودة في قرطبة الرجوع الى كتاب « جمهورية بنى جهور » الذي اصدرته في السنة الماضية ..

أما نص الكتاب الذي سطره الخليفة ، فقد أورده بعض المؤرخين وعلى
رأيه ابن عذاري المراكشي في بيان المغرب وهو كالتالي :

ال حاجب المأمون ناصر الدولة أبو المطرف حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم : أَدَمْ اللَّهُ حَفَظَكَ وَأَحْسَنَ عَلَى الصَّالِحِ عَوْنَاكَ
رَأَيْنَاكَ كَرِمَكَ اللَّهُ لَمَّا ظَهَرَ لَنَا مِنْ جَمِيلِ طَاعَتَكَ وَبَدَارَكَ إِلَى مَا يَأْرِمُكَ مِنْ
النَّاصِحةِ وَالْقِيَامِ بِأَعْبَادِ الْمُلْكَةِ عَلَى أَفْضَلِ الْطَّرِيقِ الْمُهَمَّودَةِ وَالْمَسَاعِيِّ الْمُشَكُورَةِ
وَتَسْمِيتِكَ فِي كِتَابِكَ وَتَحْمِيلِكَ بِالْمَأْمُونِ فِي مُخَاطِبِكَ زَائِدًا عَلَى اُولِّ
أَسْمَائِكَ مَظَاهِرَةً لَانْفَعَنَا عَلَيْكَ وَأَنْتَ أَهْلُ لَذَّاتِكَ وَمُسْتَحِقٌ بِهِ فَاعْتَمَلَ فِيهَا
يَنْفَذُ مِنَ الْكِتَبِ عَنْكَ وَالْيُكَ عَلَى عَنْوَانِ كِتَابِكَ هَذَا إِلَيْكَ نَسَأْلُ اللَّهَ عَوْنَانَا شَافِيَا
وَتَأْكِيدًا كَافِيَاً أَنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فاطلع الكاتب جبور على كتاب عبدالرحمن ونسخه رقة الخليفة
وامتثل حالاً لما أمر به وكتب بذلك إلى كافة الأقطار فاستغرب الناس
سرعة ارتقاء عبدالرحمن واتصال عرى المودة بينه وبين الخليفة قبل أن
يمضي عشرة أيام على تسلمه منصب الحجابة واعتبروا ذلك جهلاً وجرأةً
من عبدالرحمن كما انهم لم يرو فيه من المؤهلات وعلامة النجابة ما يستحق
به ذلك اللقب الخلافي الرفيع (١) .

(١) يقول ابن خلدون في تاريخه « العبر » ج ٧ من ١٤٨ بهذه المناسبة إن عبدالرحمن
بن أبي عامر التقي بالناصر لدين الله ، جرى على سن أبيه وأخيه في حجر الخليفة
هشام والاستبداد عليه والاستقلال بالملك دونه .

لُوِيُّ الْخَلِيفَةِ فِي قَصْرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي الزَّاهِرَةِ مَدَةً يَوْمَيْنِ ثُمَّ تَأْهَبُ
لِلْعُودَةِ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ ، فَأَخْلِيُّ الطَّرِيقَ مِنَ الْمَارَةِ كَالْمَادَةِ وَسَارَ الْمَوْكَبُ
مَتَجْهًا إِلَى قَصْرِ نَاصِحَّ فِي قَرْبَةِ يَتَقَدِّمُهُ الْمَاجِبُ عَبْدُ الرَّحْمَنُ وَقَدْ اشْتَدَ
زَهْوُهُ بِنَفْسِهِ وَفَرَحَهُ بِتَلْكُهُ الْزِيَارَةِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا الْخَلِيفَةُ عَلَيْهِ حَتَّى أَنَّهُ
اسْتَدْنَى نِسْبَهُ مِنَ الْخَلِيفَةِ بِالْخُوَولَةِ إِذَا كَانَ أَمَاهَا بِشَكْسَنْيَيْنِ ، فَقَدْرُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
أَنَّهَا قَرَابَةٌ يُسْتَطِيعُ أَنْ يَسْمُوَ بِهَا إِلَى مِيرَاثِ الْخَلِيفَةِ .

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ يَتَوَلِّ عَهْدَ الْخَلِيفَةِ :

فِي عَشِيهِ ذَلِكَ الْيَوْمِ خَرَجَ شَنْجُولُ إِلَى اصْحَابِهِ يَزْعُمُ أَنَّ الْخَلِيفَةَ
وَلَاهُ وَاخْتَارَهُ لِلْخَلِيفَةِ دُونَ بْنِ عَمِّهِ وَأَهْلِهِ — إِذَا مَا يَكُنُ لَهُ وَلَدٌ يُورِثُهُ
خَلِيفَهُ — فَتَلَقَّبُهُ مِنْهُ أَصْحَابُهُ وَخَدْمُهُ لَوْقَهُمْ فَطَارُوا بِهَا كُلُّ مَطَارٍ
وَغَبَطُوهُ بِهَا مُعْتَدِلِينَ بِأَنَّ الْخَلِيفَةَ سَلَةُ الْمَنَالِ وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ بَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
وَبَيْنَهَا سُوَى قَابِ قَوْسَيْنِ . وَنُشِرَ ذَلِكُ الْخَبَرُ بَيْنَ عَامَةِ النَّاسِ فَتَحِيرُوا مَا
يَسْمَعُونَ وَأَخْذُوا عَلَى هَشَامَ تَفْكِيرِهِ فِي تَوْلِيَةِ عَهْدِهِ إِلَى شَخْصٍ غَيْرِ كَفِ، وَلَا يَمْتَنِعُ
إِلَى السَّلَةِ الْأَمُوَّةِ بِأَيْةٍ صَلَةٍ .

وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي عَامِرٍ قَدْ لَمَحَ فَعْلًا إِلَى الْخَلِيفَةِ هَشَامَ بْنَ
يَعْلَيْهِ عَهْدَهُ بَعْدِهِ فَلَمْ يَظْهُرْ الْخَلِيفَةُ مَانِعًا وَوَعَدَهُ بِذَلِكَ لِضَعْفِهِ وَعَدْمِ تَجْرِيَةِ
عَلَى الرُّفْعَنِ خَوْفًا عَلَى حَيَاتِهِ إِذَا يُذَكَّرُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْقَاسِمَ « أَنَّهُ لَمَاعَدَ الْخَلِيفَةَ
هَشَامَ مِنْ نِزْهَتِهِ دُسَ إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنُ مِنْ خَوْفِهِ مِنْهُ وَعَرْفُهُ أَنَّهُ عَزَمَ عَلَى

الفتك به إن لم يوله عهده والخلافة من بعده » ، (١) فلما أظهر هشام موافقته توجه عبدالرحمن بعد أربعة أيام إلى زيارة الخليفة له في الزاهرة ، توجه بجيوشه وخدمه إلى قصر الخلافة في قرطبه لتوافقه على قصر الخلافة رسمياً (٢) . وكان قد دعا وجوه القوم في قرطبه للتواجد على قصر الخلافة وحضور تولية العهد رسمياً فلبى الناس الدعوة وغض القصر بالوجوه والوزراء والقواد . فلما التأم شملهم خرج إليهم الخليفة هشام وأمر بأن يقرأ بحضوره الكتاب الذي ولّ فيه عهده لعبدالرحمن بن أبي عامر . وكان هذا الكتاب من إنشاء كاتب الرسائل أبي حفص احمد بن برد ونصه ما يلي :

« هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله أطال الله بقائه إلى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة ، وأعطي به صفة

(١) إبراهيم بن الفاس عن ابن عذاري المراكشي : اليان المغرب ج ٣ ص ٣٩ . وقد ذكر النويري أيضاً في نهاية الارب ج ١ ص ٩٨ وابن الأثير في الكامل ج ٧ ص ٨٤ أن عبدالرحمن طلب من المؤيد أن يدعوه له ويوليه العهد من بعده وهدده بالقتل إن لم يفعل . أما ابن خلدون فيذكر هذه المناسبة في كتابه العبر ج ٧ ص ١٤٨ فيقول : « بأنه ثاب لعبدالرحمن رأي في الاستئثار بما يفي من رسوم الخلافة فطلب من هشام المؤيد أن يولي عهده » .

(٢) ذكر النويري في نهاية الارب ج ١ ص ٩٨ أن شجحول ركب من الزاهرة ومعه أهل الخدمة بسلامهم والوزر وقاضي الجماعة والنفقة والمدخل واصحاب الفرركا ووجوه الناس على طبقاتهم وسار إلى باب القصر بقرطبه وحضر المؤيد هشام . ويقول ابن خلدون في كتابه العبر ج ٨ ص ١٤٨ في هذه المناسبة أن عبدالرحمن أحضر لذلك الملا من أرباب الغوري وأهل الحل والمقد نكان يوماً مشهوداً .

يعينه بيعة نامة ، بعد أن أمعن النظر واطل الاستخاراة ، وأئمه ما جعل الله اليه من أمامة المسلمين ، وانقى حلول الاجل بما لا يؤمن وخف زرول القضاء بما لا يصرف وخشي أن هجوم مخنوم ذلك عليه وزل مقدوره به ولم يرفع هذه الامة علاماً تأوى اليه ان يكون بقاء الله مفترطاً فيها ، ساهياً عن أداء الحق اليها . ونظر عند ذلك طبقات الرجال من احياء قريش وغيرها من يستحق ان يسند الامر اليه ويقول في القيام به عليه بعد اطراح الموادة والتبرؤ من الهوى والتجري لاحق والتزلف الى الله جل جلاله بما يرضيه ، وان قطع الاواصر واسخط الاقرب عاماً بلا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح وموقتنا الا وسيلة اليه اركى من الدين الخالص ، فيجد أحداً هو أجدر أن يقلده الخلافة في فضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف موكيه . وعلو منصبه مع تقواه وعفافه وحزمه وثقافه من المؤمنون الغيب ، الناصح الجيد ، النازح عن كل عيب ، فاصر الدولة أبي الطرف عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر وفقه الله ، إذ كان امير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ونظر في شأنه واعتبره ، فرأى مسارعاً الى الخيرات . مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثرات ، وارتاً للمكرمات ، يجذب بطبيعته الى أرفع منازل الطاعة ويسمو بعيته الى أعلى درج النصيحة ، ومن كان المنصور اباً والمظفر أخيه ، فلا غرو ان يبلغ من سبل البرّ مداً وتحوي من خلال الخير ما حواه ، مع أن امير المؤمنين ابقاء الله لكتمة ما طالعه من مسكنون العلم ووعاه من مخزون الاثر امل أن يكون ولـي عـبـدـهـ القـحطـانـيـ الذي جاء فيه الامر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصا » فلما استولى عنده الاختيار وتقابلت فيه الآثار لم يجد عنه مذهب ولا الى غيره معرجاً ، خرج اليه من تدبير الامر في حياته ، وفوض اليه النظر في امور الخلافة بعد وفاته ، طائعاً راضياً

مجتهداً متخيراً غير محاب له ولا مائل بهواه اليه ولا شرك نصح الاسلام واهله فيه ، وجعل اليه الاختيار لهذه الامة بولايته عبده فيها ان اراد ذلك فيبقاء امير المؤمنين اعزه الله وبعده امضى امير المؤمنين اعزه الله هذا وانفذه واجراه وبذلك لم يشترط فيه مثوبة ولا خياراً واعطى على الوفاء بذلك في سره وجراه وقوله وفعله ، عبده الله وميشاقه وذمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وذمه الخلفاء الراشدين من آله وآله وذمه وذمه نفسه بأن لا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يتأنّل ، وأشهد على ذلك الله وملائكته وكفى بالله شيداً ، وأشهد من أوقع اسمه في هذا الكتاب وهو ابقاء الله جائز الامر ، ماضي القول والفعل بحضور من ولی عبده المؤمن ناصر الدولة ابي المطرف عبد الرحمن بن المنصور وفقه الله وقوله لما قلده والتزمه لما التزم وذاك في شهر ربيع الاول سنة تسعة وتسعين وثلاثمائة ، (١) .

وكان الكتاب على نسختين أول الشهود فيه قاضي الجاعة أحمد بن عبدالله بن ذكوان وبابيه من الوزراء اسماء تسعه وعشرين رجالاً منهم يليهم اسماء مائة وستة وثمانين رجالاً من طبقات أهل الخدمة ومن الحكماء والفقهاء وغيرهم .

(١) اورد نص هذا الكتاب عدد كبير من المؤرخين مع تغيير طفيف في بعض الكلمات بين مؤرخ وآخر دون أن يحصل اختلاف في جوهر المعنى . ومن أوائل الذين اثبتوه في تواريختهم ابن خدرون : العبر ج ٤ ص ١٤٨ والويري : نهاية الارب ج ١ ص ٦٨ وما بعدها وابن عذاري المراكشي : اليان المغرب ج ٣ ص ٤ وابن بام : النجاشية الفهم الاول ج ١ ص ٨٢ - ٨٦ والمغربي : نفع الطيب ج ١ ص ٤٠٠ - ٤٠٢ .

ولما تمت مراسيم مبايعته بولاية العهد غادر عبدالرحمن قصر الخلافة على رأس الجيوش والموظفين والوجهاء وتوجه إلى قصره بالزاهرة يختال فرحاً بما حصل عليه من العز والجاه . فلما استقر به مجلسه ، ادخل عليه كبار رجال المملكة حسب مراتبهم ، الروانيون من أقرباء هشام ثم وجهاء بطون قريش فالوزراء فالقواد فكبار أهل الخدمة فالخاصة من الأصحاب .. فأقاضوا في تهنئته والدعاء له بالتوفيق ودوام الملك ، وافتض هو بوعده بالخير والجاه السوود .

ويقول ابن عوت الله في هذه المناسبة : « بأن قوله عبدالرحمن لولاية العهد أعظم محنة عند الناس وأنهم كانوا يعزون بعضهم بسببيها وأن تهنئتهم له كانت ملقاً ونقطة لبغضهم له » .

على أي حال أمر عبدالرحمن أن تنفذ الكتب حالاً إلى جميع الأقطار في الأندراس والمدروه ^(١) يخبر أرثاقه إلى ولاية العهد وأن يدعو الخطباء له على المنابر بولاية العهد بعد الدعاء للخلفيه مع ذكر القابه كاملة غير منقوصة .

وقد هنا الشعراً عبدالرحمن بولاية العهد فنظموا في مدحه القصائد الطويلة وكانت من مختار ما قالوه آيات اي الملاء صاعد البغدادي :

قرأت كتاب الجود وحدك اولاً وأوضحت منه كل ما كان مشكلاً

(١) كانت تسمى « بالعدوة والمناطق الواقعة في الطرف الآخر من مضيق جبل طارق أي في شمال إفريقيا .

فاحسنت في الأقوام أن تفضلوا
أغراً معتملاً في التبادل مخولاً
عقاباً إذا ما أغلق الصيد حللاً

فَلَمَّا تَجَلَّ الْحَسْنُ مِنْهُ ابْسَطَهُ
أَمَا وَالَّذِي أَعْطَى الْخَلَافَةَ رَبِّهَا
لَقَدْ حَازَهَا مُرْسَخٌ عَلَيْهَا جَنَاحَهُ

أما أبو منصور زيادة الله الضي ، فقد قال في تلك المناسبة بدمبه :

ولى عهد براء الله من كرم
عزّاً شديداً بضرب السيف والقلم
وخصه بعلو القـد روالهم

نَخِيرُ اللَّهُ وَالسُّلْطَانَ لِلأَمْمَ
لَا يَعْدُمُ الْمَلَكُ مِنْهُ أَنْ يُشَيِّدَ لَهُ
إِخْتَارَهُ اللَّهُ الْإِسْلَامُ يَحْفَظُهُ

وقال ابا :

وأيضاً وجه الدين حتى اثيرقا
وغدا لها رأى الامام موقفاً
بولاية المؤمن عبداً موقتاً
مبليجاً ونبي التقى متألقاً
بابرا والتقوى فشاق الشرقا
اللات الله مودة وتشوقا

بولي عهد المسلمين سما التقى
الآن ابلغت الخلافة سؤلهمـا
عقد الامام لها فأثبتت عزهاـ
ملك ترى نور المدبي بحيفتهـ
زان النارب في ولادة عبدهـ
لو أن مكة تستطيم زيارةـ

وقال قاسم بن محمود المرواني :

لقد وفق الله الإمام مؤيدا
فقلدك العبد الذي مد عقده
شهدت بأن الله ولاك خير من
واذاك يا مأمون افضل منتقى
وهل ذخر الرحمن ذالملاك لامری؟

الا يولي العبد وفيت عزة
قلدة وابشر بالخلافة بهذه
فانت الذي جات به النذر التي
وانـتـ امـينـ اللهـ مـهـديـ يـعـربـ بنـ
لـكـ كانـ هـذـاـ الـامـرـ بـدـءـاـ وـفيـكـ

بـأـيـنـ وقتـ فيـ الزـمانـ وـاسـعـداـ
وـذـوقـ دـوـىـ الفـلـ الحـسـامـ الـبـنـداـ
اـتـيـ الاـثـرـ المـرـوىـ فـيـهاـ مـرـدـداـ
قـصـطـانـ فـيـهاـ طـبـتـ نـفـساـ وـمـحـداـ
يـكـونـ مـدـىـ مـسـتـأـنـفـ الدـهـرـ سـرـداـ

وقـالـ كـاتـبـ الرـسـائـلـ وـافـرـطـ فـيـ قـوـلـهـ ،ـ وـهـوـ مـوـلـيـ بـنـ مـرـوـانـ :

وـتـكـنـتـ اـرـجـاؤـهـ وـاسـتوـسـقاـ
قـدـ كـانـ اـصـبـحـ شـمـلـهـ مـتـفـرـقاـ
فـيـ الشـرـكـيـنـ اـذـاـ تـقـحـمـ فـيـقاـ
قـدـ حـاطـ أـمـةـ اـحـمـدـ مـنـهـ بـقاـ
صـعـبـ حـوـاشـيـهـ عـسـيرـ الـلـتـقـاـ
شـحـاـ عـلـيـهـ وـالـحـسـمـ الـاـلـصـقاـ
فـيـ عـبـدـ شـمـسـ لـالـخـلـافـةـ مـعـلـقاـ
لـاـ يـصـلـحـونـ لـانـ يـسـوـسـواـ جـرـدـقاـ
إـذـلـ يـزـلـ حـدـبـاـ عـلـيـهـ مـشـفـقاـ
وـابـوـ هـرـيـرـةـ قـلـ ذـلـكـ مـصـدـقاـ
خـبـرـ شـدـاـ لـالـخـاقـيـنـ مـعـلـقاـ
لـيـلـيـ الـامـورـ مـغـرـباـ وـمـشـرقـاـ

الـاـنـ عـادـ الـدـهـرـ عـضـاـ مـشـرقـاـ
وـغـدـاـ هـلـالـ الـحـقـ بـدـراـ بـعـدـماـ
بـوـيـ عـبـدـ الـسـلـيـنـ وـمـنـ شـدـاـ
فـالـلـهـ يـشـهـدـ الـمـؤـيدـ أـنـهـ
وـاحـلـهـمـ فـيـ باـذـخـ مـتـفـنـعـ
اـمـسـ يـقـشـ قـوـمـهـ وـعـشـيرـهـ
وـرـجـاـ بـاـنـ يـلـفـيـ اـذـاـ مـاـ فـقـشـواـ
فـرـآـهـ مـتـخـلـفـيـنـ عـنـ الـعـلـاـ
فـرـمـىـ إـلـىـ الـمـأـمـوـنـ اـمـرـ جـمـيعـهـ
قـلـواـ إـذـاـ ضـعـفـتـ قـرـيشـ اـخـرـتـ
وـاتـيـ عـنـ الـفـارـوقـ اـكـرـمـ اـسـوـةـ
لـوـ أـنـ فـيـكـمـ سـالـاـ قـدـمـتـهـ

وـاشـتـدـ غـرـورـ عـبـدـ الـرـحـمـنـ بـعـدـ ذـاكـ فـوـلـ اـبـهـ عـبـدـ الـعـزـيزـ خـطـلـةـ
الـحـجـاجـةـ وـلـقـيـهـ بـسـيفـ الدـوـلـةـ كـعـمـهـ الـظـفـرـ اـبـيـ عـامـرـ فـاصـبـحـ هـذـاـ الطـفـلـ
حـاجـيـاـ لـالـخـلـيـفـةـ هـشـامـ بـقـيـةـ مـدـةـ اـيـهـ فـكـانـ هـذـهـ الـخـادـمـةـ مـاـ زـادـ تـأـلـيـبـ النـاسـ خـدـ
شـنجـولـ وـدـفـعـهـ إـلـىـ التـأـمـرـ عـلـيـهـ .

تصرفات عبد الرحمن بن أبي عامر بعد ولادة العهد :

انهيا عبد الرحمن بعد حصوله على ولاية العهد في غيه وضلاله وارفقاء ملذاته وشهواته ، فجاد عن طريق الحق ونبي مصالح الشعب واصبح لا يعبأ بأمور الدولة . وقد أراد أن يجعل له شعبية بين الجند فمال إلى مصاحبهم وادناهم إليه ونادهم فتعلموا عليه وقل احترامهم له ، وكانت النفقات التي يصرفها في سبيل ملذاته تؤخر اقتصاديات الدولة وتنبعها من الازدهار وهو ذاذهب عن ذلك بشأنه .

وقد ذكر الرقيق في كتابه : « إن عبد الرحمن حين فرغ من عقد الخلافة لنفسه أقبل على طلب الملاذات وشرب الخمر والخروج للصيد مع أخوانه السوء وبلغ من فسقه وفجوره أن حمل بعض أصحابه على بعض بحضوره وبجلس شرابه وخلوته فكبوا عن قربه فيه » .^(١)

كان القرطبيون يتناقلون فيما بينهم تلك الاعمال ويحرقون الارم غيطاً من الحاجب ابن أبي عامر ويتهزرون الفرصة لقيام عليه .

كان مما زاد في غيظ رجال الملكة وذوي المئات من طبقات أهل الخدمة أن شنجول بعد أن ولّ عهد هشام ، أمرهم بأن يستبدلوا القلائل الطويلة المرقعة الملونة التي كانوا يضعونها على رؤوسهم بالعمايم ، وهدد من لا يطيع الأمر منهم بالعقوبة الصارمة . وانتظر موظفو القصر هؤلاء أن يصدعوا لامر ويتدرروا العائم باسرع وقت كي يتحاشوا غضب عبد الرحمن ونقمته ولكنهم كانوا في قراره انفسهم حاذدين ناقفين ،

(١) إبراهيم ابن الرقيق عن ابن عذاري المراكبي : البيان المغرب ج ٣ ص ٤٧ وابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٩٤ طبعة بيروت سنة ١٩٥٦ .

إذ أئمهم كانوا يشاهدون طبقات الرعية بتلك القلans فلما استبدلواها بالعمائم
بدوا في منظر هجين لخالقهم العادة . وقد حصل ذلك يوم الجمعة في ١٢ جمادي
الاولى من سنة ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م^(١) .

عبدالرحمن بن أبي عامر يسير للغزو :

على الرغم من الحالة السيئة التي وصلت إليها الخلافة في قرطبه أيام
عبدالرحمن ، فإن هذا كان يعتقد أن الدول المسيحية الشمالية في
أسبانيا يجب أن تظل خاضعة له وممتدة سلطانه كـ كان الامر أيام
أخيه المظفر وأبيه المنصور . وبلغه أن ملك قشتالة المسيحي قال : والله
لو أني نائم وأقبل عبد الرحمن بجيمع جيشه ما استيقظت له . فاغتناظ
لذلك أيا غيط ، وعزم على الغزو وخطاب جميع أنحاء المملكة يستنصرهم
للحرب .

هذا ما ذكره المؤرخ ابن عذاري المراكشي . أما ابن الخطيب
فقد ذكر هذه الجملة عن إسان عبد الرحمن نفسه إذ قال : وتحرك عبد الرحمن
إلى الغزو شاتية سنة ٣٩٩ هـ التي اجتث أمره . وكانت فتاة الأكبر
نصح له في ترك الغزو وخوفه من اضطراب الناس ، وبلغه عن بعض
الروائين نصيحة في محاولة رجل منهم القيام عليه ، واستجابة حلق من
الجنديه ، فأعرض عماد ذكرها استهان به ، وقال : « والله لو اجتمع بنو مروان
إلى مرقدي ، وأنا نائم ما أيقظوني » .

وأنا ارجح رواية ابن عذاري المراكشي التي تعزى هذه الجملة

(١) اتبث هذا التاريخ التوسي في نهاية الارب ج ١ ص ٧١

إلى ملك قشتالة الذي قصد بها تهدى عبد الرحمن بن أبي عامر وأظهاره
بظاهر الحاكم الضعيف.

على أي حال ألبى المرتقة في جميع أنحاء المملكة نداء عبد الرحمن
وأنخرطوا في جيشه لقتال النصارى ولكن عدد المتطوعين كان قليلاً
فدفع الحاجب السلاح إلى الجميع واستصعب معه ما يكفيه من المؤونة ثم
سار على رأس جيشه متوجهاً نحو طليطلة ليدخل منها إلى بلاد جليقية
فيغزوها ..

لم تكن مثفات السير قليلة إذ كانت الطرق موحلة مليئة بالآلام ،
والجند محملين بالعتاد والمؤن والبرد قارس يخترق العظام . ولا تستغرب أن
تكون الطبيعة كذلك آنذاك إذ أن الحملة حصلت في فصل الشتاء كما نستدل
من قول ابن عون الله « إن الجدود لم يتجمدوا مثلما في شواتي سلفه » (١) ومن
قول ابن الأثير الذي يذكر : « إن عبد الرحمن غزا شاتية وأوغل في بلاد
الجلالقة فلم يقدم ملوكها على لقاءه وتحصن منه في رؤوس الجبال ولم يقدر
عبد الرحمن على اباعه لزيادة الانهيار وكثرة الثلوج فاثخن في البلاد التي
وطئها وخرج موفوراً ، (٢) . كما أن التورري يسمى تلك الفزوة بقردة
الظلين (٣) . ويذكر المؤرخ الإسباني المعاصر للاب « خوستوبيريت دي
اوريل » أن الثلوج كان هو العدو الأول لعبد الرحمن بن أبي عامر في
غزوهاته تلك ، وأنه إذا كان سكان مملكة ليون قد رفضوا القتال مع

(١) ابن عون الله عن ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٦٥

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٨٤

(٣) التورري : نهاية الارب ج ١ ص ١٧

العرب فان الثلثع قد ناب عنهم في ذلك ، وأن عبد الرحمن لما رأى تذر متتابعة السير لسوء طرق المواصلات أمر بالعودة إلى قرطبة »^(١).

رغم ذلك كله ، فان ابن أبي عامر كان لا ينقطع عن الخلاعة والمحبون وارتكاب اعمال الفسق والفحوز . وقد حكى الرقيق^(٢) أنه كان معه في تلك الغزوة رجل من سفال أهل قرطبة يقال له ابن الرمان جعله صاحب شرطته وقربه إليه فكان اذا شرب يقول له : « ناد في الناس : يأمركم أمير المؤمنين بكذا وكذا » ، فینادي ابن الرمان . فيقول له شنجول : كيف ترى الناس ، هل انكر أحد شيئاً ؟ فيقول : لا . فيأمره أن يعيد النداء مراراً في مواضع كثيرة .. ولم يزل كذلك إلى أن بلغ طليطلة .

تقىد من هذا أن عبد الرحمن كان يطبع في الخلافة وأنه كان

يشعر بسرور عظيم حين كان يلقبه ابن الرمان بلقب أمير المؤمنين إما مناداته في الناس فلا يمترضون على ذلك ، ويحسب أن الجميع أصبح راغباً بخلافته مؤمناً بصلاحه لذلك المنصب .

وما أن دخل عبد الرحمن أرض جليقية في نفس السنة التي تولى فيها الحجابة أي سنة ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م حتى وافاه نباً من قرطبة يخبره بشارة شاب أموي اسمه محمد بن هشام بن عبد الجبار وباستيلانه على

(١) Justo Perez de Urbel : Historia del Condado de Castilla T II p. 817

(٢) ابن الرقيق عن ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٤٦ و ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ص ٩٧

قرطيه واغلاقه الابواب لئلا يسمح لابن ابي عامر بالدخول الى المدينة .
أمام هذا البناء الصاعق خارت قوى عبد الرحمن وحاله الامر وعجز عن
الاهتداء الى حل مناسب لذاك الموقف كما منزى فيما بعد ، فكان
تصيرفاته كلها خطأ غير صائبة أدت في النهاية الى ضياعه ونهاية حكم العامريين
على يديه .

ثورة محمد بن هشام وأسبابها :

هو ابن الوليد محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبد الرحمن الناصر
وهو الحادي عشر من ملوك بني أمية بالأندلس وقد كان له من
العمر حين قيامه بالثورة على عبد الرحمن بن أبي عامر ، ثلاث
وثلاثون سنة .

عرف عن محمد بن هشام أنه كان شجاعاً مقداماً جسوراً على كل بلية ، لم
يحصر أحد على القيام على آل عامر من الروائية سواه (١) .

ولكن ما هي الأسباب التي دعته الى الخروج والثورة على
عبد الرحمن ؟

لا شك أن هناك أسباباً متعددة لذاك او لها ان مهدأً هذا كان
 يريد الانتقام لقتل أخيه هشام بن عبدالجبار الذي حاول في سنة ٥٣٩هـ = ١٠٠٨ م أن يخلع الخليفة هشام بن الحكم المؤيد ويستولي على الخلافة
مكانه ، فلما بلغ ذلك المظفر عبد الملك بن أبي عامر أرسل إلى هشام

(١) اورد هذا الوصف عن محمد بن هشام التوربي : نهاية الارب ج ١ ص ٧٢ و ابن الخطيب : الحال المرموقة ص ٤٥ من المخطوط الموجود بالكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم ٤٨٩٨ و ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٩١

ابن عبد الجبار من قتله قبل أن يستحكم أمره ، ونقم محمد ابنه على العامريين نفحة عارمة منذ تلك المادمة وصار يرثب الفرصة السانحة لاقيام عليهم والانتقام منهم . ولم يستطع الظهور في عبد الملك طيبة هذا في نظر الشعب وأجتمع جنده وعلو مكانته ، فلم يزل يترصد الأثر حتى مات عبد الملك وولي أخوه عبد الرحمن شنجول فأعلن حينذاك محمد أمره ووضع يده على الحكم .

لم يكن محمد بن هشام في خلال المدة التي انقضت بين مقتل أبيه وقيامه بالثورة على عبدالرحمن ساكناً هادئاً بل كان له كثير من الدعاة والاعوان يحرضون الناس سراً على العامريين ويشعرون عليهم ويدركون من أعمالهم ما تشمئز منه النفوس . وقد استطاع دعاء محمد بن هشام أن يستجلبوا كثيراً من الناس إلى طرفه وأن ينجحوا في بث النفحة بين نفر من القرطبيين ضد آبي عامر . ولكن مع ذلك لم يكن يجرؤ هذا الرواقي على اعلان الثورة لأنه كان يعلم أن عدد اتباعه لا زال صغيراً وأن الوسائل القليلة التي لديه لا تمكنه من الاستيلاء على المدينة .

ويذكر التويري (١) أن من بين أنصار محمد بن هشام الذين شجعوا على الثورة رجالان هما : حسن بن حي الفقيه ومطرف بن ثعلبة . ويقول أن محمدأً كان يعيش قوماً من الصعاليك لهم اقدام على كل عظيمة ، فدس بعضهم إلى بعض واعطى كلاماً منهم من خمسة مثاقيل إلى عشرة وبل أكثر من ذلك فاجتمعوا لهم نحو أربعين رجلاً كما طاوعه على ذلك جماعة من الرواينين لخروج الامر عنهم إلى بني عامر .

(١) التويري : نهاية الارب ج ١ ض ٧٢

وحدث في ذلك الحين ما لم يكن بالانتظار وهو ان الدفأء ام المفتر عبد الملك بن أبي عامر اتهمت أخيه عبدالرحمن بقتله مسموماً وصارت تسعى للانتقام منه . وكان قد تزامى اليها ان سبب موت ابنها عبد الملك هو ان أخيه عبدالرحمن سمه في تقاحة قطعاً بسکین كان قد سُم أحد جانبيه فتناول أخيه ما يلي الجانب المسموم وأخذ هو ما يلي الجانب الصحيح فاكله بحضوره فاطمأن المفتر وأكل ما يده منها ثُمَّ (١) . وعلى الرغم من أن عبدالرحمن كان قد أبقى الدفأء في قصرها مع حرم أخيه عبد الملك معززة مكرمة لا ينقصها شيء عن أيام ابنها ، فإنها لم تستطع أن تصفو له وقررت أن تتقم لنفسها ولابنها . ورأت الدفأء ان أحسن طريقة تتبعها الوصول الى هدفها هو الاتصال بالروانين وتحريكهم ضد عبدالرحمن بن أبي عامر . ولم يكن الروانيون والامويون بحاجة الى من يحرضهم ضد العامريين إذ أنهم كانوا ناقفين على عبدالرحمن وصوله الى ولاية العهد (٢) عارفين بان الخلافة مستقلة من أيديهم حين يموت الخليفة هشام وربما افلت من أيديهم قبل ذلك ، هذاؤ قد كان عبدالرحمن قد وضع العيون والارصاد عليهم لراقبة حر كائهم وتصرفاتهم فخافوا منه وحدروه واتفقوا سرًا على العمل للايقاع به .

تجاه ذلك ما ان اتصلت الدفأء بهم حتى رأت مرتعًا خصباً لتحقيق غرضها وعرفت أنها ستبلغ هدفها عن طريقهم .

(١) ذكر مسألة تسميم عبدالرحمن لأخيه عبد الملك عدد جم من المؤرخين . وذكر هذه الطريقة بالذات ابن الأثير في الكامل ج ٨ ش ٨٤ .

(٢) يذكر ابن خلدون في كتابه العبر ج ٧ ش ١٤٩ بمناسبة حصول عبدالرحمن على ولاية العهد ان ذلك قد سبب نفقة الامويين والفرشين عليه فهذا امره وانفقوا على تحويل الامر جملة من المقرينة الى اليمنية فاجتمعوا لتأييده وعشت من بعض رجاليهم واجتمعوا أمرهم في غيبة من الحاجب الناصر ببلاد الجلالفة ...

أما كيفية انصالها بهم فقد كانت عن طريق الفتى الصقلي « بشر » . وقد كان هذا في باديء أمره من اشياخ المروانيين ثم انتقل إلى مشايخة العامريين ولكن كان لا زال يعرف بحبه لبني مروان فاتصلت به الدلائمة ودست إليه بعض المال وكفته بأن يتصل بمعرفة من أبناء الناصر فدعوههم ل القيام بالثورة على عبد الرحمن . وخلوته أن يعد منهم من يقبل القيام بالأمر بالمال الكثير والجاه العريض ، إذ أنها مستعدة أن تضحي بكل ما لديها في سبيل الأخذ بثأرها وثأر ابنها .

فاما اتصل بشر بالمروانيين وحدثهم في ذلك ارشدوه إلى محمد بن هشام وقلوا له بأنه ثائر جسور مقدام مخاطر (١) وأنه يسعى للأخذ بالتأثير من العامريين منذ مقتل أخيه متألماً لذاته بعض شرار الناس ومعداً لهم ليوم الواقعة .

وانحرف الخادم الصقلي إلى محمد بن هشام ونقل إليه حديث الدلائمة ووعده بالمال الذي يريد فقويت نفس محمد بن هشام بذلك ورأى في الدلائمة دعامة قوية تعينه على بلوغ هدفه .

هذا ولا يجب أن ننسى بأن محمد بن هشام كان يرمي أيضاً من وراء حركته إلى الوصول إلى الحكم والتربع على عرش الخلافة لاعتقاده بأنه أصلاح المروانيين لذاته .

قادت اجتماعت محمد بن هشام عناصر متعددة تشجعه كلها على

(١) قال ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ١٠٩ : ارشد المروانيون بشراً إلى فاتح من ذلك ينتهي في ذلك الوقت سرار جسور ، ثائر مخاطر ، خليع ، مدخل السقورة والفتاك ، لا بدري في أي واد يهلك . وهو المهدى هذا .

القيام بالثورة : نعمته على العامريين لقتلهم أئمه ورغبتهم في الأخذ بالثار ،
طمسموه الوصول إلى الخلافة واستسال كل شيء في سبيل ذلك ، تأييد
الذافاء أم عبد الملك بن أبي عامر له بنفوذهما وما لهما وكل ما تملك ،
تأييد الروانيين بجميع طبقاتهم له ضد عبد الرحمن بن أبي عامر
لنعمتهم على العامريين وخوفهم منهم والحقيقة دون تحويل الخلافة
إليهم .

فإذا أضفتنا إلى ذلك السمعة السيئة التي كان يوصف بها عبد الرحمن
لأنه ساه في الترف والملذات والمشق والشراب ولاهله شؤون الدولة وعدم
سعيه وراء المصلحة العامة ، والمصاريف الباهظة التي كانت تتفق على
الخلافات والأعياد وبجالس الشراب وشراء الجواري مما خفض المستوى
الاقتصادي في المدينة ، وجعل الشعب يعيش بصورة عامة من حكم العامريين
الدكتاتوري القاسي ، إذا أضفتنا كل هذا إلى الأسباب السابقة استطعنا
أن نكون فكراً عن أهم العوامل التي دفعت محمد بن هشام ل القيام بثورته والقضاء
على العامريين .

بعد العمل ونجاح الثورة :

منذ أن أسر "بشر المصيلي" بحديث الذافاء إلى محمد بن هشام ،
زاد هذا اتصاله بالروانيين في قربته ، داعياً إياهم إلى تأييده فاستجابة
اليه سريراً وجدوا في معونته وبايعوه سرًا . وكان على رأس الروانيين
المؤيدن له سليمان بن هشام الذي سيكون له شأن كبير فيما بعد .

وزاد محمد عدد دعاته في قربته وشجعهم على التجدد على عبد الرحمن
ونعنه باقبح الأوصاف والأعمال فلطفقاً يشنعون عليه ويذكرون

مساوية حتى كره الناس عبد الرحمن واله وأسرروا لهم الحقد وسموا
للقضاء عليهم .

وكان محمد بن هشام حين يريد الاجتماع باحد من انصاره يلتقي
به في أحواز قرطبه وكهوف جبلها بالسر والخلفية ويلقى اليه بتعاليمه فساعدته
ذلك التكتم على نجاح أمره . وقد بلغ به الاحتراس لنفسه أنه لم يكن
يلازم منزلًا واحدًا بل ينير منزله كل فترة من الزمن كي لا يستطيع اعداؤه
القبض عليه اذا أرادوا .

ولما رأى دعاء محمد بن هشام وعلى رأسهم صاعد بن عبد الوهاب
الحرار و محمد بن سعيد التاكري (١) وحسن بن حي الفقيه ومطرف بن
تلبه وغيرهم .. لما رأوا أنهم نجحوا في بث البغضاء لاعماريين بدأوا يتهدّون
عن قرب ظهور قائم جديد من ال مراون يقود الامة وينخلصها من الطغاة ويشيعون
الأحاديث عن نصره دون أن يذكروا أسمه الملا (٢) ويتكبّنون بهلاك

(١) ذكره بن حزم في « نقط المروض » من ٢٥ وابن البار في اعتاب الكتاب ورقة
٤ من المخطوط الموجود في الاسكوريال تحت رقم ١٧٣١ وابن بسام في
النخبة فقالوا عنه : انه من أقرى انصار محمد بن هشام وأنه أصبح فيما بعد رئيس
الوزراء في دولة عبدالعزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر حين أسس هذا لنفسه دولة
مستقلة في بلديه في شرق الاندلس بعد اغراض الدولة العamarية في قرطبه .

ويزيد ابن البار في الورقة ٢٧ في تفاصيل اخباره فيقول : كان محمد ابن سعيد
التاكري من أحسن الناس عبدالعزيز بن عبد الرحمن أمير بلديه ، ومتولي تدبير أموره
الآن مات . ونقل ابن البار عن ابن البار عن ابن بسام أنه قال : لما اقرضت
الدولة العamarية وانشققت عصاها وأدارت الفتنة المديدة رحاتها ، كانت أحد من مرق
من خدامها وأوى الى جبل عصمه من مائها ، فاستقر بلديه واميراها يومئذ مظفر

ومبارك صاحبه وكانت من عباد العاشرية ، فانتظم في سلكها وشاركتها في مراتب
ملوكنا إلى أن أجاها صوت المبايا وخلأ منها المكان ، قال : فاضي ملوكها وملك
من كات ب لهذا الانق الشريعي يعني الاندلس من ملك الطائفة إلى عبد العزيز وهو الملقب
بالمتصور فعمل أبو عامر في دولته وحل ونق يابعه ملوكه واستقل . وحكي
أن مجاهداً العاشر يكتب يوماً إلى المتصور عبد العزيز رقة لم يضمنها غير بيت
الخطيئة يقول :

دع المكارم لا ترحل بغيرها واقعد قاتك إن الطعام الكاسي

فما وردت على المتصور إقامته وقادته وقادت شرقياً . . . واستحضر إبا عامر
الناكرني فقال له : تكأك خط واسمح المراجعة عنه ، فعوذ وبسم الله وكتب
هذا البيت :

شتمت مواليها عباد نزارها شيم العيد شتيمة الاحرار

فلا المتصور ها كان فيه الحق إبا عامر بوزارته خال جا من ديناه .

(٢) أكثر الدعوات التي قامت في الإسلام ، كان يحرس مروجوها على عدم ذكر
الشخص المدعو له ثلاثة ينقسم الناس بين مؤيد ومخالف تماماً لعلاقتهم الشخصية بصاحب
الدعوة أو معلوماتهم عنه . وهذا ما فعلته الدعوة العباسية حين قيامها ، وهذا ما فعلته
الدعوة الفاطمية والدعوات الستانية عامة .

عبدالرحمن ويحضرون الناس على الخروج عن طاعته حتى اصبح الناس في شوق لظهور ذلك المرؤاني واستعدوا لنصرته . وبلغ الخبر مسامح حاكم المدينة آذاك فجده في البحث وبالغ في التقيب ولكن لم يتبن له شيء وهاجم دوراً كثيرة فلم يقف على أمر واضح .

ظهرت أول بادرة من بوادر الثورة حين اعتلى خطيب المسجد الجامع في قرطبه المنبر ليعظ الناس في أول جمعة بحدادي الأولى سنة ٣٩٩ هـ = فبراير ١٠٠٩ م ، إذ أنه لما وصل إلى مكان الدعاء عبد الرحمن بولاية العهد . انبرى فقي من القاطنين في قرطبه وصاح بأعلى صوته : « آتى هذا الناس يا شيخ السوء » فلم يلبث الناس أن قبضوا عليه وقادوه إلى السجن دون أن يكف عن الصياغ والتهديد . وقد وضع في السجن مقيداً وأخبر حاكم المدينة بأمره .

وكان عبد الرحمن بن أبي عامر قبل مسيره للغزو جعل النظر في الأموال وتدير البلد إلى أحمد بن حزم وعبد الله بن سلمه المعروف بابن الشرس ، كما عين حاكماً على المدينة عبد الله بن عمرو المعروف بابن عسقلانجه وهو أحد بنى عامر ، وكان شنجول يظن أن الأمور لن تتغير وإن دولته قد استحكم أمرها .

عندما أخبر حاكم المدينة ابن عسقلانجه بأمر الفتى القullan الذي صرخ في وجه الخطيب في الجامع ، أمر بصلبه حلاً . وأعد له جذع واجتمع عدد غير من الناس لمشاهدته ، وبلغ خبره حيذاك إلى الخليفة هشام وقال له خادمه الفتى الصقلي « جؤذر » بأنه مصاب بعقله فرق هشام حاله وطلب إلى حاكم المدينة أن يتمهل في قتلها حتى يصل الحاجب عبد الرحمن فكان ذلك .

استغرب الكثيرون من القرطبيين الذين لم يكونوا عالمين بما يدبر في الخفاء ، جرأة ذلك الشاب وتهوره ولم يستطيعوا ان يعلموا تصرفه ، إذ لم يكونوا قد شاهدوا أحداً يجاهر بعدائِه للسلطان بذلك الشكل العنيف . ولكن ذلك كان بهذه الشرارة التي انطلقت في قرطبة فاشتعلت ثورة لن تتطفىء في الحقيقة إلا بسقوط الخليفة الاموي على الرغم من فترات السلم القصيرة التي ستمر فيها قرطبه قبل أن تدخل سنة ٤٢٢ هـ ١٠٣١ م.

كثر خوض الناس بعد حادثة الفتى القطان في المسجد الجامع في أمر محمد بن هشام ، وعرف الجميع أسمه بعد أن كان دعاته قد أخفوه عن الناس كما ذكرت سابقاً ، ووصل الخبر إلى وزير عبد الرحمن بن أبي عامر فارتاعوا وأخذوا يستعدون لمحاجة الموقف .

في ذلك الوقت بالذات وصلت رسالة من عبد الرحمن إلى قرطبة يخبر فيها عن دخوله إلى أرض جليقية وبده توغله في دولة النصارى فاطمأن محمد بن هشام بعده وقد ربان موعد اعلان الثورة قد حان .

في يوم الثلاثاء ١٦ جمادي الآخرة ٣٩٩ هـ = ١٥ فبراير ١٠٠٩ م
جمع محمد بن هشام رجاله وأدى إليهم بتعمامته ثم طلب إلى ثلاثة من الأكفاء منهم أن يتسلحوا بسيوفهم ويدخلوا من باب القنطرة متفرقين حتى يصلوا تجاه باب القصر فيقفوا هناك كأنهم نظاره وأوصاهم بأن يكونوا مستعدين للهجوم متربقين للاشارة . وأرسل في الوقت ذاته يدعو الناس في مختلف الأحياء ل القيام ضد عبد الرحمن والانضمام إلى القائم الجديد الأموي .

وفي الوقت الذي حددته محمد لرجاله وهو ساعة قبل زوال

الشمس^(١) ، ركب بغلته وعبر القنطرة وحده حتى اتى الى باب الشكال ، ولا رأى كل شيء جاهزاً انتفى سيفه اشاره بدء المجموع فانقض اصحابه على حراس الباب الذين بقتوا هول المفاجأة ولم يستطيعوا المقاومه طويلاً فجروا من سلاحهم وقتل بعضهم وأخذ المهاجرون يتسلقون جدران القصر .

وأسرع في الوقت ذاته محمد بن هشام مع بعض رجاله الى صاحب المدينة عبدالله بن عمرو فوجدوه ثلا يسمع غناء وصيفتين من وصيفاته فقبضوا عليه وقد وادوه الى محمد بن هشام وهو يرتجف جزعاً فأمر هذا بضرب عنقه ورفع رأسه على رمح والطروف به في الأسواق . وترك جسده مطروحاً وسط الطريق نظرة الاقدام الى أن ترق تزيقاً ، وما أن رأت العامة رأس عبدالله حتى تداعوا الى الانضمام الى محمد من جميع احياء المدينة . وكان أكثرهم من المناذرين والجزارين والسفلة والغوغاء فقوى محمد بهم وذكر لهم سبب قيامه ودعوتهم وحرضهم على آل عامر واطعمهم في نهب مدينتهم فاستهواهم كلامه وتبعوه دون تردّ .

وأرسل محمد من كسر سجن العامة فانطلق جميع من كان فيه من المتصووص واصحاب الجرائم وسارعوا للانضمام الى مخلصهم كما تداعى للانفصال اليه ابناء عمه من احفاد عبد الرحمن الناصر واستنهضوا الناس لمعونة فلبوا دعوتهما واتجه الجميع الى القصر الخلافي للامتياز عليه .

حين وصولهم أمر الخليفة هشام باغلاق الابواب كما أمر خدمه

(١) ذكر ابن الخطيب في اعمال الاعلام ص ١١٠ ان اصحاب محمد الذين تآلفوا اليه كانوا اثني عشر شخصاً فيهم طرسوس الحبوسي وهو اشهر القوم ، عاملين على الكسرور الى الباب واظهار الامر .

الصقالة بشدید الحراسة ثم ارتقى الى سطیح القصر واشرف على العامة
بن مصحفین يحملهَا خادمان له الى من تحته من العامة بالسکون بيده ،
فاجلوه بان لا حاجة لهم به وأن الملك ليس من شأنه وأن محمدًا بن
هشام احق به منه . فلما سمع ذلك منهم انسحب الى داخل القصر وامر
خدمه الا يقاتلوا أحداً منهم ولا يرموا بهم ولا حجر عليهم حتى
يقضى الله قضاءه ودخل الى محرابه فبقي هناك الى أن دخل محمد بن
هشام القصر .

وكان محمد بن هشام في ذلك الموقف يوصي اتباعه خيراً في هشام بن
الحكم ولا يسكت عن ذكره والدعا له لاعتقاده بان لا ذنب له وأنه منلوب على
أمره من قبل العامريين .

أما جنود هشام فكانوا يعجبون من أمر مولاهم في عدم
المقاومة رغم أن بعضهم سروا بذلك ضمناً رغبة منهم في سقوط هشام
لأنهم كانوا حاذدين عليه اتفويض أمره للعامريين وطامعين في وصلة ابن
عمه محمد بن هشام فامسكونوا ايديهم عن القتال وتركوا المجال فيسجحا
للقائم الجديد .

وأمر محمد انصاره بكسر اقفال الابواب فتسارعوا للامر ولكنها
استعتصمت عليهم ، مما كان منهم إلا أن احضروا بعض السلام من سوق الخشائين
ووصلوها بالجبل وصعدوا بواسطتها إلى سقف القصر ثم تسللوا إلى داخله^(١) وببدأ
النهب منذ اللحظة الأولى التي وطأت أقدامهم فيها داخل القصر . وكان

(١) ذكر التوربي في نهاية الارب ج ١ ص ٧٣ ان محمدًا بن هشام وجاءه نقبوا القصر
من ناحية باب السباع ومن ناحية باب الجنان ولم يقدر حرس القصر على مقاومتهم .

حراس القصر لا يبدون إلا مقاومة ضئيلة شكالية وينهبون عن امكنتهم
كلما اقترب المهاجرون حتى وصل هؤلاء إلى خزانة الاسلحة فأخذوا منها ما يحتاجون
إليه وتابعوا هجومهم .

لما رأى الخليفة هشام بأن المهاجرين قد احتلوا القصر وانه لم يصله أي مدد من الزاهرة لنصرته خاف على نفسه وأهله فارسل الي محمد بن هشام يسألة الانسحاب من القصر واعداً إياه باقصاء الـ عامر عن الحكم وتقريب المروانيين اليه وجعله ولينا للمعبود . ولكن محمدأ لم يقنع بذلك ولم يرض إلا التحكم بالقصر والخلافة . واجتمع بالفتى الصقلي « فاتن » صاحب القصر فادلى اليه حدثاً ونصحه بأن يقنع هشاما بعدم قائد المقاومة والتعنت . وفعلاً رأى هشام أن المقاومة لا تجدي فامر خدمه بأن يفتحوا أبواب القصر ففعلوا ودخل محمد بن هشام قاعة العرش وجلس على كرسي الخلافة واصحابه يحفون به . وكان قد أقبل الليل حينذاك فاضي القصر بالشمع وامضى محمد بن هشام ليته تلك هناك يدبر أموره ويستعد لغده .

وكان أول ما فعله محمد بعد استيلائه على القصر أن أوقف النب
واستباحة حرم هشام وأخرج العامة منه وكفيم عن نقب اسواره وأنبه
وهدد من يخالف منهم ذلك بالعقوبة الشديدة فاطماعه الناس : وعـين
شرطه حالا ابن عمـه محمد بن المغيرة فاجلسه على بـاهـه ليمـنـع الدخـول
إليـه ، كـما عـين لـحـيـاتـهـ ابنـ عـمـ آخرـ لهـ هوـ عبدـ الجـبارـ بنـ المـغـيرـةـ ، وـجـمـلـ
عـلـىـ الـمـدـيـنـةـ أـحـدـ أـقـرـبـانـهـ أـمـيـةـ بـنـ اـسـحـاقـ . وـأـعـلـنـ بـاـنـهـ قـدـ وـلـىـ عـبـدـهـ مـنـ بـعـدـهـ
الـلـيـلـيـانـ بـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ النـاصـرـ فـرـضـيـ النـاسـ ذـلـكـ كـلـهـ وـسـرـواـ بـخـالـيقـهـمـ الـجـدـيدـ
أـنـ سـرـورـ .

المجوم على الزاهرة :

في عشية نفس اليوم الذي أُعلن فيه محمد بن هشام ثورته أي
عشية يوم الثلاثاء ١٦ جمادي الآخرة سنة ٣٩٩ = ١٥ فبراير ١٠٠٩ م
تعجل عدد غير من الناس بإشارة محمد بن هشام إلى مدينة الزاهرة
لاحتلالها . وانفذ معهم هذا عدداً من أصحابه لقيادتهم . وكان في الزاهرة
آنذاك جمع كبير من الناس منهم أبو عمرو بن حزم وعبد الله بن مسلمة
حاكم مدينة الزاهرة من قبل عبد الرحمن بن أبي عامر وابن أبي عبيدة
وابن جبور الوزير الذي يصبح فيما بعد رئيساً لدولة قرطبه بعد سقوط
الخلافة الاموية وجماعة من الفقهاء والوزراء والصفالة ونفر من الجندي
والخزان والكتاب ..

علم وزراء العاملين في الزاهرة بخبر المجوم فعمد حاكماً إلى
تحصين أبوابها وأسوارها ، وجمع ما لديه من الجنود فكان عددهم حوالي
سبعيناً جندي فأمرهم بـ الاستعداد الشام لصد أي هجوم يقع على المدينة .

ووصل المهاجمون إلى الزاهرة فاحاطوا بها من كل جوانبها واخذوا
يحاولون الدخول إليها . ولكن الفتى الصفلي « نظيف » خرج مع زميله
« نصر المظفري » على رأس عدد من النبلاء وهجموا على الثائرين هجنة
قوية جعلت هؤلاء يتراجعون عن أسوار المدينة . ولا شك أنه كان
باستطاعة جنود الزاهرة اثناء ذلك المجوم قتل عدد كبير من الثائرين
ولكنهم اكتفوا بـ ابعادهم بعض الشيء وأمسكوا عن الفتاك بهم تقديرًا منهم
وشفقة عليهم . وضرب الليل رواه بين الجماعتين فهدأت الحالة وقضى
الناس طوال الليل حول مدينة الزاهرة ينتظرون طلوع الصباح ليعاودوا
هجومهم عليها .

خلع هشام نفسه وبيعة محمد بن هشام :

لما تم الامر لمحمد أرسل الفتى الصقلي الخمي فاتن الى هشام المؤيد يوثنه على جهه لال عامر وايشاره لهم على اهل بيته الروانين وتصييره ولاية العهد الى عبدالرحمن بن أبي السفيه واخراجه الامر من عترة رسول الله ، ويعرفه بأن الناس قد تيقنوا من عجزه ومن عدم صلاحه للخلافة ويدعوه الى خلع نفسه حالا .

ما ات بلغ هشام المؤيد رسالة محمد الناصر حتى سارع بجوابه ويتذر له ويقر بعجزه ويبارد بالتخلص عن الخلافة له مما ادخل السرور الى نفس محمد بن هشام وأخذ ذلك بعد العدة لحظة مبايعته في صباح اليوم التالي .

وقد ذكر النويري (١) بهذه المناسبة أن الخليفة هشاما هو الذي عرض على محمد التنازل له عن الخلافة إذ يقول : « لما صار محمد داخل القصر أرسل اليه المؤيد هشام يقول له : تؤمنني على نفسك وانخلع لك من الامر ؟ ؟ فقال : سبحان الله اتراني انماقت في هذا الامر لاقتل أهل بيتي ، وانماقت غضبا له ولنفسه وببي عمي فان خلع نفسه طائعاً قبل ذلك وليس له عندي إلا ما يحب » .

على أي حال ما يهمنا هو أن هشاما قبل التنازل عن الخلافة في نفس الليلة التي قالت فيها الثورة . ولذلك لم يغمض جفن محمد في تلك الليلة إذ أرسل فاستحضر في نفس الليلة وجهاه الناس وكبار الوظيفين والفقهاء في قرهطه ليحضروا تنازل هشام عن الخلافة ويبايعوه مكانه .

(١) النويري : نهاية الارب ج ١ ص ٧٣

ويذكر ابن عذاري المراكشي أن محمدًا شعر في تلك الليلة
بجوع شديد فأمر باحضار طعام له فأحضر له ما أراد من مطابخ الخليفة
المؤيد بالله فأكل مع خواص بي أمية . وأحضرت له كذلك في نفس
الليلة هدية من المؤيد بالله هي عبارة عن خلع فاخرة ارتدى بعضها حالاً
وفرق الآخر على اتباعه وخاصته . ثم جلس بعد ذلك للبيعة فسارع
إليه الشايخ من أهل بيته وأبناء عممه وأقاربه فصادقوه معتبرين له
بالخلافة . وكانت قد حضر إلى القصر عدد غير من أرسل محمد في
طلبهم وبینهم كثير من الوزراء والقضاة والفقهاء فاجتمعوا بين يدي محمد
وأخبرهم باستيلائه على الامر وتنازل هشام عن الخلافة له . وأراد
بعض أن يتأكّد من خلع هشام نفسه فدخل إليه أبو عمر هشام بالخلع
واعترف بعيابته لحمد وقرأ : « قل لا إله إلا الله تؤتي الملك من
تشاء ». فدعاه أحد وخرج مع صاحبه هشام فأخبروا الناس بذلك وأعلنوا
خلع هشام في نفس تلك الليلة .

ولما أصبح الصباح تهافت الناس على ابن عبدالجبار لي Baiyahu ويتباوا
أنفسهم في ديوان الجندي فقبضوا العطا و لم يبق أحد دون أن يثبت نفسه
حتى الزهاد والعباد وائمة المساجد والفقهاء والعلماء والتجار الاغنياء ،
ففرق عليهم محمد في تلك الناسبة بعض الاموال التي كانت عنده فرضوا بذلك
واعلنوا ولاهم التام له .

نكوار المصحوم على الزاهرة واحتلالها و هدمها :

بعد انت بويع محمد بن هشام بالخلافة صمم على احتلال الزاهرة
للقضاء على آخر مقاومة للعاصرين فيها ووضع يده على النفاث والاموال
المهزونة هناك . وكنا قد رأينا أن بعض العامة كانوا قد هاجموا الزاهرة

بعد احتلالهم لقصر الخليفة في قرطبة دون أن ينجحوا في ذلك بسبب دفاع جنودها . ففي صباح تلك الليلة أي يوم الاربعاء ١٧ جمادي الآخرة سنة ٣٩٩ هـ = ١٦ فبراير ١٠٠٩ م خاطب محمد بن هشام الناس وحضوره على احتلال الزاهرة واعظام السلاح ووعدهم بالكافارات وعيين على رأسهم حاجه عبدالجبار بن المغيرة .

وكان عدد المهاجرين في هذه المرة كبيراً جداً من أصحاب هشام وأتباعه واقربائه ومن اجتمع اليه من العوام وأهل البوادي والاطراف : وقد حملوا معهم رئيس عبد الله بن عمرو بن أبي عامر صاحب قرطبة على رأس رمح لارهاب اعدائهم به ولما بلغوا الزاهرة وقتت بعض التناوشات بينهم وبين الدافعين عن المدينة ، ولكن هؤلاء لم يظهروا في الحقيقة شجاعة أو اخلاصاً في قتالهم بل كان دفاعهم انقاذ المظاهر وخيانة لاولئك فضلاهم العاريين . وكان هذا القصر يعرف بالجاجية وتسكن فيه أمه الدلفاء التي كانت لها الفضل الكبير في قيام الثورة والتي أعانت محمد بن هشام على إعلانها وشجعه على أمره . كما كان يسكن معها في نفس القصر حفيدها ولد المفلق وهو لا يزال صغير السن حينذاك . ولم يرع المهاجمون حرمة للدلفاء فاحتلوا القصر ونهبوا ما وصلت اليه أيديهم واخرجوا عنه أم المفلق ، واستولوا على امتتها وغنموا من محتويات القصر ما لا يقدر بثمن .

لما رأى ذلك سكان الزاهرة ومن فيها من الوزراء والصفالة ، فت في عضدهم وأرسلوا إلى محمد بن هشام يعرضون عليه استسلامه مقابل اعطاء الامان لهم ، ففعل هذا وأرسل إليهم اماناً مكتوباً يخط بده فاستسلموا باجمعهم وملك عبدالجبار بن المغيرة المدينة حالاً . (١)

(١) يقول التورري في نهاية الارب ج ١ ص ٧٤ ان محمد بن هشام سار الى اهل الزاهرة بعد طالبه الامان فوبغيتهم ثم عفا عنهم .

وانتشر الناس في أنحاء المدينة ينهون ما وقعت عليه إدھهم في خزان الكسوة وما وجدوه من الفراش والامتنعة والعلیب والخلية والذخائر، حتى أتھم اقليعوا الأبواب والمرمر والخشب .. وحاول ابن المنيرة واصحابه ردعهم عن ذلك فلم يفلحوا تماما إلا في عشية اليوم التالي إذ تعب الناس حينذاك من الغوصي وانسجوا مثقلين بما عندهم ، فأمر الحاچب عبدالجبار بنقل ما بقي في المدينة إلى قصر الخلافة في قرطبة . ويقال إن الذي وصل إلى يدي محمد بن هشام من أموال الزاهرة يقدر بخمس ألف ألف وخمسة ألف دینار عدا عن ألف الف وخمسة ألف دینار من الذهب وعدا عن الخواتي المليئة بالورق والتي وجدت مدفونة في باطن الأرض ^(١) .

واستولى محمد بن هشام على نساء العاملين ، ولكنه اطلق الحرائر منهن واصطفى الاماء فاحتفظ هو بأكثرهن ووھب الاخريات إلى وزرائه واصحابه . وأما الدلفاء وحفيدتها ابن المنظر فقد أمر بالمحافظة على مسلماتها وادن لها في زرول دار لها في قرطبة ونقل ما بقي من متعاعها إليها . كما ترك لها أملاكها وحرمة التصرف فيها فعانت مطامنة واستطاع حفيدتها الصغير أن يستفيد من تلك الأموال في المستقبل ^(٢) .

(١) ابن عذاري المراكبي : البيان المغرب ج ٣ ص ٦١ وابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ١١١ . أما التورري فقد ذكر في نهاية الارب ج ١ ص ٧٤ ارقاماً تختلف عن تلك التي أوردها صاحب البيان المغرب إذ قال : إن الذي وصل إلى محمد بن هشام من الزاهرة في ثلاثة أيام ألف ألف وخمسمائة ألف دینار ومن الدرامون الأندلسي الف ومائة ألف ووجد بعد ذلك حوالي فيها مائتي ألف دینار .

(٢) يقال بأن الدلفاء منذ حررت محمد بن هشام على التوررة عملت على التوررة قبل معظم أمواهها ومتاعها إلى مكان أمن حساباً لليوم الذي تهاجم فيه مدينة الزاهرة فسكن ذات من بعد تفكيرها .

ولما فرغ محمد بن هشام من تحويل ما كان في الزهراء ، أمر بالطلاق النار فيها ودهمها وحط أسوارها وذلك في ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ = فبراير ١٠٠٩ م . فلبي الناس نداءه ، واسرعوا إلى تخريبها وطمس معالمها . فما لبثت أن أصبحت قفراً يلقى كأن لم ياك فيها مدينة سابقة مع أنها كانت من أعظم بلاد الإسلام وأجملها .

ويقول ابن عذاري الراكشي في هذه المناسبة عنها : « أنها أصبحت يلقياً كأن لم تكن بالإسلام وأبدلت « المدمرة » من زاهر اسمها وزاياتها سعودها وقاربتها نحوها . وما علم الناس مدينة بالandalus بل بلاد الإسلام كلها كانت أعظم بركة في الجباد والمال منها وأبهج عزة وشدة مملكة واكثر جيوشاً وحاشية واتم سعادة وأطيب بقعة من هذه المدينة الزاهرة حتى اذن الله في خرابها في الوقت المحدود للأمر المعدود (١) .

كما يقول المفرى بهذه المناسبة : « خرجت الزاهرة ومضت كالامس الدابر ، وخلت منها الدسوت اللوكيّة والعساكر واستولى التهب على ما فيها من العدة والذخائر والسلاح وتلاشي امرها فلم يرج لفسادها صلاح ، وصارت فاغاً صفصفاً وأبدلت يالى الترح عن أيام الفرح والصفا » (٢) .

بعد أن تم الامر بحمد بن هشام في قرطبة ، خطب له على النصارى في الجامع وقطع خطبة هشام وشنجول وقرىء بعد صلاة الجمعة كتاب بلعنة عبد الرحمن بن أبي عامر وذكر مساوئه . وقرىء كتاب آخر من محمد بإسقاط بعض الضرائب القديمة وال الحديثة وصل إلى محمد بالناس يوم الجمعة

(١) ابن عذاري الراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٦٤

(٢) المفرى ؟ فتح الطيب ج ٢ ص ١٢٢

في ٢٥ جمادي الآخرة سنة ٣٩٩ هـ = ٢٤ فبراير ١٠٠٩ م فدعا لنفسه وتنقب بالهدى ، كاً قريءً بعد زواله كتاب على المنبر بالتفير لقتل شنجول ووصل أهل الاقاليم من أقصى الاندلس بكلام عذتهم وأسلحتهم وولي محمد جنوده ، قواداً وهم بين طبيب وحائط وجزار وسراج وخرج معهم فنزلوا في مكان في ظاهر قرطبة يدعى بفحص السرادق وأمر أهل النواحي بالنزول حول سرادقه .

و قبل أن أصل إلى الكلام عن نهاية عبد الرحمن بن أبي عامر رأيت أن أثبت هنا بعض الروايات التي وردت في الكتب التاريخية العربية القديمة عن التنبؤ بخراب الزاهرة . فإنه مما قيل في هذه المناسبة أن النصوص بن أبي عامر كان يرى في منامه أن الله تعالى طلع على قصر الزاهرة . فسأل عن ذلك ابن الهمداني فأخبره بخرابها وتلا قوله تعالى : فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صفقا . قيل فكان النصوص متذكراً بهذه الرؤيا ضاقت خلقه أيام حتى لا يستطيع الطعام .

وذكر أيضاً أن أحد وزراء النصوص كان يرى في منامه يهودياً يمشي في أزقة الزاهرة بخرقه على عنقه وهو ينادي : خروبشن ، خروبشن فسأل أحد « المعتبرين » عن ذلك فأخبره باقتراب خرابها .

ويروي أحمد بن حزم أن النصوص كان يقول : وبها لك يا زاهرة الحسن ، لقد حسن مرآتك وعقب رذاك وراق منظرك وفاق مخبرك وطاب تربك وعدب شربك فيا ليت شعرى من المريد الذي يهدنك ويجهن جسمك ويمدنك . قال فاستمعتما ذلك منه وسألته عن ذلك أبو عمرو ابن حمير واستنكره عليه فقال له : كأنك لم تسمع بهذا يا أبو عمرو ؟ هو عندك وعند سلفك من أصحابك الحكم ، لكنك تتجاهل ، نعم سيظهر

عليها عدوها فيهمها ويلقي حجارة في هذا النهر^(١).

وقد ذكر ابن حذير ما يأتي : قال كنت قاعداً يوماً مع المنصور إذ طلع ابنه عبد الرحمن وهو يومئذ ابن سبع سنين خارجاً إلى الكتاب فلما وقعت عينه عليه قل لي : تأمل من طلع علينا والذي يكون خراب دولتنا على يديه . هو عبد الرحمن بن محمد وأنا أخشى أن يكون هذا لكتنه من النفس بنزلة لا يلحقه معها مكروه وأراه كأنه بعينه وأن قضى الله شيئاً كونه^(٢).

ويذكر أخيراً بأن الفقيه « القبرى » المحكوم بالتفوي من قبس المنصور اجتاز يوماً مع بعض الصحابة بالزاهرة وعبد الرحمن بن أبي عامر في غزاته فنظر في الزاهرة فقال : يا دار ، فيهك من كل دار ، جعل

(١) هذا هو النسخ المزعوم الذي أورده نقا عن أحد بن حزم ، وابن عذاري المراكشي في البيان المغرب ج ٣ ص ٦٥ ، بينما يورد الفرينسياً آخر من المعني فيقول ؟ حسني عن المنصور أنه كان في قصره بالزاهرة ، فتأمل حماه ، ونظر إلى مسامعه المطردة وانсты لاطيارة المفردة ، وملأ عينيه من الذي حمواه من حسن وجال والفت في الزاهرة من بين الشلال ، فانحدرت دموعه وتوجه وقال : وبها لك يا زاهرة ، فليت شعرى من الحنان الذي يكون خرابك على يديه عن قرب ؟ فقال له بعض حاسنه ؟ ما هذا الكلام الذي ما سمعناه من مولانا قط ؟ وما هذا الفكر الرديء الذي لا يليق بمنه شغل البال به ؟ فقال ؟ والله لنزون ما ذات ، وكأني بمحالس الزاهرة قد محب ، وبرسمها قد غربت ، وبيانها قد هدمت وتحيت بغزانتها قد نهيت ، وبساحتها قد اضرمت ببار الفتنة والغيث ، قال الحاكي ؟ فلم يكن إلا أن توفي المنصور وتولى المنظر ولم تطال مدنه ، فقام بالأمر أخوه عبد الرحمن المقرب بشحوب ، فقام عليه المهدى والمأمة ، وكانت منهم عليه وعلى قومه الطامة ، واقررت دولة الظاهر ، ولم يسبق منهم أمر . (نفع الطيب ج ٢ ص ١٢١)

(٢) ابن حذير عن ابن عذاري المراكشي ؛ البيان المغرب ج ٣ ص ٦٥

الله منك في كل دار . فكان من عجيب الصدف أن أحيطت دعوته قبل أن يضي عليها شهر واحد .

حال عبد الرحمن بن أبي عامر ، مقتله ، وانفراط الدولة العامورية :

هدمت الزاهرة ، وظهر محمد بن هشام على قرطبة ، وعبد الرحمن في شروته غير عالم بما حصل لسرعة تطور الحوادث وبعد المسافة بينه وبين العاصمه . وكنا قد ذكرنا المشقات التي لاقاها الجنود في تلك الشاتية ولكن مع ذلك فإن عبد الرحمن لم يكن يرتد عن فسقه وفجوره وبطانته . وكان لقب ولایة العبد الذي يقتطع بمحاطته به لأنّه يصور له قرب وصوله إلى الخلافة بل أنه تجعل الأمور كارأينا وكان يأمر صاحب شرطته أن يلقيه أثناء مناداته في الناس « بأمير المؤمنين » .

كان قد مضى عدة أيام على دخول عبد الرحمن أرض العدو من ناحية طليطلة حين آتاه رسول من قرطبة يخبره بثورة ابن عبد الجبار ، وهدم الزاهرة . فاسقط في يده واعتراه الجنود وتبدل تفكيره واستولت عليه حالة من الجزع الشديد وأمر جنوده بالاتجاه إلى قلعة رياح Calatrava التي تقع في طريق العودة إلى قرطبة . ولدى وصوله إلى هذا المكان أمر بضرب المسرك هناك فكان ذلك . وكان أول ما فعله شنجول بعد وصوله إلى قلعة رياح أنه تبرأ من ولایة العبد واقتصر على الحجاجة وأعلن بأنه يترك اختيار ولی العبد من جديد للخلفية هشام . وكتب بتنزيله إلى طليطلة وإلى أهل الشفور وطلب منهم التهنة لنصرة الخليفة المظلوم هشام . ثم أخذ عبد الرحمن لحينه يتصل بالجندي وأمرائهم ويطلب إليهم مبايعته على حرب قرطبة ونصر الخليفة المظلوم هشام بن الحكم ويعدهم

بالمواال والمناصب والكافات ويكتب لهم سكوكا بذلك ، فاجابه بعضهم الى طلبه
مكرهين إذ انهم كانوا حاذدين عليه ضمدا ويتمون زواله (١) .

وحدث أن عبد الرحمن نادى اليه زعيم البربرة من قبيلة زفاته
وهو محمد بن يعلي الزفاري وطلب اليه أن يقسم على نصره وعدم خذلانه .
وكان واسطة الكلام بيته وبين عبد الرحمن أحد اتباع هذا الاخير واسمه
« ابن الحداد » (٢) . إذ ان ابن ابي عامر كان ثلا لا يستطيع التكلم
بوضوح . فقال ابن الحداد للزفاري : اتحلف لولي العهد ايده الله اذك تنصره ولا
تنهذه ؟ فاجابه : ان له علينا بيعة لا زالت في اعتناقنا ما بالنا نكررها
الآن . فان كانت البيعة لا تنفع الا بتجديد الاعياد فانا ارى بأن هذه
مسألة لا تنتهي . فقال له صاحب عبد الرحمن : لا بد أن تحلف ولا
تفارق الجماعة فحلف ابن يعلي بيته مكرهها ، وما أن خرج حتى لقي
ابن عم له اسمه « نكساس بن سيد الناس » (٣) وجماعة من وجوه زفاته
فعدوا الى خندق قريب وتشاوروا بالامر فيما بينهم وقرروا عدم القتال مع
عبد الرحمن وأسلامه امدوه .

ويذكر ابراهيم بن القاسم عن لسان محمد بن يعلي الزفاري بأنه
قال (٤) : لقد بلغني بأن القاضي ابا العباس ابن ذكوان يتبرأ من عبد الرحمن

(١) يذكر النويري في نهاية الارب ج ١ ص ٧٤ « ان شجاع عزم على استجلاب الناس
لنفسه فامتنعوا وقالوا قد حلتنا مرة ولا تحلف اخري فعلم انهم خاذلوه » .

(٢) هكذا ورد اسمه في البيان المغرب ج ٣ ص ٦٦

(٣) هكذا ورد اسمه في نفس المصدر السابق ج ٣ ص ٦٧

(٤) ابراهيم بن القاسم عن ابن عذاري المراكشي ؛ البيان المغرب ج ٣ ص ٦٦

وبعتبره من الفاسقين ويكره أمره ويستعظم ما يدعوه إليه الناس من قتال جماعة المسلمين بقرطبة لاشفاؤه على من فيها من المذرار والمال والصالحين الذين لا ذنب لهم ، وكان يلح بذلك لميدار حن بين الحين والآخر دون أن يلتفت هذا إلى رأيه أو يغيره أهتماماً .

قال الزفافي : فاردت أن اتعرف إلى رأي القاضي ابن ذكوان فعملت على الاختلاء به فبدأتني وقال لي : ما عندك في هذا الأمر العظيم الذي دهاناً ؟ فقلت له : لست أجيئك إلا بعد أن تقسم لي بالكتمان وتخبرني برأيك . فاقسم وابدي لي رأيه الذي كان مطابقاً لما كنت قد سمعت . فقلت له حينذاك : لست والله أقاتل عنه أنا ولا أحد من زناه البتة . رأيته قد تهلل لهذا وقويت نفسه وقال لي : قد بلغني ذلك وهو الرأي .

ثم يقول ابن يعلي الزفافي أيضاً ما يأتي : دعاني عبد الرحمن في بعض موافقه هذه وقد اشتد الأمر عليه وبأن خذلان الجنده له ، فدنوت منه بعد أن يسرت مسيفي بسل بعضه على أنه أن أرادي بسوء بذات به . مما كان منه إلا أن سلمني كتاباً فيه تقليدي خطة الوزارة مع الخصم وقال لي : انت ترى ما نحن فيه . فاصدقني عن نفسك وقومك فلا رأى لكذوب . فقلت له نعم ، إياك أن تفتر فليس والله يقاتل عنك أحد من زناه فشق عليه ذلك وقال لي : ما الدليل على قولك ؟ فقلت له : إن تأمر الجيش بالسير فتعلم من يتبعك ومن يتخلف عنك . فقال : صدقت (١) .

وقيل أن أحد الفرسان الذين كانوا يرافقون جيش عبدالرحمن في غزواته

(١) التويري ؛ نهاية الارب ج ١ ص ٧٥ وابن عذاري المراكبي ؛ البيان المغرب ج ٣ ص ٦٨ .

واسم عَكَشَهُ بْنُ فَاعِصٍ حَلَفَ بِالظَّلَاقِ إِلَى يَقَاتَلِ مَعَ شَمْجُولَ وَوَصَفَهُ
بِكُونِهِ زَنْدِيقًا مُتَلَعِّبًا وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ وَأَنَّ افْعَالَهُ تَدْلِي عَلَى
اعْتِقادِهِ . وَأَوْرَدَ بِرْهَانًا عَلَى ذَلِكَ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنَ سَمِعَ مُؤْذِنًا يَنْدَدِي « حَيْ عَلَى
الصَّلَاةِ » فَقَالَ : « لَوْ قُلْتَ : حَيْ عَلَى الْكَاسِ لَكَانَ خَيْرًا لكَ »^(١)

عَلَى أَيِّ حَالٍ يَحْبُّ أَنْ تَعْلَمَ بِأَنَّ الْبَرَابِرَةَ الَّذِينَ كَانُوا يَرْاقِفُونَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ
وَمُعْظَلَ جَنُودَهُ وَقَوَادَهُ ، كَانُوا قَدْ تَرَكُوا أَهْلَهُمْ وَعِيَالَهُمْ فِي قَرْطَبَةِ فَكَانُوا
يُرَوَّنُ الْمَجْوَمُ عَلَيْهَا نُوعًا مِنَ الْجُنُونِ لَأَنَّهُمْ يَسْلُمُونَ بِذَلِكَ عَيَالَهُمْ إِلَى أَعْدَائِهِمْ
الَّذِينَ لَنْ يَتَأْخِرُوا عَنِ الْفَتْكِ بِهِمْ اِنْتِقامًا مِنْ مَهَاجِمِهِمْ . هَذَا عَدَائُهُمْ أَنَّهُمْ
سَمُعوا بِأَنَّ أَهْلَ قَرْطَبَةِ بِأَجْمِيعِهِمْ يَؤْبِدُونَ الْقَاتِلَ الْجَدِيدَ وَيَنْصُرُونَهُ . وَأَنَّ مُحَمَّدًا
بْنَ هَشَّامَ قَدْ اسْتَوَى عَلَى أَمْوَالِ الزَّاهِرَةِ وَاحْتَوَى عَلَيْهَا مَا اطْعَمُهُمْ بِنَوَالِ
نَصِيبِهِمْ فِي حَالٍ غَدَرُهُمْ بِعَبْدَ الرَّحْمَنِ ، فَإِذَا اضْفَنَا إِلَى ذَلِكَ كُلَّهُ اخْلَاقُ
عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَانْفَاسُهُ فِي الْأَهْوَى وَالْفَجُورِ وَقَلْمَةُ ذَكَائِهِ وَارَادَتِهِ ، عَلِمْنَا
لَمَّا افْضَلَ مُعْظَلَ الْجَنْدِ عَنِ الْقَتَالِ مَعَهُ وَقَرَرُوا عَدَمَ نَصْرَتِهِ فِي الْمَجْوَمِ
عَلَى قَرْطَبَةِ .

بَعْدَ أَنْ مَكَثَ عَبْدَ الرَّحْمَنَ عَدَةُ أَيَّامٍ فِي قَلْعَةِ رِبَاحٍ أَمْرَ بِالسِّيرِ إِلَى
مَنْزِلِ هَافِي ، فَوَصَلَ الْمَكَانَ فِي آخِرِ جَمَادِي الثَّانِيَةِ سَنَةِ ٣٩٩هـ = ٢٨ فِي
فِيَرَاءِ ١٠٠٩م وَأَمْرَ بِالْمُبِيتِ هُنَاكَ . فِي تَلَكَ الْلَّيْلَةِ ذَاتِهَا أَخْذَ الْجَنُودُ الْعَرَبُ
وَقَوَادُهُمْ يَرْجِلُونَ عَنْهُ إِلَى قَرْطَبَةِ^(٢) ، فَكَانَ مِنْ وَجْهِ الْبَرَابِرَةِ الَّذِينَ عَادُوا

(١) التَّوْرِي : نَهَايَةُ الْأَرْبَابِ ج ١ ص ٧٦ وَابْنُ عَذَارِيِّ الْمَرْكَشِي ، الْيَانُ الْمَغْرِبُ ج ٣ ص ٦٨

(٢) ذَكَرَ افْضَالُ الْجَنْدِ وَالْبَرَابِرَةِ عَنِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَامِرِ التَّوْرِيِّ نَهَايَةُ الْأَرْبَابِ ج ١ ص ٧٥ وَالْمَقْرِي ، تَفْحِيْتُ الْطَّيْبِ ج ٢ ص ٨٤ وَابْنُ خَلْدُونَ ، كِتَابُ الْعِرَبِ ج ٧ ص ١٥ وَابْنُ عَذَارِيِّ الْمَرْكَشِي ، الْيَانُ الْمَغْرِبُ ج ٣ ص ٦٩

معاشره زاوي بن مناد الصنهاجي وأبو زيد بن دوفاس اليفرني
 وعبدالرحمن بن عطاف اليفرني وأبو نور بن قره اليفرني وأبو الفتوح بن
 ناصر وزيري بن عرابه المطماطي وحباسه بن ماكس بن وزيري الصنهاجي
 مع جماعته وأخوانه ومحمد بن يعلي المغراوي .. ورغم ما كان يــذهــلــهــ
 عبدالرحمن من الوعود ورغم ما كان يــتــنــجــحــهــ من زيادة الرتب والمرتب ، فــاـنــهــ لمــ
 يستطــعــ أــنــ يــوــقــفــ تــيــارــ فــرــارــ الجــنــدــ منــ المــســكــرــ . وــتــوــالــىــ النــاســ يــتــبعــ بعضــهــ
 بــعــضــاـn فيــ الــيــوــمــيــنــ التــالــيــنــ ، فــكــانــ مــنــهــمــ القــاضــيــ أبوــ العــبــاســ وــابــنــ ذــكــواـn
 وــخــرــزــوــنــ بــنــ مــخــرــزــ وــنــصــرــ بــنــ أــحــمــدــ وــوــجــوــهــ الصــقــالــةــ الــعــامــرــيــيــيــنــ وــوــجــوــهــ
 الــأــنــدــلــســيــيــنــ وــحــتــىــ الصــقــلــيــيــ وــاــشــعــ مــوــلــىــ أــيــهــ الــمــنــســوــرــ وــالــذــيــ كــانــ يــحــكــمــ فــيــ
 مــدــيــنــةــ ســلــمــ Medinaceli كانــ أــســرــعــ النــاســ إــلــىــ الــغــدــرــ بــهــ . وــهــكــذــاـ بــقــىــ شــنــجــولــ
 مــعــ نــفــرــ يــســيرــ مــنــ غــلــامــهــ الصــقــالــةــ وــحــرــمــهــ وــحــشــمــ .

رغم كلــ مــاــ تــقــدــمــ ، فــاـn عبدالرحمن كانــ مــصــمــمــاـn عــلــ التــوــجــهــ إــلــىــ
 قــرــطــبــةــ . وــلــاـ شــكــ أــنــ هــذــاـ خــطــاـ فيــ الرــأــيــ مــنــ قــبــلــهــ إــذــ لــمــ يــكــنــ لــهــ أــمــلــ
 فــيــ النــصــرــ عــلــ يــدــ حــفــنــةــ مــنــ الــجــنــوــدــ وــخــاصــةــ تــجــاهــ مــدــيــنــةـ~ـ كــفــرــطــبــةـ~ـ .
 وــلــكــنــ كــانــ يــأــمــلــ أــنــ يــنــقــســمــ أــهــلــ الــعــاصــمــةـ~ـ عــلــ أــنــفــسـ~ـهــ حــيــنـ~ـ وــصــوــلـ~ـهــ أــمـ~ـامـ~ـ
 الــمــدــيــنــةـ~ـ وــاـn يــكــوــنـ~ـ بــيــنـ~ـهــ عــدـ~ـدـ~ـ مــنـ~ـ اــنــصـ~ـارـ~ـ يــسـ~ـلـ~ـوـ~ـنـ~ـ عــلـ~ـيـ~ـهـ~ـ الدـ~ـخـ~ـولـ~ـ إــلـ~ـيـ~ـهـ~ـ
 وــيــســاعــدــوــنـ~ـهـ~ـ عــلـ~ـىـ~ـالــقــضــاءـ~ـ عــلـ~ـىـ~ـمــحــمــدـ~ـ بـ~ـنـ~ـ هـ~ـشـ~ـامـ~ـ . وــلـ~ـمـ~ـ يـ~ـكـ~ـنـ~ـ يـ~ـعـ~ـلـ~ـمـ~ـ بـ~ـأـ~ـنـ~ـ الــقــرــطــبــيــنـ~ـ
 كــانـ~ـاـn يـ~ـتـ~ـفـ~ـلـ~ـوـ~ـنـ~ـ حــيــنـ~ـذـ~ـاكـ~ـ وــسـ~ـطـ~ـ أـ~ـعـ~ـيـ~ـادـ~ـ رـ~ـائـ~ـعـ~ـةـ~ـ بـ~ـخـ~ـلـ~ـافـ~ـةـ~ـ إــبـ~ـنـ~ـ عـ~ـبـ~ـدـ~ـ الــجـ~ـيـ~ـارـ~ـ وـ~ـاـn هـ~ـيـ~ـارـ~ـ
 الــدــوــلــةـ~ـ الــعـ~ـامـ~ـرـ~ـيـ~ـةـ~ـ .

كانــ مــنـ~ـ بـ~ـقـ~ـىـ~ـ أـ~ـيـ~ـضاـn فيــ صــجــبةـ~ـ عـ~ـبـ~ـدـ~ـ الرـ~ـحـ~ـمـ~ـ الــكـ~ـوـ~ـنـ~ـ جـ~ـارـ~ـيـ~ـاـn جـ~ـوـ~ـثـ~ـ
 أمــيرـ~ـ كـ~ـارـ~ـيـ~ـونـ~ـ Carrion Gareia Gomey . وــمــعــهــ نــفــرـ~ـ بـ~ـسـ~ـيـ~ـطـ~ـ مـ~ـنـ~ـ النـ~ـصـ~ـارـ~ـيـ~ـ .
 وــكـ~ـانـ~ـ المؤــرــخـ~ـونـ~ـ الــمـ~ـرـ~ـبـ~ـ الــقـ~ـدـ~ـمـ~ـ يـ~ـدـ~ـعـ~ـوـ~ـنـ~ـ هـ~ـذـ~ـاـn الــأـ~ـمـ~ـيـ~ـرـ~ـ بـ~ـاـn «ــغـ~ـومـ~ـسـ~ـ»ــ ، وـ~ـلـ~ـمـ~ـ

يشأ هذا الامير المسيحي الذي رافق عبدالرحمن حين عودته من غزوه، أن يتركه في ساعة شدته وصمم على البقاء معه . ويقول التويري أن القوسن بن غومس كان مع شنجول يريد قربته معاقداً له مستعيناً به على من يتأنثه القامة (١) . لكنه لما رأى انتصاف الحند عن عبدالرحمن وسمع بتأييد أهل قربطة لحمد بن هشام أراد أن ينصحه في الامر فخلا به وقال له : « أرى احوالك متقطعة وأمورك مدرة وجندك مخالفين لك ، فأخبرني عن هذا الرجل الذي بقربته أنت أشرف أم هو ؟ قال : بل هو . قال : الناس أميل إليك أم إليه : ما أرام إلا إليه أميل . فقال هذا دليل ردئ . قال شنجول : فما الرأي عندك ؟ قال : الرأي عندي أن ترحل وأرحل معك باصحابي الليلة فإن شئت قصدنا واضحاً فكنا معه يداً واحدة وأن شئت انجينا انجها آخر حتى ينجلي الموقف وترى كل الأمور وجوهها .

ولكن عبدالرحمن الع بضرورة الذهاب إلى قربطة وذكر له تأميه بوجود انصار له فيها ، فصححه الكوت جومت بأن يترك الغلن جانبها ويتيقن مما سيقبل عليه ويميز اصدقائه من اعدائه ولكن دون فائدة فقال له رغم ذلك : أنا معك على كراهة لرأيك وعلم بخطبك فإن عشت عشت

(١) التويري : نهاية الارب ج ١ ص ٧٥ ، ابن عذاري المراكشي : اليات المغرب ج ٤ ص ٦٩

(٢) يظهر أن الكوت جارياً جومت وعبدالرحمن بن أبي عامر لم يكونا يملمان بعيانه واضح وكذا لا يزال يأملان المساعدة منه

معك وإن متٌ متٌ معك ، (١) .

وساروا فعلاً متوجهين إلى منزل ارملاط Gjuadamellata حيث كان يملك عبدالرحمن قصراً هناك فاودع فيه نساء اللواتي كان يصحبته في غزوهاته تلك وبلغ عددهن سبعون جارية (٢) ثم ودعهن وخرج فلم يجد على باب القصر أحداً من الحراس أو الجنود عدا الكوتن جومث الذي قبل المسير معه . وقد عاد هذا إلى نصيته بالموعدة قبل فوات الاوائل فلما شنحول وقال : قد بعثت القاضي في طلب الامان . ثم لما هبط الليل عدل الاثنين إلى دير من الأديرة القرية يعرف لدى المؤرخين القدماء بدير شوس (٣) ويعرف باللاتينية باسم Coenolriem Armilatense وعلى الطريق التي تصل قرطبة بطليطلة ، فاكلا فيه بعض الشيء ثم باشا ليتها في الدير نفسه . وكان ذلك في ليلة الجمعة ٤ رجب سنة ٥٣٩هـ = ٣ مارس ١٠٠٩ م .
وبلغ خبره محمد ، فكلف حاجه باستصحابه مائتي فارس والذهاب

(١) هنا هو النص الذي أورده عن محاورة عبدالرحمن مع الكوت ، المؤرخ ابن عذاري المراكشي في البيان المغرب ج ٢ ص ٧٠ أما التويري فيورد تماماً بنفس المعنى إذ يقول : لما رأى ابن غومس اضطراب حال شيخول وأشار عليه أن يرحل معه إلى بلده وبكونا بدأ واحدة .. فأقى ذلك وقال لا بد من الاشراف على قرطبة فاني ارجو اني اذا طلعت عليها اختلف كلامة محمد .. ويعثرون الى سلطاني ويحبون ظهوري فقال له القوم من خذ باليمين ودع الطني امرك والله عجل وخذلك عليك لا لك . فقال لا بد من السير إلى قرطبة فقال معاك على كراهية لرأيك وعلم بخطبك (نهاية الارب ج ١ ص ٧٥)

(٢) ذكر هذا العدد ابن عذاري المراكشي في البيان المغرب ج ٣ ص ٧٠ التويري في نهاية الارب ج ١ ص ٧٥

(٣) ذكر هنا الاسم التويري : نهاية الارب ج ١ ص ٧٥

(٤) ذكر الاسم بهذا الشكل . Elevi-Provençal : Hist.de l'Esy. mus
T.H p.282

للقبض على شنجول ، فارسل الحاجب ابن ذري مولى الحكم الكندي بسبقه
ويبدأ في التفتيش عنه . وما لبث هذا أن اهتدى إلى مخبئه في الدبر وسأل
عنه هناك فأخبروه بأنه وصل في الأليل منكراناً جائماً وأنه طاب طعاماً فاعطاه
قطعة من الخبز ودجاجة مشوية فاكلا .

وفي الصباح الباكر ، عندما استفاق عبد الرحمن من نومه ورأى ابن
ذرى ومن معه قال لهم : ما لكم علي من سبيل ، أنا في طاعة المبدى ،
فاستنزلوه من الدبر ومعه ابن عمومه ومن معهما ثم القوا القبض على نسائه بعد
ذلك وبعثوا بهن إلى قرطبة . ولحق الحاجب بابن ذري قبل العصر من يوم
الجمعة ٣٩٩ هـ رجب سنة ١٠٠٩ م فلما اشرف عليهم نزل
عبد الرحمن قبل الأرض بين يديه مراراً ، فقيل له : قبل حافر دابته
ففعل ، وقبل رجليه يده . والكونت جوهر لم ينطع بحرف ولم يظهر
جزعا ولا استكانة . وأشار الحاجب إلى بعض أصحابه بانتزاع قلنسوة
شنجول عن رأسه فانزعـت ، ثم حمل على غير فرسه وسار الجميع نحو
قرطبة . فلما غربت الشمس عدلوا إلى أحد الامصار فتوضاوا وصلوا ثم
لما فرغوا من ذلك أشار الحاجب بتكتيف ابن أبي عامر لأن الخليفة
الجديد محمد بن هشام أمر لا يحمل إليه إلا مكتوف اليدين . فقال
لهم شنجول حينذاك : ابن إمانتكم ؟ فاجابه أحد حراسه عمر بن أحمد لا
يبد من تكتيفك . وعطفت يداه عطفاً شديداً فقال : نفسوا عن يديه
يدي لاستريح ساعة ، فنفسوا عن يديه فاخرج من خفه سكيناً
كالبرق (١) ولكن أحد حراسه قبض على يده ولها لفأ شديداً حتى سقطت

(١) ذكر حدثة السكين هذه التويري : نهاية الارب ٢١ ص ٧٦ وابن عذاري المراكشي
اليان المغرب ج ٣ ص ٧٣ دون أن يذكر أي من الاثنين ما هو الهدف الذي كان يرمي
إليه شنجول من اخراج السكين . أما لبني بروفسال فقد ذكر أن غرض شنجول من
سحب السكين كان قتل نفسه .

السكين منه وأمر الحاجب بقتله حالاً.

ويروي أحد مراقبيه - عمر بن أحمد - عن مقتله ما يأتي : (١)

لما أمر الحاجب بقتله ضربته بالسيف فلم يبر رأسه فضربه الحاجب ضربة أخرى فلم يصنع شيئاً فاضجعته وانا أقول : كذا قتل أبوك لا رحمة الله لي رضي الله عنه ، ثم ذبحته ذبحاً . وقتلنا ابن غومس بعده وأنه مانطق لفظة واحدة .

حمل بعد ذلك رأس شنجول الى محمد بن هشام في نفس تلك الليلة نرآه وتتأكد منه ثم أمر برده الى موضع جده فحمل جسده على بغل وهو شبه عار ومثير به شوارع العاصمة . ويقول ابراهيم بن القاسم بهذه المناسبة نقلاً عن أحد الادباء اذ قال : (٢)

« اني لقائم عند باب الحديد إذ اتي بشنجول معروضاً على بغل عاري الجثة ، مصفر اليدين والرجلين بالخناقه تقيناً من الشعر ، مبطواحاً على وجهه باديا شوارء ، ورأيت والله سفلة من أهل الباذية تتصن في درره وان العامة تتضاحك من فعلهم ولا أحد يذكر ما يرتكب منه » .

ادخلت جثة عبد الرحمن بعد ذلك الى إحدى غرف قصر الخلافة في قرطبة فشق بطنها وزرع ما فيه وحشى بعاقير تحفظه ثم كسي شيئاً وسرأوبيل وأخرج فسم على خشبة طويلة على باب السدة ، ونصب رأس الكوت على خشبة دونها الى جانبها .

(١) عمر بن احمد عن ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٧٣

(٢) نفس المصدر السابق ج ٣ ص ٧٣

ويقول عمر بن احمد ان ابن عبدالجبار امر ابن الرسان صاحب شرطة
شنجول الذي كان ينادي في عسكره : « هذا امير المؤمنين يأمركم بكلذا » ان
ينادي عليه : « هذا شنجول المباون . ثم يلعنه ويلعن نفسه . وذلك يوم السبت في
٤ رجب سنة ٣٩٩ هـ = ٤ مارس ١٠٠٩ م . وكانت بذلك مدة حكم عبدالرحمن
بن ابي عامر أربعة أشهر و أيام ، وانقرضت بقتله الدولة العاميرية .^(١)

وقد قيل : انه من اعجب ما حصل من نصف نهار يوم الثلاثاء لاربع
عشرة بقيت من جمادى الآخرة الى نصف نهار يوم الاربعاء الذي يليه ، فتحت
مدينة قرطبة وهدمت مدينة الزاهرة وخلع خليفة وهو هشام بن الحكم وولي
خليفة وهو محمد بن هشام بن عبدالجبار وذات دولة ابن ابي عامر وحدثت دولة
بني أمية وقتل وزير وهو ابن عسقلانجه واقيمت جيوش من العامة ونكث خلق
من الوزراء ، وولي الوزارة آخرون . وكان ذلك كله على ايدي عدة رجال فحامين
وجزائين وحاكمه وزباليين ... وهم جند ابن عبدالجبار .^(٢)

(١) قال ابو محمد ابن حزم متكلما عن نسب العامريين ما يأتي : ابو عامر محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن ابي عامر ولد الاندلس هو وابناؤه عبد الملك المظفر وعبدالرحمن الناصر . وله علم من قبل ابيه عبدالله وعبدالرحمن . اما عبدالله الذي فتنه ابوه فتختلف ابنا اسمه محمد ثان وتختلف ابنا اسمه عبد الله ثالث نهض الى الحج ومات هناك وما زاد اعقب . ولا نعيب لعبد الله المسمى بالظفر . فاعقب عبد الرحمن بن محمد ، وهو المسمى بالعهد ابنا اسمه عبدالعزيز ، ولم يبق له غيره ، توفي بنفسه وله اربعة عشر عاما ، وطال امره بها وله من الولد عبد الله وعبد الرحمن ماتا ولم يعوا . (جهرة انس العرب من ٣٩٣) .

(٢) التويري بیانة الارب ج ١ ص ٧٦ وابن عذاري المراكشي ، البیان المغرب ج ٣ ص ٧٤

الخلفة الثانية

خلافة محمد بن هشام الاولى

كما قد أوردنا بان نسبه هو ابو الوليد محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر . وكانت امه ام ولد اسمها منته وتعرف بالمرجاء خلعم كان بها . حدث مولده في قرطبة سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٧ م وقتل فيها سنة ٤٠٠ هـ = ١٠٩ م .

رأينا كيف استطاع محمد بن هشام ان يصل الى سدة الخلافة ، وقد اقى نفسه منذ وصوله الى الحكم « بالهدي » واما المosome فقد لقبته « بالنقش » لمحاسنه وطليشه وخفته . يصفه صاحب كتاب « اخبار الرؤساء بالأندلس » بانه كان : ايضاً ، اشقر ، تام القامة إلا أن به الخفاء بسيط ونعلو وجهه صفرة . ^(١)

كان سرور أهل قرطبة في بادئ الامر عظيماً بولايته محمد بن هشام

(١) عن ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٥

فأقاموا في رحاب المدينة وارباضها الولائم والاعراس وظلوا على ذلك أياما ينتقلون من مكان إلى آخر يعزفون ويفنون ظانين بأن امامهم كلبا ستحقق على يدي الخليفة الجديد .

اعماله وسوء تصرفه :

لکنهم ما لبوا أن رأوا ضعف محمد بن هشام في ادارة الدولة وسوء تصرفه . فقد اساء اولا اختيار حجاجه فاتقام من أراذل الجندي ومن المأمة ذوي المهن الذين لا خبرة لهم بالادارة فلساووا الادب مع المراجعين من الناس بل حتى مع القواد ووجوه الناس ، إذ كانوا يستقبلونهم بكل جفاء وعبوس وجه ويخاطبونهم مخاطبة الرئيس المرؤوس بل ويوبخونهم احيانا ولا ييزون بين كبارهم وصغيرهم ، كما انهم طلبوا الى قواد الجندي وضم سلاحهم عند الدخول لمقابلة الخليفة ولم تكن هذه هي المادة المتبعة حينذاك ، فجعلوا معظم الناس يهددون عليهم ويغضبونهم وذكرتهم بالمعاملة الحسنة التي كانوا يرونهما على يد الحجاج المدربيين الذين كانوا يقفون بباب الخلفاء السابقين .

ويذكر في هذا السبيل ان من اسوأ العاملة ما لاقاه الامير زاوي بن زيري عظيم صناعة (وكانت الرابطون اكثراهم صناعيين وكانوا في ذلك الوقت يملكون من طرابلس الغرب الى طنجه) فقد اتى زاوي هذا مقابلة الخليفة في يوم كثر الازدحام فيه على باب القصر فلم يتم به أحد او يحاول الافراج له ليمر بل كانت كلها حاول ان يتقدم رده ، وضرروا رأس فرسه ، فلما كرروا ذلك مراراً غضب اشفاقا على مطيته وقال لهم : هذارأسي فاضربوا فالدابة لا ذنب لها . فقال كثيرون من الناس أن هذا كان مبدأ حقد زاوي على الخليفة محمد بن هشام .

وحدث أنّ محمدًا بن هشام أصدر في أحد الأيام أمرًا يدل على رداءة تصرفه وهو : الا يركب في ذلك اليوم أحد من الفزاعة والا يحمل سلاحا ولا يأتي القصر .^(١) وصدق أن زاوي بن زيري مع جماعة معه اتوا إلى القصر متعانين دوابهم يطلبون مقابلة الخليفة فردو عن باب القصر اثنين رديانصروا على علة الذل ثم هجم نتيجة لذلك نفر من العامة على دور البربر فهوا كثيراً ما احتوتهم . وبلغ استياء البربر من هذه الحادثة اقصاه ، وكان لهم في قرطبة قوة لا يستهان بها عدا عن انهم كانوا اولاد عم الرايعين ملوك افريقيا ، وعدا عن انهم كانوا قد انضموا الى حركة الخليفة المهدى طائعين مختارين مع انهم كانوا يستطيعون مقاومته والبقاء على الولاية لعبد الرحمن بن أبي عامر . لهذا خاف صاحب المدينة من سوء عاقبة ما حدث لهم وأمر فضرت رؤوس ثلاثة من النهاين وظيف بها في أنحاء المدينة . ولكن زاوي بن زيري لم يكتف بالعقاب الذي أزل بالمتدين فتوجه مع جبوس وحباشه ابني الامير الصهناجي ما كسن وابي الفتوح بن ناصر الى قصر الخليفة محمد بن هشام فلما اجتمعوا به شكوا له ما اصابهم فابدى كثير اسفه واعتذر لهم ووعدهم باعادة ما نهب من دورهم والتغويض عليهم كما امر بقتل عدد آخر من الذين اشتركوا بهب البربر فاستطاع بذلك اسكات زعمائهم اما بصورة مؤقتة .

ومرض في خلافة المهدى الفتى الصقليبي « فتن » وكان متقدما في السن ، فلما شعر بقرب وفاته أرسل الى محمد بن هشام يقول له يا به

(١) ذكر اصدار هذا الامر ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ١٥٠ والمغربي : نهج الطيب ج ٤ ص ٤٠٣ وابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٥٣

يريد أن يسر إليه سرًّا وانه لا يستطيع النهوض إليه وانه يرجو أن يأتي الخليفة لرؤيته . وزاره الخليفة فعلاً فدفع إليه فاتن بكتاب يدل على جميع ما تركه الخلفاء الامويون السابقون من الاموال والذخائر مما لم يهتد إليه ابن عبدالجبار ، فأخذته هذا وذهب توا للتحقق من الموضع التي اتت في الكتاب فعثر عليها كلاماً واحتوى بذلك على كيات كبيرة من الاموال والموارد والآنية والامتعة والأسلحة وما أشبه ذلك ..

أما بالنسبة لفتى الصقلي واضح صاحب مدينة سالم والثغر الأوسط كله ، فقد كنا ذكرنا انه كان امرأع الناس للتخلص عن سيده عبد الرحمن بن أبي عامر ، فلما تم الامر لحمد بن هشام أرسل واضح إليه كتاباً يظهر له فيه طاعته واستبشاره بخلافته وسروره بقتل عبد الرحمن . فاستقبل الخليفة رسوله بالترحاب واجابه على ذلك بان أرسل له مالاً وفرشاً وامتعة وبعض الطرائف الثمينة وجدد له ولادته في الثغر الأوسط .

وكان من جملة نصرفات محمد بن هشام السيدة اثناء خلافته فيه جماعة من الصقالية العامريين من قرطبة ، فسار هؤلاء الى شرق الاندلس واستطاعوا في قليل من الزمن ان يكسروا تأييد الشعب في تلك الجهة ويشكروا في تلك المناطق عدة ممالك مستقلة سيكون لها شأنها فيما بعد .

اما العمل الذي احقد معظم الناس على المبدى فهو ما فعله بالنسبة للخليفة هشام بن الحكم « المؤيد » . إذ لما استوفى الامر له رأى انه من الاحسن لبقاء ملكه ، القضاء على الخليفة هشام الثاني او اخفائه على الاقل . ولذلك فان أول ما فعله ان امر بسد ابواب الجناح الذي كان يعيش فيه الخليفة المؤيد في قصر الخليفة ، ثم جرده من جواريه وصقالبته ولم يترك له سوى جاريته « شعب » وخدمتين معها ، حتى أنه

أخرج الدواب التي كان يلكلها ولم يترك له إلا الآثار الضروري في جنابه
ثم بعد عدة أيام قررت فتنة الهادي على أن هشاما يجب أن يغادر القصر فأمر بالخروج
منه واسكته في دار «الحسن بن حبي» أحد وجاه قرطبة.

وفي شهر شعبان من سنة ٣٩٩ هـ = نيسان ١٠٠٩ م توفى
رجل يهودي (١) كان يشبه الخليفة هشاما كل الشبه فلما توفي به محمد بن
هشام وعرضه على الوزراء وأهل الخدمة والنفقة (ومنهم القاضي وابن
ذكوان) ونفر من العادة بالقصر فعاتوه وقالوا بأنه هشام المؤيد وشهدوا
 أمام الناس بأنه لم يكن في جسمه أثر جرح ولا خنق وأنه مات حتف اتفه ، فصلي
 عليه ثم دفن يوم الاثنين في ٢٧ شعبان سنة ٣٩٩ هـ = ٢٦ نيسان
 ١٠٠٩ م في جبل بحوار قربة السيراء (٢) وحضر الهادي بعد ذلك
 هشاما بن عبد الله بن الناصر ابن عم المتوفى فزاح عن قدمه ووعد
 بإن يعطيه «المئية» من ميراث هشام على أن يتنازل عنباقي فرضي
 هذا وشكراً على ذلك .

ولكن الرواين في قرطبة لم يكونوا من القباء بحيث يصدقون

(١) يؤيد قصة هذا الرجل اليهودي التورري : نهاية الارب ج ١ ص ٧٧ وابن عـ - ذاري
 المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٥٩ وابن حزم : كتاب الفصل طبعة القاهرة سنة
 ١٣٢١ ج ١ ص ٥٩ إذ يقول « أنه حضر بنفسه وقاة الخليفة هشام الثاني حينما أعلن
 محمد بن هشام بأنه قد مات ، والحقيقة أنه لم يكن قد مات وإنما احضرت جثة يهودي
 يشبهه ودفنت » . وابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٨٤ E.levi-Provençal , Hist. de l'Esp. mus. TII, p.306, M. Asin Palacios: Aben hazam de Cordoba II p. 69.

(٢) ذكر مكان دفنه في «السيراء» ابن حزم في كتاب الفصل ج ١ ص ٥٩

موت هشام ، ويظهر أن بعضهم عانى هشاما في جملة من عاينوه ولم يقتنع
بأنه هم نفسه ، ولذلك بدأوا يتهمون ضد المهدى ويتحدثون عن فعلته ،
فكان من هذا إلا أن أمر بسجين جماعة منهم ليقضى على اشاعاتهم ،
وكان على رأس من سجن سليمان بن عبد الرحمن بن الناصر (١) الذي كان المهدى
قد ولد عبيده منذ وصوله إلى الخلافة .

وكان من سجلة اخطاء المبدي الادارية اظهاره البعض علناً لا يرى
وعدم تكتمله في ذلك وذمهم في مجالسه أمام الناس واعتماده على
جنود من المأمة واراذل الناس قربهم واترهم على العبيد العازمين
وعلى الطوائف البربرية ففقد هؤلاء عليه واضمروا له الشر

والبعضاء^(١). هذا وقد اظهر خلال المدة القصيرة من خلافته ، من الخلاعة والخبون ما لم يكن يتظره الناس منه « فاستعمل له من الخرمانية حامية واستعمل له مائة بوق للزمر ومائة عود لضرب واشتري له صقلي كأن يتعشهه عمد ابن الزيات »^(٢) . واعتدى على حريم البعض فاصبح من خليلاته « بستان » جارية ابي قاسم المصري النيجيري و« وأجد» زوجة ابن الشرح وغيرها .. وقيل أنه كان يعمل النبيد في قصره فسموه نباداً وانه كان كذلك متلونا ..^(٣) . وظهر منه كثير من الفسق واعمال تدل على اختلال دينه ولا تصدر إلا من أهل الدعاارة المتهكفين ، فكان ذلك من جملة الاسباب التي حركت ضده الناس في قرطبه وجعلتهم يقمون بالثورة عليه .

قال ابن الرقيق : لم يزل محمد بن هشام طول مدته مشهوراً بالفسق مظهراً للخلاعة ، لا يفتق من سكر ولا يرتدع عن منكر بالنساء والصقالبة واللاهي حتى قال بعضهم فيه :

امير الناس مختنة كل عين
يبيت الليل بين مختندين
يحيشم ذات يوم خند هذا
ويسكر كل يوم سكريان

(١) يذكر ابن خلدون : العبر ج ٧ ش ١٥٠ ان محمد بن هشام كان مظهراً لبغض البربر معاهاً بسوء الثناء عليهم كما يذكر التویري في نهاية الارب ج ١ من ٧٧ ان محمد بن هشام لا يقتصر عن البطش بهم حين تنفع له الفرصة . وابن الاتير : الكامل ج ٤ ش ٨٤ فيقول انه كان مبغضاً للبربر فاقلب الناس عليه .

(٢) التویري : نهاية الارب ج ١ ش ٧٧ وابن عذاري المراكشي : البيان الغرب ج ٣ ش ٧٨

(٣) ابن الاتير : الكامل ج ٧ ش ٨٤ .

لقد ولوا خلافهم سفهاء ضعيف المقل شيئاً غير زين^(١)

وقال آخر فيها يتعلّق بتطاوله على حريم الآخرين : (٢)

قد قام مهدينا ولكن
بصلة الفسق والمحون
وشارك الناس في حريم
لولاء ما زال بالصون
من كان من قبل ذا احنا
فاليوم قد صار ذا قرون

وقيل فيه أيضاً :

اشام خلق على الباد
والناس من حاضر وباد
ابو الوليد الذي اشمرت
لنفسه شرة البلاد
كان على قومه جيما
مزار عاد ليوم عاد

هذه الاسباب المجتمعة التي سبق ذكرها وهذه التصرفات السيئة التي كانت
تصدر عن محمد بن هشام عجلت بقيام الثورة عليه .

ثورة هشام بن سليمان بن الناصر

ان القائم بالثورة على المهدى هو ابن لولي عهد المهدى الذي زجه
هذا في السجن كرأينا منذ قليل . إذ لما رأى هشام سوء تصرف
ابن عبد الحمار واهاته رؤساء البربر وزعماءهم ووضعه إيه في السجن
واعمال الفسق والخلاعة التي يأتي بها ، قر عزمه على اعلان الثورة وخلع

(١) أورد هذه الآيات المفرى : فتح الطيب ج ٣ ص ٤٠٣

(٢) روی هذه الآيات ابراهيم ابن الرقيق ونظاماً منه ان عذاري المراکفي : اليان
المغرب ج ٣ ص ٨٠

المهدي ليحتل مكانه . وقد سمي نفسه بالرشيد . وكان ذلك في يوم الخميس
٥ شوال ٣٩٩ = ٤ حزيران ١٠٠٩ م

واستطاع هشام في مدة أيام قلائل أن يجمع عدداً كبيراً من
الأنصار وخاصة من المستائين من حكم المهدي من خاب املهم في
الحصول على مركز مرموق ، ومن البربرة الناقفين ومن الروانين
المضطهدن . وشاءت الظروف حينذاك أن يسرح المهدي أيضاً سبعة الآف
من الجنود الذين اعتقاد أنه لم يعد يحتاجه إليهم بعد أن استقرت الأمور
وثبت عرشه فانضم هؤلاء بسلامهم إلى معسكر القائم الجديد وشكلوا مع الانصار
السابقين حيثاً مستمدأ لخاربة الخليفة .

وجعل هشام مركز اعماله في « فحص السرادق »^(١) وأخذ
الأنصار يتواجدون إليه هناك ويدبرون أمرهم معه حتى إذا أكتملت
استعداداتهم تهيأوا للسير نحو قصر الخليفة . وحدث أن شب بعض
الخالفين لهشام في تلك اللحظة ، فحصل بعض القتال بين الطرفين انتهى
بمقتل وزيرين من وزراء محمد بن هشام كانوا يوجدان حينذاك بين الجموع
المحتشدة وهو خالد بن طريف ومحمد بن ذري . ورفع رأساهما على
الرماح وزحف بهما الثوارون إلى قصر الخليفة وضربوا الحصار عليه . فلما
رأى الخليفة تلك الجموع الفقيرة خاف على نفسه ولما إلى مفاوضة زعيمهم
هشام . ولاجل هذه الغاية أرسل إليه القاضي إبا العباس ابن ذكوان والفقير إبا
عمر ابن حزم ليفهمها منه غايته من التوره ومطالعه .

(١) كان يسمى « فحص السرادق » المكان الذي كان يضرب فيه الخليفة معسكراته ويعرضون
فيه الجنود قبل المسير إلى الغزو أو على أثر العودة من معركة ظافرة .

وصل الرسولان الى مضرب هشام واجتمعا به وعاتبه في خروجه على المهدى وذكرا له بان عواقب ذلك يمكن ان تكون وخيمة على البلاد ، وأنه من الافضل أن تسوى الامور بالسلم . ولكن هشاما قال لهم : « ظلمت واوذيت وسجين والدى على غير شيء وأخاف على نفسه ولا ادرى ما صنعت به » . فارسل الرسولان الى الخليفة من يخبره بذلك فامر هذا حالاً باطلاق سراح والده سليمان فارسل الى داره على مرض كان قد ألم به . ولكن هشاما رغم ذلك لم يشاً أن يعود عن ثورته وحصلت بينه وبين رسولي المهدى محاورة شديدة استنتج منها هذا الاخير أن هشاما مزمع على طلب الخلافة لنفسه وأنه لا يمكن اقناعه بالدخول عن رأيه ، فانصرفا وقد يتسا من تسوية الامر ^(١) .

وهاجم قسم من الثائرين حينذاك السوق المدعو بسوق السراجين فاحرقوه وشددوا الحصار على الخليفة . دامت تلك الحالة يوماً وليلة ^(٢)

(١) يذكر ابن حيان ان الرسل توسلوا بين الخليفة المهدى والثائر هشام بن سليمان لابرام الصلح بينهما ، وأن الاول قبل أن يخلع عليه لما رأه من تأييد القرطبيين لهشام الرشيد على أن يؤمه هذا في نفسه وأمواله . ولكن في صيحة اليوم الثاني نكث المهدى الانفاق وجمع جيشه وهجم به مع نفر من قرطبه على جماعة المهدى ففتحوا عليهم واسروا هشاما وابنه مع جماعة من بي عمه وساقوهم الى المهدى الذي وبنهم وعاتبهم امر بقتلهم . (عن ابن عذاري المراكشي : اليان المغرب ج ٣ ص ٨٤ وابن الاثير ، الكامل ج ٧ ص ٨٢ .

(٢) ذكر عبد الواحد المراكشي والضي بنده المناسبة ان هشام بن سليمان بن الناصر والبربر حاربوه محمد بن هشام بقية يوم الخميس ٥ شوال سنة ١٩٩ هـ والمليلة المقلبة وصيحة اليوم الثاني الى ان قام أهل قرطبه مع محمد بن هشام . (العجب ص ٤١ ، بغية الملئس في رجال أهل الادلس ص ٢٠)

إلى أن تغير الموقف بعدها تغيراً تاماً . فقد رأى أهل قرطبة أنه من الخطأ نصرة البربرة المؤيدية لشام ضد الخليفة الاموي محمد بن هشام فيروا في الماحفظة الأخيرة وخاصة مسكن الريض الغربي وحملوا السلاح وهاجوا الثوار مع جند الخليفة . وأخذ الثوار بذلك المفاجأة فتفرق شملهم وهرب الكثيرون منهم وقتل البعض الآخر وبقى حالاً على زعيم الثورة هشام بن سليمان وأبيه أبي بكر وجماعة من أنصارهم واقتيدوا بين يدي الخليفة فضرب اعتناقهم .^(١)

واشتعل محمد بن هشام غيطاً من تأييد البربرة لثورة هشام وسبح الناس بهاجمة دورهم وامر بن ينادي في الناس بن من اتي برأس ببرى فله مكافأة كبيرة . فتسارع أهل قرطبه في قتل من قدروا عليه منهم ولم يبق تاجر ولا جندي إلا وبدل جده في ذلك . فدخلوا على وسنان البرازيلي وكان من له آثار حميدة في الجهاد فذبح على فراشه في داره ، ودخلوا على رجل صالح فذبح في داره ، ونهبت ديار البربر وهتك حريمهم وسبيت نسائهم وباعوهن في دار البنات وقتلوا النساء الحوامل وقتلوا سبعة عشر رجلاً من تمسان كانوا قد قدموا للمغزو ، واستنزل مسلم بن عبد الله الحسيني من داره فقتل وربط في رجله جبل وجر به إلى حفرة بجوار داره تعرف بحفرة طالوت فالقي فيها واتهت داره وفضحت بناته وعياله . كما قتل قوم من أهل خراسان وأهل الشام خطأ على

(١) ذكر ابن خدون بهذه المناسبة ان البربر كانوا قد اسروا شواعم الى هشام بن سليمان بن امير المؤمنين الناصر لدين الله وغشا في الحاضرة حدثهم فموصولوا عن امرهم ذلك واغري بهم السواد الاعظم فشاروا بهم وازعجوهم عن المدينة وقبض على هشام وأخيه أبي بكر وأخاهرا بين يدي المهدي فقتلها .. كتاب العبر ج ٧ من ١٥٠

أنهم من البربر ، واختفى محمد بن يعلي المغراوى ومصل بن حميد وهما من زعماء البربر في مكان أمن يحميهما من اعتداء القرطبيين ^(١) .

ودام الامر على ذلك حتى رأى الخليفة بان الامر قد زاد عن حده فامر مناديه أن ينادي : من أذى بربيراً أو تعرض له بعد ، كانت عقوبته السيف . كما ركب البكري وهو أحد وزراء قرطبة فدار المدينة وهو يقول للناس بان أمير المؤمنين عفا عن البربر . واحضر محمد بن هشام الى حضرته من كان بقي من البربر في المدينة فكاملهم كلاماً اطيفاً والبسهم القلائل والارادية وأمرهم بان يزيلوا الزى الخاص الذى اعتادوا أن يتربوا به وأن يلسوا كباقي الناس فخضعوا للامر .

هؤلاء البربر الذين بقوا في قرطبة بعد المذبحه التي جرت عليهم كانوا قلائل جداً ، أما الاكثرية فانهم خرجوا فارين من قرطبة فاتجروا الى قلعة رباح .

هذا ولم يقتصر اضطهاد البربر على العاصمة قرطبة فقط واما تبعاتها الى بعض مدن الاندلس الاخرى . قتل في ما لفه مثلاً الايدب التحوي خلف بن مسعود الجراوى المالقى ^(٢) واعتدى على اخرين في اماكن

(١) ذكر هذه الفظائع التورى ، نهاية الارب - ١ ص ٧٧ - ٧٨ وابن خدون العبر ج ٧ ص ١٥٠ وابن عذاري المراكشى ، البيان الثرب - ٣ ص ٨١ وابن بشكوال ، الصله ج ١ ص ٤٠

(٢) خلف بن مسعود الجراوى المالقى يعرف بابن اسيه وبكتى بابي سعيد . حدث عنه الصاجان وقالا ، مولده عليه ، اجاز لنا اختصار التو للمدينة . قال ابن جيان ، وكان قدم قرطبه سنة ٣١٣ فجعل عندها لم كبير ، وكان محمد كادل القاضي ابن ذكوان خاصة واغرى به العامة فاضجعوه وذبحوه حين نوره البرابر بالاندلس عند قيام المهدى وقتل العامة البربرية سنة ٤٠٠ وقيل بل شدحوا رأسه بالحجارة وانه سألهم أن يعيلوه حتى يصلى ركعتين ففعلوا رحمة الله وكان ذلك باتفاقه وانما ذكره في الغرباء لأن الصاحبين ذكرتا مولده في مليلة .

آخرى حتى فالوا أمان الخلفة.

البراءة يباعون لسلامان بن الحكم : مسيرهم وأحوالهم:

لما أصبح البراءة بعيدين عن قرطبة وأمنوا شر أهلها، اجتمعوا في مكان يدعى «فحص هلال» لاتخاب زعيم لهم ينضوون تحت لوائه ويطالبون بالخلافة له. وكان قد فر معهم في تلك الواقعة ابن اخ لشاعر هشام بن سليمان بن الناصر اسمه «سلمان بن الحكم» فقر رأيهم على أن أفضل شخص يمكن أن يباعوه بالزعامة هو سليمان هذا، فقسموا له بين الطاعة وعاهدوه على أن ينصره ويدافعون عنه.

وكان الفضل في مبايعته يعود إلى الأمير زاوي بن زيري بن مناد الصهاجي ، إذ أن هذا ضرب لهم مثلاً برماح خمسة مشدود بعضها إلى بعض فاعطاهما إلى أشد من حضره في ذلك الاجتماع وقال له : اجحد نفسك في كسرها كما هي ، فحاول ذلك فلم يتمكن . فقال له زاوي : هلبا وحاول كسرها رحماً رحماً ، ففعل ونجح في كسرها . فاقبّل حينذاك زاوي على الجماعة وقال لهم : هذا مثلكم يا بربرة ، إن جمعتم أن تطاقوها ، وأن تقرّتم أن تبعوا والجماعة في طلبكم ، فانظروا لأنفسكم وعيّلوا ، فقالوا : نختار الاتحاد ولا نلقي بأيدينا إلى التلهك ، فقال لهم : يا بعو هذا القرشي سليمان ، يرفع عنكم الافقة في الرياسات ، وستسمّيون إليه العامة لكونه من الامويين ، ففعلاً فلما قت اليهـة قال : إن مثل هذا الحال لا يمكن أن يدوم ، فيجب على كل قبيلة منكم تختار لها رئيساً يتکفل بتقوعها ويغليها أيام الخليفة وانا من جهتي كفيف بضمـاجه ؛ فاجتمعت القبائل كل واحدة فيها ينهـا وقدمت كل قبيلة

سيدها . (١) ثم ساروا معه الى قلعة رباح فلم يظهر أهل المدينة مقاومة بل فتحوا أبوابها لابرر فدخلوها وأخذدوا يتضمنون امورهم فيها . (٢) ووصل اليهم في ذلك الوقت رسول من قبل محمد بن هشام اسمه « عباس البرازلي » يحمل اليهم امانا من المهدى . قال لهم : قد امنكم أمير المؤمنين امانا تاما فارجعوا الى دوركم ومحالكم . فقالوا : ليس الى رجوعنا من سبيل لأنه ان امتننا لم تؤمننا رعيته ، وأن امتننا عامته لم يؤمنا جنده ، ثم قالوا لو لا أنك رسول وتأجر لقتلناك ، وان الله سيجازي المهدى بما فعل .

عاد الرسول اذن الى قرطبة دون أن يصل الى نتيجة مع البربر وتابع هؤلاء سيرهم الى وادي الحجارة ، Guadalajara فطلبوا الى أهلاً أن يسموا المدينة ولكن هؤلاء أبووا وأرسلوا كتاب البربر الى محمد بن هشام فما كان من المحاصرين إلا أن أخذوا المدينة عنوة دون كبير عناء .

وقرأ محمد بن هشام على أثر ذلك في قرطبة كتاباً يشنع فيه على البربر ما ارتكبوا من الفظائع في وادي الحجارة وكيف انتهوها واستباحوا

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ص ٥٢١ . وذكر مبايعة البربر لسلیمان بن خدون ، العبر بـ ٧ ص ١٥٠ والتوري ، نهاية الارب ج ١ ص ٧٨ .

(٢) ذكر ابن عذاري المراكشي بأن كان قد اضم الى البربر قبل احراقهم لقلعة رباح أربعين من الراية الذين كانوا في مدينة سالم تحت قيادة الفتى الصقلي واضح . وأنه لما علموا بقرب مقدم أخوانهم خرجوا للاصدام بهم على الرغم من واضحة الذي حاول ان يمنعهم بالقوة دون أن يوفق الى ذلك .

حرمة أهلها ، وبالغ في وصف فظائعهم حتى ضرج الناس وصاروا يفكرون بالخروج بأنفسهم لقتال البربر . أما الخليفة فإنه أظهر بعد ذلك الكثير من الفزع والذعر فأخذ في حمل أكياس الدقيق والملح وكعيات من الخطب استعداداً لحصار طويل تعرض له قرطبه من قبل البربر ، كما أنه أمر باصلاح ابواب المدينة وترميم اسوارها حتى جعل الناس يستخفون به ويخترون عليه .

أما البربر فقد تابوا طريقهم الى أن وصلوا قرب مدينة سالم ، فراسلوا واضحاً وطلبوه اليه أن يتوسط بينهم وبين الخليفة وأن يقنع هذا الاخير بعقد الصلح معهم على أن يولي عبده سليمان بن الحكم زعيماً ، ولكن واضحاً أى أن يفعل ذلك واستطاع ان يشتري بعض العبيد الماردين المرافقين للبربر وطلب منهم أن يحتالوا لاقبض على سليمان .

في الوقت ذاته ول끼 يلهي البربر عن زعيهم ويكتب النجاح لمؤمرته ، أمر جنوده بالهجوم على البربر ، ولما بدأ الاشتباك فعلاً تسلل العبيد المارديون لاقبض على سليمان ، ولكن احسن بهم البربر في الوقت المناسب فقتلواهم قبل أن يصلوا اليه . وحاول بعض البرابرة الوصول الى واضح والانتقام منه ، ولكن جنده استطاعوا أن يقضوا عليهم قبل أن يصلوا اليه أيضاً ، وانقض الجماع بعد ذلك دون نتيجة حاسمة وسار البربر عن مدينة سالم .

انصل خبر ما حدث بمحمد بن هشام ، فشوّه الحقيقة وأمر بان يقرأ على الناس كتاب مزور مفاده ان واضح وجنده قتلوا من البربر عدداً هائلاً وأنه سيصل عما قريب الى قرطبه اكثر من الف رأس من رؤوسهم فاستبشر القرطبيون بالنصر ودعوا ل الخليفة بالدوم وما علموا أن البربر كانوا

قد قتلوا في تلك الموقعة الصغيرة أمام مدينة سالم من جنود واضح أكثر مما قتل منهم بكثير.

على أثر ذلك أرسل واضح من ينادي في سائر الفجر بان من حل شيئاً من ال تمام الى البربر فقد حل ماله ودمه بذلك انقطعت المؤمن عن البربر واقاموا خمسة عشر يوماً يقاتلون من الخائش والبنات ، فلما اشتد بهم الحال ولم يعودوا يستطيعون صبراً ، فكروا في طلب المعونة من النصارى .

وفعلاً أرسلاوا الى الكونت سانشو جارنيا ، كونت قشتالة (يدعوه المؤرخون العرب هذا الكونت بابن مامه النصراوي أو ابن مامه دونه) (١) ، يعرضون له حلمهم ووضعيتهم ويطلبون منه المساعدة ضد اعدائهم (٢) . ولدى وصول رسول البربرة الى الكونت سانشو وجدوا أن رسل الخلقة محمد بن هشام كانوا قد سبقوهم اليه لنفس الفرض الذي جاؤوا به من اجله . وكان رسول المهدى قد قدموا الى الكونت المسيحي هدية فاخرة منها عدد من احشائين الخيل وبعض البنغال وحرائر وما لا يحصى من الطراائف والتحف وطلبوها اليه أن يكون بمحابيهم على أن يعطوه ما احب من الحصون الواقعة على الحدود حين انتصارهم على البربرة .

(١) يعلق بعض المؤرخين الاوروبيين امثال Justo Perez de Urbel,Ramon Menendez Pidal وغيرهما على تسمية الكونت سانشو جارنيا بابن مامه دونه بأنه مطلعون فعلاً على سببه لأن جده والدته كانت تسمى « مومنة دوننه » وابنه سمي كذلك نسبة اليها .

(٢) يقول ابن خلدون : ان سليمان بن الحكم والبربرة نهضوا الى نفر طليطه ثم استجاشوا من هناك بابن اذفوشن المسيحي (العبر ج ٩ ص ١٥٠)

وكان على الكونت النصراني ان يختار حلفاءه بين الطرفين . وكان يعلم أن خلافة المدعي ليست ثابته وتأييد القرطبيين له غير مضمون في كل الاحوال ، ففضل اختيار الجانب البربرى ورد رسول المدعي دون أي جواب أو مقابلة على المدينة ، ووعده رسول البربر بمساعدتهم على ان يعطوه حين انتصارهم عدداً من الحصون الهامة التي كان النصوص ابن ابي عامر قد استولى عليها ابن عز واته . ويحدد لنا المؤرخ الاسپانى ^(١) Gusto Perz de urbel تفلا عن رواية « الطليطي » *« eltoledano »* بان الحصون التي طلبها الكونت سانشو كان عددها ستة حصون وهي غوماج Gomaj انتيسه Sepulveba الفيقية Alcubilla وستة Osma شنت اشتين . هذا وقد كان النصوص قد استولى على حصن كلونيا Clunia ولكن المسيحيين كانوا قد استرجعوا قبل ذلك .

كانت الشروط قاسية ولكن البربر رأوا أن لا مفر من قبولها فوافقوا عليها وعادوا ليخبروا اخوانهم بنتائج مباحثتهم . وفمن ما إن وصلوا حتى نفذ سانشو وعده بمساعدتهم فارسل اليهم كيatis كبيرة من المؤون منها ألف عربة من الدقيق والادوية ولواع الماكلان والفال ثور وخمسة الاف شاة وكبة من الفحم والعمل حتى أنه أرسل اليهم السروج لاصحاتهم والشقق للملوسهم والخيال والآلات وغير ذلك مما يحتاجون اليه فاستعاد البربر بذلك شيئاً من نشاطهم وأصبحوا في حالة تخويفهم متابعة السير نحو قرطبه .

وبعد أيام من ذلك حضر سانشو جارثيا بنفسه الى معسكرهم مع جمع

Justo perez de Urbel : Hist. del Condado de Castil- (١)
la T II ref. No. 26, p. 824.

من جنده النصارى واتجه الجمیع الى مدينة سالم .

كان لا يزال البربر أهل في انفهام واضح اليهم ، فلما وصلوا إلى مدینته كتبوا اليه يطلبون عقد صلح يده ويدهم اتحادی القتال ، ولكن هذا ایي وامتنع وأعلن أنه على طاعة المهدی . ورأى البربر أنه لافائدة منه وأنه من الأفضل عدم ضياع الوقت في حصار المدينة فتركوها ومارروا نحو شرنبه Jarama ^(١) لكن واضح ظن أنه من الممكن الاتصار عليهم خاصة بعد أن كان قد جمع لقتالهم عدداً كبيراً من أهل الغور ^(٢) ووصله مدد من قرطبه بقيادة « قيس » أحد صقالة محمد بن هشام ، فتبعهم بذلك الجيش وانقض عليهم في شرنبه حيث كانوا قد توافدوا بعض الوقت . وقتل الفريقيان اقتتالاً عنيقاً اتيه بهزيمة واضح وجيشه واسر معظم من كان معه . فقتل البربر من أرادوا ونصبوا رؤوس القتلى على قلعة عبد السلام Alcalá de Henares لقربيهم منها آنذاك . وعم البربر في تلك الموقعة كميات كبيرة من المال والسلاح . وقد فر واضح بعد المعركة في نفر بسيط من جنده وعاد إلى مدینة سالم وأغلق أبوابها خوفاً من ملاحقة البربر له ، كما اتجه نفر من الجندي الفارين إلى قرطبه ودخلوها وهم في حالة يرسى لها فزاد بذلك الملل والإضطراب في قرطبه . وقد جرت تلك الحوادث في شهر ذي الحجة من سنة ٥٩٩ (شهر آب ١٠٠٩ م) .

زاد قلق المهدى على آثر هزعة واضم وأخذ يفك فى مفاوضة

(١) شريه Jarama تبعد قليلاً عن مدريد الى جهة الشرق

(٢) يطلق العرب لفظة « تغور » على الحسون او اقمة على حدود بلاد العدو.

البر ، فدعا القاضي ابن ذكوان وأمره أن يسير إليهم وبفأوصيه باسمه ولكن هذا اعتبر له ، فدعا مصل بن حميد وقال له : ه أشد الناس عصيا لفارقي لهم فمذره أيضًا وأصبح لا يدرى ماذا يفعل .

وشاء البدى انتزاع بعض الاحتياطات ، فامر بحفر خنادق حول المدينة وانتزاع الاستعدادات الازمة ، كما امر البربر الموجودين في قرطبه أن يخرجوا من المدينة ويعودوا الى بلادهم في افريقيا ، فخاف هؤلاء أن هم خرجوا أن يقتلوها في الطريق فاختبأوا معظمهم عند من يؤمدونه له ويئدون به من أعلى قرطبه ، وأخذ الناس يتجمعون من كل حي قرب قصر الخليفة وأخذوا يشاورون في قتل البربر الموجودين في المدينة وقالوا : قتيل هؤلاء البربر الذين معنا ونساءهم وأولادهم لأنهم أضر علينا من الذين يأتوننا . وزاد اختفاء البربر والنجاوههم الى اصدقائهم ولكن أهل قرطبه ما عتموا أن اشغلا عن البربرة الموجودة معهم ، إذ أن الاعداء كانوا قد أصبحوا قاب قوسين أو ادنى من المدينة .

معركة قنطيش ودخول قرطبه :

رتب محمد بن هشام الرجال على أبواب الأراضي والأبواب والأسوار ، كما وضع عدداً من الجنود وراء الخنادق التي حفرها حول المدينة . وكان قد انضم الى الجندين كبير من العامة من أهل المهن فلبسوا البروع وحملوا العطبول فدوا باشمع زمي لمدم وجود النظام بينهم .

ووصل في تلك الفترة من مدينة سلم ، واسع وعده اربعين ألفاً فارس فدخلوا قرطبه وانضموا الى الجنود الدافعين عن المدينة كما وصل بعده بقليل علام له على رأس مائتي فارس فاصبح عدد الفرسان الذين

يقودهم واضح سهابة فارس . وقد قلده المبدى أمر الحرب ، واحتشد الناس من الكور والبادية فمسكروا في جموع غفيرة .

ووصل البربر الى أرملاط في يوم الخميس ١١ ربيع الاول منه ٤٠٠ هـ (٣٢ م ١٠٠٩) فاحرقوا فندق الوزير ابن ابي الاصبع ، والمنية وهو القصر الذي بناه المظفر عبد الملك بن ابي عامر للاستراحة فيه وغير ذلك ثم تابعوا سيرهم حتى اشرفوا على قرطبه . وفي يوم السبت ١٣ ربيع الاول - ٥٢ م من نفس السنة برب البربر في الوادي وبينهم وبين أهل قرطبه نهر صغير ، فلم ينتظروا أن يعبر البربر اليهم وإنما هجموا مخالفين بذلك تدبير واضح الذي كان قد أوصاهم بالا يبدأوا بهجوم على البربر ، وحصل اللقاء في ظاهر قرطبه في مكان يسمى « فنتيش »^(١) ولكنها لم تكن معركة ابداً كانت مجزرة ؛ فان ملائين من فرسان البربر الذين حملوا على مبارיהם من أهل قرطبه كانوا كافيين لأن يرموا الرعب في قلوب هؤلاء فانهزموا وحصل اضطراب بين جموع أهل قرطبه والمدافعين عنها فاعملوا المزعنة أيضاً وسقط بعضهم فوق بعض اثناء فرارهم فهم عليهم البربر وخلفوهم النصارى واعملوا السيف فيهم فقتلوا عدداً هائلاً

(١) حدد موقع هذا المكان المستندرق E.levi - Provençal بقوله انه يقع الى الشمال الشرقي من الفليعة Alcolea غير بعيد عن منقى نهر وادي أرملاط Guadalmallato بنهر الوادي الكبير Cuadalquivir هذا وقد وصف ابن عذاري المراكشي هذه المعركة في كتاب البيان المغرب دون أن يذكر اسمها ، بينما ذكره ابن بسام في النهاية قسم أول مجلد أول ص ٣٠ والباقي : بقية المتن في الرجال اهل الاندلس من ٢٠ وابن بشكوال : الصاله ارقام ٢٦ و ٤٦٢ و ٩٥٨ و ١٠٣١ و ١٥٠ وعبد الواحد المراكشي : المعجب من ٤٢ وابن خلدون : كتاب العبر ج ٧ ص ٨٤ جاعلاً نهاية الكلمة بمعرف الجيم (فتیج) .

وغرق كثير منهم في النهر حيناً كانوا يحاولون الفرار واحتسل البربر
الاطراف الخارجية لقرطبه ولجأ من استطاع الفرار من جنود قرطبه
وأهلها إلى داخل المدينة .^(١) وقد تقاسط تقدير المؤرخين لمدد القتلى
من المدافعين عن قرطبه في معركة قنطرة فهم من قال انهم بلغوا الخمسة
وثلاثين ألفاً^(٢) ومنهم من قال أنهم لم يتجاوزوا الثلاثين ألفاً^(٣) بينما
قدرهم البعض بأكثر من عشرين ألفاً^(٤) وأكده آخرون أنهم لم
يتجاوزوا العشرة آلاف^(٥) . هذا وتجتمع المصادر التاريخية على أنه قتل
في تلك الموقعة عدد ضخم من الصلاح والثمة المساجد وسدهما والمؤذنين

(١) يصف ابن حيان معركة قنطرة فيقول : « تداني الزخان يوم السبت ١٣ ربيع أول
فتسرع اليهم أهل قرطبه ، وخالقوه واضحاً في تدمير حربهم ، فاستجربتهم البرابرة حتى
إذا تكروا منهم عطفوا عليهم ، فانكشفوا عنهم انكشافاً ما سمع بهم وانهزموا إلى منازلهم
وتشعبت الطرق بهم ، وضاقت مسالك كانوا أعدوها لمددهم سداداً دونهم ، فازدواجاً
وتباشروا وقتل بعضهم بعضاً . ووضع البرابرة والنصارى السيف عليهم فقتل في هذه
الواقعة عام وابادوا امة ، (عن الذخيرة قسم أول مجلد أول ص ٣٠) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٨٥

(٣) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٨٣ . هذا وقد ذكر المؤرخ نفسه
في موضع آخر من كتابه (ص ٩٠) أن عدد القتلى من القرطبيين كانت نحوه عن
عشرة آلاف .

(٤) المغربي : نفح الطيب ج ١ ص ٤٠٤

(٥) ابن بسام : الذخيرة (قسم الأول المجلد الاول ص ٣٩) ،
Justo Perez de urbel : Hist . del Gondado de castilla T II p 824

هذا وقد ذكر نفس المؤرخ الاسباني المذكور في موضع آخر من كتابه ص ٨٢٥
ونقل عن الاسقف دون روذرسيو أن عدد القتلى كان ثلاثة ألاف . وما هذا الاختلاف
بين المؤرخين في تقدير عدد القتلى الا لصعوبة التحقيق الصحيح في تلك الحالات التي
تسود فيها الفوضى وبؤثر فيها ميل المؤرخ وهواء .

والفقهاء^(١). قال ابن حيان : واصيب في تلك الموقعة من المؤذنين خاصة
نيف على مئتين اعريت سقافهم في غدقة واحدة منهم ، وتعطل صبابهم
لعدمهم . هذا وقد استطعنا أن نتعرف على بعض أسماء الشاه من أولئك
الادباء الذين أودوا في قتليش فثبت أنه كان منه الاديب الفاضل أحمد
بن مطرف بن هانىء التجيبي^(٢) والفقيد عمرو بن عثمان المعروف
عبدالرzaق^(٣) والمعلم الاديب محمد بن عبدالسلام المعروف بالندموري^(٤) والاغوي

(١) المقرى : فتح الطيب ج ٢ من ٤٠٠ وابن سام : التخيرة القسم الاول الجلد الاول
من ٣١ والضي : بغية الملائمة في رجال اهل الاندلس س ٢٠ وابن خلدون : العبر
ج ٧ من ١٥٠ والراکشي : الموجب من ٤٢ وابن بشكوال الصله رقم ٤٦٢

(٢) ترجم له ابن بشكوال في الصله رقم ٢٦ فقال : احمد بن مطرف بن هانىء التجيبي
المكتب من اهل قرطبة ، يكى ايا عمر ذكره الحلواني وقال : كات من اهل الادب
على هدى وسه بحابا لاهل البدع فاضلا مصالحا وسأ حافظا مجددا لقرآن حسن اللطف
به جداً وكان من أصحاب ابي الحسن الانطاكي المقرى مقدما في عندهم رحمة الله
وقتل شبل قتلى شهيداً في سنة ٤٠٠ هـ .

(٣) ترجم له ابن بشكوال في الصله رقم ٩٥٨ فقال : عمرو بن عثمان بن خطاب بن بشير بن عمرو بن
روق بن رفاعة بن عدن بن سعيد بن عبد الله الذي جاز مع طارق بن زياد وموسى
بن امير الى الاندلس يعرف عبد الرزاق من اهل قرطبة يكى ابا حفص الخذعن
ابي الحسن علي بن عبيد مختصره في الفقه وعن ابي عبدالله محمد بن عمرو بن
عيشون غير ما هي . فرأى ذلك عخط ابي اسحق بن شظير وقال مولده في ذي الحجة
سنة ٣١٢ هـ وكان سكان بقرب مسجد السيدة وهو أيام مسجد ياسر . وروى عنه
أيضاً أبو حفص الزهراوى وذكر انه كان على الاسناد . وحدث عنه أيضاً ابي عمر بن
سييق وقال توفي بقتليش سنة ٤٠٠ هـ .

(٤) ترجم له ابن بشكوال في الصله رقم ١٠٣١ ؛ محمد بن عبد الله الاديب المعروف
بالندموري سكن قرطبة ، يكى ابا عبدالله روي عن ابي عبدالله بن مفرج وغيره ،
حدث عنه ابو عبدالله بن عايد وذكر انه كان صاحبه عند الشيوخ في الساع وقال :
استفعت به في مدارسة العلم . وكتب عنه المناسك لسعون بن سعيد وقال ؟ فقد في
وفعه قتلىش سنة ٤٠٠ هـ مع ابي عثمان بن القزار الاديب . وذكره ابن حيان وقال ؟
كان شيراً ورعاً عابداً متفقنا في العلوم ذا حظ من الادب والعرفة وكان قد نظر
في هيئه من الحدثان .

الشبر سعيد بن عثمان المعروف بابن الفزار والمجكي بابي عثمان (١) وغيرهم ..
فكان في موته خسارة للآداب والعلوم في الاندلس . هذا وقد أصبه في
تلك الموقعة أيضاً الموسيقي زربوط الطبوري ، فاقام له زملاؤه مائةً
مشهوراً بعد الحادمة . وهلث في تلك الموقعة اخلاق من الناس . وكان
بعض الظرفاء يقول : « من كل طبقة اخذت وقمة قنتيش حتى من أهل
الباطل ، فانها الصفت بالصمم في قتل الليبي وزربوط المفزي وغطاء ، فيبات ان
يختلف الدهر مثلهما » .

ولما رأى ابن عبد الجبار انتصار القرطبيين عليه وهزيمة اهل
قرطبه ، أخرج هشاما بن الحكم من سجنه — بعد أن كان قد ادعى
أنه مات كما رأينا — فاجلسه في موضع يراه الناس فيه واستحضر القاضي
بن ذكوان فطلب إليه أن يذهب إلى البربر ويقول لهم بأن محمد بن

(١) ترجم ابن بشكوال في الصله رقم ٤٦٢ فقال ؟ سعيد بن محمد بن سعيد بن
عبد الله بن يوسف بن سعيد البربرى المفزي يعرف بابن الفزار وبكى بابي عثمان .
روي عن رجال مشهورين عددهم ابن بشكوال في ترجمته في الصله ثم قال عنه ، انه
كان كاتباً لابن يعلي المتوفى سنة اربع او خمس وسبعين وثلاثمائة وانه كان من أهل
الادب البارع لغويًا معروفاً .

إلى أن يقول ، « وكان أبو عثمان هنا حافظاً للغة العربية ، حسن القيام بها ضابطاً
لكتبه ، متقدماً في فنه . وله كتاب في الرد على صاعد بن الحسن المأفور البغدادي
ضيق محمد بن أبي عامر في ما كتب كتابه في التوارد والغرب السمي بالقصوص وأكبر
التحامل عليه فيه ، وكانت له عناية بالحديث ورواية عالية عن قاسم بن اصبع
وغيره وكان ثمة وكان من أهل اصحاب أبي علي القداري ومن طرقه صحت اللغة
بالأندلس بعد أبي علي ، ومن طريق ابن الحباب وأبي بكر الربيدي ، وقد أبو
شمن في وقمة قنتيش ولم يوجد حياً ولا ميتاً يوم البت للنصف من ربيع الأول
سنة ٤٠٠ هـ . كذا ذكر ابن حيان وغيره . والذي ذكره أبو عمر بن عبد البر
في وفاة هذا الشيخ وهم منه .

هشام ما هو إلا حاجب الخليفة المؤيد وأن هذا الآخر هو الخليفة الشرعي
فمضى ابن ذكوان إلى البربر وأدى لهم رسالته فقال له البربر : سبحان
الله يا قاضي ، يموت هشام بالامس وتصلي عليه انت وغيرك واليوم يعيش
وترجم الخلافة إليه ؟ وجعلوا يتضاحكون منه فاعتذر ابن ذكوان لهم
عن ذلك وعاد إلى ابن عبد الجبار فأخبره بما جرى . ودخل الم Heidi حيث شد
إلى داخل القصر محاولاً الاختباء ولكنه رأى أنه من الحكمة أن يغادره
ويختبئ في مكان آخر . وهذا ما فعله حقاً ولم يعرف موضعه . أما
بالنسبة لواضح فإنه حين هبط الليل ، جمع رجاله وسار عن قرطبه
هارباً إلى الثغر .

(ولما كان يوم الاثنين ١٦ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ (٢٨١٠٠٩ م)
خرج أهل قرطبه إلى سليمان وعرضوا عليه طاعتهم فاستقبلهم أحسن استقبال
وخطفهم بلجاجة حسنة ثم عادوا إلى قرطبه .

وفي اليوم ذاته دخل زاوي بن زيري إلى قرطبة واحتل قصر
الخلافة فتبعه سليمان والكونت النصرياني وبقى أمراء وجند البراءة .
وتوجه سليمان حالاً إلى قصر الخلافة حيث عثر على الخليفة هشام المؤيد
بعد أن كان قد أظهره الم Heidi — كما ذكرنا منذ قليل — فوضعه في
جناح من اجنحة القصر وأوكل حراسته إلى بعض خدمه الصقالبة . وأعمل
البراءة النهب في بعض دور قرطبه ولكن سليمان أمر بضرب رقب أربعة منهم
جزاء لهم على ذلك ، ففك النهب وهدأت الحال .

وقد بايع القرطيون سليمان بالخلافة ثاني يوم دخوله إلى قرطبه أي في
١٧ ربيع أول سنة ٤٠٠ هـ = ٢٩ ت ٢ سنة ١٠٠٩ م فاتخذ لقب
« المستعين بالله » .

وروى المراكشي أن النصارى استخروا حينذاك بالقرطبيين حتى أن بعضهم سما سانشو جارثيا يقول : كنا نظرن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة ، فإذا القوم لا دين لهم ولا شجاعة فيهم ولا عقول معهم وإنما اتفق لهم ما اتفق من الظهور والنصر بفضل ملوكهم فلما ذهبوا انكشف أمرهم^(١)

واكرم سليمان الامير المسيحي وخلع عليه وعلى أصحابه وقدم له المدايا . ثم طلب هذا أن تسلم إليه الحصون التي وعد بها فاعتذر له سليمان وقال بأن الحصون لم تحصل في يده بعد ورجاه أن يمهله بعض الوقت كي يفي بشرطه فقبل الكونت سانشو بذلك وقنعم بما كان قد حصل في يديه وأيدي جنوده من الاموال والثروات الذهبية . ورحل مع جنوده في ٢٣ ربيع الاول سنة ٤٠٠ هـ = ١٥٢٩ م^(٢) تاركاً قرطبة لمصيرها . وقد بعث سليمان معه من يشيشه حتى اجتاز حدود الدولة الإسلامية وامن على نفسه من هجوم العرب .

(١) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠

(٢) ذكر Justo Perez de Urbel , Historia del Condado de Castilla T II p 824

أن مقادرة الكونت سانشو جارثيا لقرطبه كانت في ١٤٢٩ م

المقدمة المقالة

خلافة سليمان بن الحكم الأولى

هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر . يكفي أبو
أبوب ، أمه أم ولد رومية اسمها ظبية . ولد في سنة ٣٤٨ هـ = ٩٥٩ م
و碧بع في ١٧ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ = ١٠ نوفمبر ١٠٠٩ م فكان عمره
آنذاك خمسين سنة تقريباً .

يصفه ابن عذاري المراكشي (١) بقوله « انه كان امراً ، اعين ،
قام القامة ، اشم الانف ، عظيم الکراديس ، جليل الوجه ، حسن الادب
والشعر » . ويروى كد المؤرخ الفيلسوف ابو محمد بن حزم في « طوق الخاتمة »
سرة الخليفة المستعين بقوله : « وأما جماعة خلفاءبني مروان .. رحهم
الله ، ولا سيما ولد الناصر منهم ، فكلهم عبّولون على تفضيل الشقرة ،
لا يختلف في ذلك منهم مختلف . وقد رأينا من رأهم من لدن دولة

(١) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ٩١ -

الناصر الى الان ما منهم إلا اشقر ، زاعا الى امهاتهم ، حتى قد
صار ذلك فيهم خلقة ، حتى سليمان الفقافر رحمة الله ، فاني رأيته اسود
اللامة والماحة » .^(١)

وقد تعرض ابن حزم كذلك لذكر سليمان في مؤلف آخر مشهور
له « جمهرة انساب العرب » فقال عنه : « أنه كان في حداشه شاعرًا
بضرب بالطنبور ، وانه كان شؤم الاندلس وشوم قومه ، وهو الذي سلط جنده
من البربرة فاخروا مدينة الزهراء » .^(٢)

اما الضبي والمراسكي فيذكران أن سليمانا لما دخل قرطبة في
ريسم الآخر سنة ٤٠٠ هـ ، تلقب بالظافر بحول الله مضافاً إلى لقبه السابق
المستعين بالله .^(٣)

كان أول شيء فعله هو ازوال جنة شنجول عن الخشبة التي
كانت معلوبة عليها فضل ودفن في دار ايه . ثم اجرى سليمان بعض
التعديلات بين المهاجر والولاية واستكمل العبر في الزهراء وبدأ يبت في القضايا
التي تعرض عليه ،

(١) ابن حزم : طرق الحجارة ص ٣٨ حققه وسوبي وفهرس له : حسن كامل الصرفيف . قدم
له ابراهيم الباري القاهرة ١٩٥٠ م = ١٣٦٩ هـ .

(٢) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٩٣

(٣) الضبي ؛ بقية المانع في رجال أهل الاندلس ص ٤٨ وعبد الواحد المراسكي : العجب
ص ٤٣ . هذا ولا اعلم لماذا ذكر هذان المؤرخان بان دخول سليمان بن الحكم الى
قرطبة كان في رسم الآخر سنة ٤٠٠ هـ مع ان عدداً كبيراً من ثلة المؤرخين العرب
القدماء ومن المستشرقين المحققين أكدوا بان دخوله اليها كان في رسم الاول من
سنة ٤١٠ هـ .

ورغم أن البربر كانوا قد دخلوا إلى قرطبة دخول الظافرين إلا أنهم قبعوا بعد ذلك في مساكنهم لا يتحرشون بالقرطبيين ولا يسيئون إليهم . ولكن هؤلاء كانوا يغضونهم ويحتقرونهم ، ولذلك كانوا لا يتزكرون فرصة تمر دون أن يلحوظوا بهم الضرر والاذى . فإذا وجدوا أحداً منهم في مكان منفرد قتلوه غيلة ، وإذا صبل حصان بربري على حصان أندلسي قام العامة عليهم وهاجوهم ، وهم مع ذلك صارون يهونون سفاهتهم من أن يد أحد منهم يده إلى أندلسي .

وقد أمر سليمان بنقش اسم ابنه في السكة والاعلام والطراز ، ودعا له قاضي الجماعة ابن ذكوان فوق المنابر ونفذت الكتب في ذلك إلى جميع الامصار فكان نصبا :

« أما بعد فان أمير المؤمنين ، لما جبله الله عليه ، وحبيبه إليه ، من الاجتهد للمسلمين . والنظر لهم ، والفكر في عواقبهم ، والحرص على مصالحهم ، والاشفاق من اختلافهم ، وافتراق كامتهم ، رأى أن يجتهد لهم لماته ، كما اجتهد لهم في حياته ، بان يرفع لهم علمياً يهتدون به ، وينصب لهم وزراً يلتجأون إليه ، وموئلاً يتطلعون عليه ، يؤلف شلليم ، ويجمع كامتهم ، ويمشع عليهم ، ويسكت نفرتهم ، ويؤمن رواعتهم ، مقتدياً في ذلك بالآية المبين ، والخلفاء الراشدين ، الذين نظروا للامة من بعدهم ، وانشققا من اختلاف كامتهم ، وتفرق مذاهبهم ، عندما يفجاهم ما لا يحيى لهم عنه ولا بد منه من بعثات الاقدار ، ونفاد الاعمار ، الليل والنهر ، فاطلال استخارة الله — عز وجهه — والرغبة فيه في امداده بتوفيقه ، ومعاضدته بتسديده ، وحمله على ما فيه الخيرة له وجميع المسلمين ، وجميل العاقبة في الدنيا والآخرة ، فالقى الله في روعه

وثبت في خلده ، وقرر في نفسه ، ان محمدًا بن أمير المؤمنين أولى أهل
 بيت الخلافة بولايته عبد المسلمين غير محاب له ولا أخذ بهوادة فيه ، بل
 لما قد علمته الخاصة والعلامة من تكامل خلال الخير له ، واجتماع ادوات
 الفضل فيه ، وما هو عليه في دينه ، واهديه ، وورعه ؟ وفضله ،
 وطهارة اثوابه ، وغفار مذهبة ، وصلب نفسه ، واكتئال حامه ، وسعة
 علمه ، وكيل ادبه ، وانقطاعه باعياء الخلافة ، ومعرفته بمعانى السياسة ،
 ونفاده في التدبير والادارة ، فلم يغى امير المؤمنين ما استخاره الله تعالى
 فيه ، وعزم عليه ، وجعل ولایة عبد المسلمين محمد بن المستعين بالله امير
 المؤمنين . وهو يعتقد انه قد خرج بجماعة المسلمين عما زرمه الله من حقهم ،
 وتبرأ الى الله مما كافه من أمرهم ، وأدى الامانة التي حمله الله الاجتهد
 بجماعتهم ، وقضى ما وجب عليه من الاحتياط في الاختيار لامامتهم ، مبتغيا
 بذلك ثواب الله العظيم ، وفضلة الجسيم ، ونظرًا لامة محمد - عليه السلام -
 وتحصينا عليها ، واحتياطا لها ، وهرروا من التقصير في حقها . والله يريه
 وجماعة المسلمين الخير والخيرية واليمن والبركة والسعادة والقبطه فيما وفق
 امير المؤمنين له والحمد لله ، فأعلم ذلك من عقد امير المؤمنين وعنه
 وما انفقه من فعله ، وتقديره الى اصحاب الصلوات في جوامع عملا بالدعاء
 له في خطب الجماعي بما ادرجنا على كتابنا هذا . والله يسأل امير المؤمنين
 أن يتولاه في جماعة المسلمين بما فيه الخير لهم ، وجوبل العاقبة في دينهم
 ودنياهم ، وان يقارضه بجميل نيته لهم ، وكرم مذهبة فيهم . وانه ولـى
 المجازاة بالاحسان عن الاحسان ، والامتنان بالفضل والامتنان ، ان شاء الله ، وكتب
 في النصف من جهادى الآخرة سنة ٤٠٠ هـ .

فرار ابن هشام الى طليطلة ومحاولة اخضاعه :

كان محمد بن هشام المبدي بعد اختفائه من القصر قد بقي في

قرطبه بنتقل بين منازل أصحابه من واحد الى آخر لا يصحو من سكر ولا ير عوى عن فرق . وحدث أنه لما كان يأوي الى بيت اولئك الاصدقاء المدعو سليمان بن عيسى افتعل امره . وذلك أن صاحب المنزل خرج يوماً من بيته شراء بعض الحاجات ، ولما عاد وجد محمد بن هشام مع زوجته ، فطار صوابه غيضاً واسرع الى صاحب الشرفة فأخبره بان ابن عبد الجبار في داره . ولكن قبل ان يلقى افراد الشرطة القبض عليه شعر بذلك وخرج من المنزل فاراً برقة ثلاثة عشرة جارية (١) كن معه واتجه الى طليطلة .

اما سليمان بن عيسى ، فقد مات في داره والقبض عليه ووضع في السجن لا يوانه محمد بن هشام .

وصل المبدي الى طليطلة في أول جمادى الاولى من سنة ٤٠٠ هـ = ٢٣ ديسمبر ١٠٠٩ م ، فاستقبله اهلها احسن استقبال واظروا له ملايين وخصوصهم . فلما بلغ سليمان ذلك أمر القائد احمد بن وداعه ان يسير على رأس جيش الى طليطلة لارهاب اهلها وارغامهم على تسليم محمد بن هشام ، ولكن القائد ما ثبت ان عاد الى قرطبه ليخبر سليمان بتائيد أهل طليطلة والثغور كلها (طرطوشة وشبوة ..) بما فيه واضح صاحب مدينة سالم ، للمهدي . فارسل سليمان جماعة من الفقهاء والوزراء يقعنون أهل طليطلة بالدخول في طاعة المستعين . فلم يجدوا منهم اذنا صاغية فعادوا الى سليمان وخبروه بذلك . فلم يجد هذا مناصاً من السير بنفسه على رأس

(١) ذكر ابن عذاري المراكشي ان عدد الجواري اللواتي كن مع محمد بن هشام هو اربعة عشر جارية ولكن واحدة منهن رفضت المرووب معه فخدمت الى الخليفة سليمان بن الحكم (اليان المغرب ج ٣ من ٩٢)

جيش كثيف لاخضاع الائذن . وعاد قرطبة في ١١ جمادى الآخرة سنة ٤٠٠ هـ = ٣١ كانون ثالثى سنة ١٠١٠ م متوجاً نحو طليطلة ، فلما وصل إليها أرسل الفقهاء إلى أهلها ينصحوهم بالزوال على ارادة الخليفة قابوا ، ولكن هذا بقي يأمل في طاعتهم بدون حرب ولذلك تجاوز طليطلة وسار متوجاً نحو مدينة سالم فضرب عليها الحصار ، ولكن البرد الشديد الذي هب حينذاك وكثرة الثلوج التساقطة وقلة المؤن جعلته يرفع الحصار بسرعة ويعود إلى قرطبه في ٢٧ شعبان سنة ٤٠٠ هـ = ١٤ نيسان سنة ١٠١٠ م .

على أثر عودة الخليفة إلى قرطبة ، فر القائد ابن وداعه في جماعة من العبيد إلى طليطلة للاتحاق بمحمد بن هشام . كما فر أيضاً ابن مسلمه صاحب الشرطة ، فقوى بذلك مساعد ابن عبد الجبار وأخذ يفك باسترجاع عرشه .

في ذلك الوقت خرج واضح من مدينة سالم إلى طرطوشة وكتب من هذه المدينة رسالة إلى سليمان يطلب إليه فيها أن يغفيه من الخدمة وأن يسمع له بسكنى لورقه لينقطع عن الناس ويتبعد عنها . ولم يقصد واضح في الحقيقة من رسالته إلا المكر والخدعة إذ أراد أن يوم الخليفة سليمان بأنه زاهد في الحكم لكي يدبّه هذا في مركزه ويطلق يده في شؤون الثغر . وهذا ما حصل فعلاً إذ أن سليمان أجابه برسالة يوليه فيها النظر في أمور الثغر وجihad العدو . فسر واضح ضمناً وأخذ منذ ذلك الحين يدبر المؤامرات ضد سليمان .

استنجاد محمد بن هشام بالفرنجي :

رأي واضح أن أحسن وسيلة لإعادة محمد بن هشام إلى عرش

الخلافة هو الاستعانة بالنصارى ، فاتصل بالكتوتين النصارىين الفرحيين « رامون بوريل الثالث Ramon Borell III » وأخيه « أرمنجول Armenjol » أمير مقاطعة « أورخل Urgel » ، وطلب إليهما أن يساعداه على احتلال قرطبة . فقبل هذان مساعدته بعد أن شرطوا عليه شروطاً قاسية جداً منها أن يدفع لكل من الاميرين النصارىين مائة دينار في اليوم ، ولكل من جنودها دينارين في اليوم ، ويعهد بتقديم ما يلزمهم من الطعام والشراب وغير ذلك . كما يتعدى بعدمأخذ شيء من الغنائم التي يكنز المسيحيين أن يغنموها من معسكر البربر ، وأن نساء هؤلاء ودماءهم وأموالهم حلال لهم لا يعرض عليهم في ذلك أحد ، فقبل واضح تلك الشروط كلها ، ووعد بتنفيذها .

حينذاك ، جند الاميران المسيحيان تسعه آلاف جندي (١) بهم عدتهم وسارا على رأسهم بصحة واضح متوجه نحو قرطبة . وحين وصولهم إلى مدينة سالم وعلى الرغم من كونهم أتوا كحلفاء ل واضح فانهم لم يتورعوا عن تحويل المسجد الجامع في تلك المدينة إلى كنيسة ضربوا فيها الناقوس ، وأقاموا فيها الصلوات . ثم ساروا بعد ذلك إلى سرقسطة فاصاروا إلى أهلها أيضاً أساءات كثيرة حتى سار بهم واضح إلى طليطلة ليجتمع هناك ب ابن عبدالبار . وبلغ ذلك سليماناً ، فاستنفر الناس بقرطبه لقتال الفرنجيه ولكن لم يخرج منهم مع الجيش إلا القلائل .

موقعية عقبة البقر :

خرج سليمان من قرطبه مع جيشه في ١٤ شوال سنة ٤٠٠ هـ

(١) ذكر هنا الرقم Justo Perez Urbel : Hist. del Condado de Castilla T II p 828٩٤ م ٣ ج المغارب : البيان المأكفي

٣١ ايلار سنة ١٠١٠ م لقاء المهاجرين الذين كان يبلغ عددهم حوالي الأربعين ألف مقاتل بما فيهم الفرنجية (إذ كان عدد الجنود المسلمين المؤيدون ل واضح يبلغ ثلاثين ألفاً) فالتقى بهم يوم الجمعة في ١٦ شوال (٢ حزيران) عند عقبة البقر (١) وهو حصن منيع على مسافة عشرين كيلو متراً من قرطبه نحو الشهال (٢)، فجعل البربر خليفهم سليمان في مؤخرة الجيش ووضعوا لحراسته خيلاً من المغاربة وقالوا له: « لا تبرح موضعك ، ولو وطاتك الخيل » . ثم تقدموا فحمل عليهم الأفرنج حملة منكرة واستطاعوا للوهلة الأولى أن يخنقوا صفوتهم . فلما رأى سليمان ذلك ظن أن البربر قد انكسرت فانهزم لحيته فيمن معه . ولكن رغم ذلك فإن البربر كروا على الفرنجية كردة قوية فصدموهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم بما فيهم أميرهم « أرمنجول Armengol (٣) ، وكثيراً من قوادهم ووجوههم . كما قتل أيضاً عدد من المسلمين الذين كانوا يرافقون محمد بن هشام بينهم بعض الادباء والفقهاء أمثال محمد بن عيسى المعروف بابن البريل (٤) وغيره .

(١) ذكر هذه المعركة المفري : نهج الطيب ج ١ ص ٤٠٤ والضي : بغية الملتمس في رجال أهل الاندلس ص ٢٠ وابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٨٥ وعبد الواحد المراكشي المعجب ص ٤٢ وابن خلدون : كتاب العبر ج ٧ ص ١٥١ وابن بشكوال : الصدر قم ٣٤ و ٤٣٦ و ٥٦١ و ١٠٣٢ .

(٢) حدد المراكشي في المعجب ص ٤٢ والضي في بغية من ٢٠ الموقع الصحيح لعقبة البقر بقولهما أنها تقع بقرب قرطبه على نحو بضعة عشر ميلاً .

(٣) كان العرب يسمون هذا الأمير الصرافي « أرمقد » .

(٤) ترجم ابن بشكوال في الصدر بقوله : « محمد بن عيسى المعروف بابن البريل من أهل نظيره وفاضلها يكنى أبا عبد الله . له رحلاته إلى المشرق ووحى فيها سنة ٣٨١هـ ولقي مشيخة المصريين وأخذ عنهم ، وكان موصوفاً بالعلم والصلاح والعنفة والشجاعة والجبارية . وخرج مع المهدى محمد بن هشام لنصرته فقتل بعقبة البقر في صدر شوال سنة ٤٠٠هـ (رقم ٣٤) .

رغم توفيق البربر في هجومهم الأخير على جند المدي والفرنجية ، فانهم
لما رأوا هزيمة سليمان انسحبوا الى الظهراء فاخرجوا عيالهم وأولادهم ثم ساروا
عنها عشيّة يوم السبت ١٧ شوال (٣ يونيو) .

وقد قتل من البربر وجنود سليمان في موقعة عقبة البقر حوالي
ثلاثمائة من الشاة دون أن تحدث خسائر بين الفرسان^(١) . وكان
بين القتلى حسباً ذكر ابن بشكوال في الصله عدد من العلماء والادباء
أيضاً عرفنا منهم المحدث احمد بن بربيل المقرى^(٢) من أهل قرطبة ، والراوية
المقرى سليمان بن هشام بن وليد بن كلبي المقرى^(٣) والفقيه اللغوي المحدث عبد الله
بن احمد بن قند^(٤) .

(١) هذا ما ذكره عن خسارتهم ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ١١٥ وابن عذاري المراكشي
البيان المغرب ج ٣ ص ٩٥ .

(٢) ترجم له ابن بشكوال في الصله بقوله : احمد بن بربيل المقرى من أهل قرطبة يكتسي ابا
عمر ،أخذ عن أبي الحسن الانطاكي المقرى بقرطبه وجود مصر أيضاً وسمع الحديث
وكان أحد القراء الجبودين الحفاظ ، من أهل الحجاج والفضل ، وقتل بعقبة البقر
صدر شوال سنة ٤٠٠ هـ مع المقرى ابن الغاز و كان صاحبه .

(٣) ترجم له ابن بشكوال في الصله بقوله : سليمان بن هشام بن وليد بن كلبي المقرى المعروف
بابن الغاز يكتسي ابا الربيع (وابا ايوب) سكن قرطبه وأخذ بها عن أبي الحسن الانطاكي
وروى بالشرق عن أبي الطيب بن غليون المقرى وابي بكير الاذوي واكتز عنهما ذكره
ابوعمر بن الحذافير : كان أحظى من ثقيت بالقراءات واكتزهم ملزمة للأقراء بالليل
والنهار وكان اطيب من ثقيت صوتاً بالقرآن وذكره أبو عمرو وكان ذا ضبط وحفظه
للحروف وحسن اللقط بالقرآن وقد أخذ عنه ابو عمرو رحمة الله . وقد اصيب في وجهه
عندما كان مع سليمان المستعين في هزيمة عقبة البقر في صدر شوال سنة ٤٠٠ هـ

(٤) ترجم له ابن بشكوال في الصله بقوله : عبد الله بن احمد بن قند اللغوي من أهل
قرطبه يكتسي ابا محمد ويعرف بالطيب أخذ عن أبي محمد الاصلبي المحافظ واكتز عنه
شهر بمحالته وحضور مناظرته وعن ابي عبد الله محمد بن عقبه النحو ، وتصرف
في الاحكام وكان من أهل البراعة والمعرفة والغاذ في الفقه والحديث والاسنان في
ضروب العلم والتحقيق متيناً بعلم الغريب وحفظ اللغة . وتوفي في الواقعة التي
كانت بين سليمان بن الحكيم والمهدي بعقبة البقر سنة ٤٠٠ هـ ، وكان من اصحاب
سليمان ومن رفع مكانه وادنه ، ذكره ابن حيان .

على أثر رحيل العبر عن الزهراء ، خرج عامه أهل قرطبة إليها
فهربوا ما وجدوا فيها من متعة وأثاث ، كما قتلوا من وجدوا منهم فيها
ودخلوا جامعاً فيها فهربوا حصره وقاديله ومصاحفه وسلاسل قناديله وصفائح
ابوابه . وفي ذلك اليوم ذاته دخل محمد بن هشام وبرفقته واضح والجنود الفرنجة
إلى قرطبة فعادت خلافة المهدى للمرة الثانية .

الخلفة الرابع

خلافة محمد بن هشام المهدى الثانية

دخل المهدى قرطبه في اليوم الذى فر فيه البربر من ازهرا ، وأخذت له البيعة في اليوم الثاني من دخوله أي في ١٨ شوال ٤٠٠ هـ (٤ حزيران ١٠١٠ م) . وكان أول من بايعه هشام بن الحكم المؤيد ثم سائر أهل قرطبه على اختلاف طبقاتهم . ولم تدم خلافة الثانية هذه أكثر من تسعة واربعين يوماً كاسنة .

يقول ابراهيم بن القاسم (١) ان ابن عبدالجبار واضح ومن معه ما قتلوا حين دخولهم الى قرطبه كل بربر أو شبيه بالبربر ، حتى انهم قتلوا الكثيرين من لا يتوتون الى البربر بصلة ظلماً منهم وتحملاً . وكان كل من يدنه وبين أحد عداوة يقول هذا بربر فقتل حالاً ، وقد قتلوا الاطفال وشقوا بطون الحوامل وانهكوا الاعراض واحتطف احد النصارى ابنة جميلة لرجل من أهل البادية ، وعرف ابوها الشخص الذي احتطفها

(١) ابراهيم بن القاسم عن ابن عذاري المراكشي : اليان المغرب ج ٢ ص ٩٧

فذهب الى واضح وقال له : « ان فلانا النصراوي اخذ ابني وهي ليست ببربرية » فاجابه واضح : « لا تتكلم في شيء من هذا ما الى ردها من سبيل ، إذ انا عاهدناهم على ذلك حين طلبنا مساعدتهم » . ففي الرجل باكيماً الى النصراوي وطلب اليه رد ابنته مقابل اعطائه اربعين دينار فأخذ منه المال وقتلها . وبلغ استخفاف النصراوى باهل قرطبه اقصاه إذ صاروا ينالون من معقداتهم علينا دون أن يجرأ هؤلاء على ردعهم عن ذلك .

وكان محمد بن هشام قد حلف منذ دخوله الى قرطبه الا يقر له قرار قبل أن يفرغ من أمر البربر ، ولكن كان عليه أن يتخذ بعض الاستعدادات التي تكلفه مالاً كثيراً ، كما كان عليه أن يدفع اعطيات الحند النصراوى وبيت المال خاو تقريباً فطلب من القرطبيين أن يجمعوا له مالاً فعملوا وسلموه اليه فدفع لانصارى اعطياتهم وتصرف بالباقي .

الملاعنة بالبربر : معركة وادي آره :

لما تمت استعدادات المهدى وجيشه لقتال البربر ، قصد واضح وبعض الوجاهة الى الفرنجية فطلبوها اليهم القيام معهم لقتالهم ، فتناقلوا ولذكهم بعد الرجاء والتذلل اجابوهم الى مطلبهم وساروا معهم لخاربة البربر .

سار في مقدمة الجيش واضح وجنوده يتبعهم النصراوى ومحمد بن هشام ثم من خرج معهم من أهل قرطبه والبادى ، وكان عدد ذلك الجيش حوالي اربعين ألفاً ، منهم تسعة آلاف من النصراوى .

أما سليمان بن الحكم المستعين بالله فكان قد فر من قرطبه حين دخول المهدى إليها واتجه مع عدد من اصحابه نحو شاطئه *Ja'tiva* وأما

البربر فقد اتجهوا بعد خروجهم من الزهراء نحو وادي ارث Guadiara يعيتون وينهبون في تلك الانحاء ما شاء لهم المبت والنهب^(١). وكان من الطبيعي ان يتوجه جيش المهدى الى وادي آرث مباشرة للافة القسم الاكبر من انصار سليمان وهم البربر.

وحدث اللقاء في ٦ ذي القعدة سنة ٤٠٠ هـ (٢١ يونيو ١٠١٠ م) عند النقطة التي يلتقي فيها نهر وادي آرث مع نهر الوادي الكبير^(٢)، فنشبت بين الجماعتين معركة عنيفة ، ورغم أن عدد البربر لم يكن يزيد على عشر عدد جيش المهدى فقد انتهى القتال بهزيمة واضح ومحمد بن هشام والفرنجية هزيمة كاملة وقتل من الفرنجة أكثر من ثلاثة آلاف قتيل ، وغرق منهم بواudi السقائين : وهو وادي آرث خلق كثیر . واحتوى البربار على ما في عسكره وعسكر واضح وابن عبدالجبار من مضارب ومال وسلاح ودواب ، ووصل المهزومون الى قرطبة ثان يوم الواقعة . وكان بين القتلى اسقف مدينة حيرونه Gerona المسماى اوتون Oton والذي كان رئيساً لدير Sau Cugat de Vales حين احرق المتصور هذا الدير في حملة سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٥ م) التي قام بها ضد كاتالونيا . وكاد اوتون أن يقع أسراً حينذاك في يد جنود المتصور ولكنه هرب لكي يلاقي

(١) ذكر ابن الخطيب : اعمال الاعلام من ١١٥ ان البربر خرجوا من الزهراء سارين بسلام واولادهم يحملونهم على سروج دوابهم وغير ذلك ، الى جهة البحر - الزقاقى تجاه بلادهم الغربية ونزلوا بواudi آرث من احواز مربلة Marbella

(٢) حدّ هذه الموقعة المؤرخ الإسباني Justo de Urbel : Hist. de Condado de Cast. T II p. 82

المصير المحتوم بعد ذلك في معركة وادي آره^(١) . كما كان بين القتلى وزير يهودي لامير الفرنجة وجد البربر في مضربه ثلاثة الف مثقال من الذهب كا وجدوا احزمة الجنود الفرنجة مليئة بالدنانير والدرام . وقد حاز جيش سليمان على ما في المعسكر المعادي من المال والسلاح والدواب واللباس .. فكان غنائم في ذلك اليوم لا يعادله غم . وقتل من البربر يومئذ ابو يudas بن دوناس اليفرني وكان من اقوى البربر واشبعهم . كما قتل من بني يفرن وبني برزال سبعة عشر فارساً ومن سائر البربر خمسة عشر فارساً^(٢) .

أمام هذا الاتصار الساحق لانصار سليمان بن الحكم على جيش المهدى ، لا بد للانسان أن يتساءل عن الاسباب التي أدت الى تلك النتيجة الغير مرتبطة طالما أن جيش المهدى كان عدده عشرة اضعاف جيش العدو ؟

والجواب على ذلك فيما اعتقد هو أولاً أن المعركة بالنسبة للبرابرة كانت معركة حياة أو موت . فاما أن تستأصل شاقتهم واما ان يتتصروا وينقدوا انفسهم ويعا لهم من المصير الذي كان ينتظرون . فكان

E: levi - Provençal : Hist . de l'Esp
mus. T II p 314 Justo Perez de Urbel : Hist . del Condado
T H p 828

(١) ذكر موت هذا الاسقف .
(٢) أرى في هذه الارقام التي ذكرها بعض المؤرخين عن خسارة الجيش نوعاً من المبالغة ، إذ من المستبعد ان يقتل في المعركة ثلاثة آلاف من جيش المهدى بينما يقتل حوالي ثلاثة فقط من انصار سليمان . مع ان الجيش الاول يفوق الثاني عشرة مرات في العدد .

كل واحد منهم يقاتل قتال المستميت تدفقه غزيرة حب البقاء والدفاع عن النفس ، خاصة وانهم كانوا هم المهاجمين لا المهاجدين . وثانيا لا شك بأن المهدى ومن معه من الجيوش والجنود الفرتنجية كانوا مفرورين بعدهم وقوتهم فلم يخوضوا المعركة بالحماس الفروري وظفروا انهم سيربحون الحرب منذ الجولة الاولى ، فما عتموا أن اكتشفوا عكس ذلك ولم يعد بوسعهم تلقي الامر فاسقط في أيديهم وبلغوا إلى المزية . وبالدرجة الثالثة اعتقد أن النصارى لم يقاتلوا قتلاً مخلصاً مع ابن عبد الجبار ، إذ رأيناهم يتلقاون بالنهوض إلى القتال منذ أن طلب إليهم الخليفة المهدى المسير معه للاحق البربر ، فقد كان يكفيهم انهم انتصروا في موقعة عقدة البقر وكانتوا يريدون أن يبقوا في قرطبة يتمتعون بحملة النصر وينحدرون إلى الراحة ويتقاضون جزاء مساعدتهم للخليفة الجديد . فاما اصطروا إلى الاشتراك في هذه الحرب الثانية كان حمسهم اضعف منه في المرة الاولى .

فإذا اضفتنا إلى هذه الامثلية السابقة كاها ما عرف عن البربر من جرأة وشجاعة وجاذبية وقوة ، استطعلنا أن نفهم كيف استطاعوا بمحبس لا يزيد عن الاربعة آلاف جندي الانتصار على جيش يفوق بعده عشرة اضعاف الجيش المعادي .

على أي حال ، انكسر المهدى وجيشه ورددوا إلى قربه يجررون اذياهم المزية والخيبة .

حال المهدى بعد المعركة :

وصل جند المهدى بعد تلك المزية إلى قرطبة ، حاقين على البربر حاملين عليهم . وطلب محمد بن هشام واضح إلى الفرنجية أن يعودوا لقتال

البربر ولكن هؤلاء امتهوا ، وبعد أن مكثوا بضعة أيام في قرطبة يستريحون من عناصر المعركة رحلوا عنهم في ٢٢ ذي القعدة سنة ٤٠٠هـ (٨ يوليو سنة ١٠١٠ م) تاركين ابن عبدالجبار لمصيره .

أما البربر فقد اتجهوا على أثر المعركة إلى ناحية « ريشة » وأقبل سليمان بن الحكم « المستعين بالله » من الشرقيين اجتمع له وانضم إليهم وساروا جميعاً في اتجاه قرطبة .

بعد رحيل الفرنجية عاد المهدى إلى فرض كيات جديدة من الأموال على القرطبيين بنية الخروج ثانية لقتال البربر . وفمنا اصطحب معه واضحاً وجنوده وخرجوا جميعاً للانتقام من البربر . وكان يبذدو عليهم في بادئ الأمر الشجاعة والزم ولكل منهم لما ساروا حوالي ثلاثة كيلومترًا وعمر فروا بأنفسهم يقتربون من البربر تهيئوا الدخول في معركته الجديدة معهم وكرروا عائدين إلى قرطبة .

لدى وصول المهدى إلى العاصمة ، أمر حالاً بمحفر خندق حول المدينة وأقامه سور وراءه للدفاع عنها ، وحدث أن وصل إلى قرطبه آنذاك جملة من العبيد الماعريين من شاطئه وغيرها منهم عنبر وخيران الصقلبيان كما وصل معهم منذر بن يحيى صاحب سرقسطة بعدد من جنده ، فسر محمد بن هشام بوصولهم ولم يدر أنهم كانوا في الحقيقة حاذقين عليه لما فعله بعد الرحمن بن أبي عامر وبالمؤيد هشام من بعده .

يقول ابن الأثير (١) في هذا الصدد : « إن ابن عبد الجبار جعل

(١) ابن الأثير: الكامل ج ٧ ص ٨٥

الحجابة لواضح وتصرف بالاختيار ، ثم ان جماعة من الفتىـان العـامـريـين منهم عـنـبر وـخـيرـان وـغـيـرـهـا كانوا معـ سـليمـان ، فـارـسـلـوا إـلـى إـبـنـ عـبدـالـجـبارـ يـطلـبـونـ قـبـولـ طـاعـتـهـمـ وـأـنـ يـجـلـهـمـ فيـ جـمـلةـ رـجـالـهـ ، فـاجـبـهـمـ إـلـىـ ذـلـكـ . وـأـنـاـ فـلـوـاـ ذـلـكـ مـكـيـدـةـ بـهـ لـيـقـتـلـوهـ ..»

فـاذـتـ نـفـهـمـ مـنـ كـلـامـ إـبـنـ الـأـثـيـرـ بـشـكـلـ وـاضـحـ أـنـ هـؤـلـاءـ العـيـدـ العـامـريـينـ الـذـيـنـ قـدـمـواـ قـرـطـةـ كـانـ مـعـظـمـهـ حـاقـدـيـنـ عـلـىـ مـحـمـدـ بـنـ هـشـامـ ، مـوـالـيـنـ ، اـسـلـيـمـانـ رـاغـبـيـنـ فـيـ التـخلـصـ مـنـ الـمـهـديـ .

وـكـانـ الـبـرـ يـغـيـرـونـ فـيـ كـلـ يـوـمـ عـلـىـ اـنـخـاءـ قـرـطـهـ لـاـ يـجـسـرـ أـحـدـ عـلـىـ اـخـرـوجـ إـلـيـهـ . وـاسـتـولـواـ عـلـىـ الجـبـلـ الـمـعـرـوفـ «ـ يـشـترـ »ـ حـيـثـ كـانـ يـأـوـيـ اـنـ حـفـصـوـنـ الشـائـرـ الـذـيـ اـزـعـجـ اـلـخـلـفـاءـ الـأـمـوـيـنـ مـدـةـ عـشـرـيـنـ عـامـاـ ، وـكـانـ هـذـاـ الجـبـلـ غـنـيـاـ بـعـائـهـ وـمـرـاعـيـهـ وـمـزـارـعـهـ ، فـزادـ ذـلـكـ فـيـ قـوـتـهـ .

وـبـدـأـتـ الـحـالـةـ الـاـقـصـادـيـةـ تـسـوـءـ فـيـ قـرـطـهـ ، وـبـدـأـ الـمـهـديـ يـعـتـدـيـ عـلـىـ حـقـوقـ التـجـارـ وـيـضـيقـ عـلـىـ أـهـلـ قـرـطـهـ وـهـوـ مـعـ ذـلـكـ مـنـهـمـ فـيـ اـسـتـهـنـارـ وـفـسـقـهـ حـتـىـ أـنـ صـاحـبـهـ وـاضـحـاـ نـفـسـهـ يـشـ منـ حـكـمـهـ وـقـرـرـ مـعـ طـائـفـةـ مـنـ الـعـيـدـ العـامـريـينـ التـخلـصـ مـنـهـ (١)ـ .

مقـتـلـ مـحـمـدـ بـنـ هـشـامـ الـمـهـديـ :

يـذـكـرـ بـعـضـ الـمـؤـرـخـيـنـ أـنـ وـاضـحـاـ هـوـ الـذـيـ بـدـأـ بـفـاتـحةـ عـنـبرـ وـخـيرـانـ

(١) يـسـكـلـمـ اـبـنـ الـحـطـيـبـ عـنـ الـحـالـةـ فـيـ قـرـطـهـ إـنـذـاكـ يـقـولـ : «ـ وـاجـفـ اـبـنـ عـبدـ الـجـبارـ بـالـنـاسـ ، فـغـرـوـاـ عـنـهـ ، وـتـهـامـوـاـ بـهـ ، وـبـدـأـلـمـ سـوـءـ مـاـ اـدـخـرـ هـمـ الـقـدـرـ مـنـ اـيـامـهـ ، وـاحـسـواـ بـعـقـابـ اـتـهـ اـيـاهـ فـيـ بـطـرـ الـعـاـيـةـ الـفـتـرـةـ بـدـوـلـ الـعـامـرـيـةـ الـتـيـ مـلـوـهـاـ وـسـمـوـاـعـيـمـهـ ، وـضـجـواـ مـنـ مـوـاصـلـةـ جـهـادـهـ فـيـ سـوـمـ الـجـوارـ وـكـفـرـانـ الـحـقـ »ـ .

وغيرها من العبيد العاملين بموضع اغتيال المهدى ، بينما يذكر آخرون أن هؤلاء هم الذين استملاوا واضحا اليهم وجعلوه يوافق على قتله . والهم بالنسبة اليانا أن واضحا كان على وفاق مع بعض العبيد العاملين على قتل المهدى . فلما كان يوم الاحد ٨ ذي الحجة سنة ٤٠٠ هـ (١) ٢٣ - ١٠١٠ م قدم هؤلاء الى قصر الخليفة فادخلتهم واضح إذ كان قد كفه المهدى بحراسة باب القصر فاستولوا على مختلف اقسامه ثم اخرجوا المؤيد بأنه فاجلسوه في مجلس الخليفة ولما تم لهم ذلك دخلوا على ابن عبدالجبار فاخرجهوا واقعدوه بين يدي المؤيد فأخذ هذا يوبنه ويعدد مساوئه وما ارتكبه من القبائح ثم جره أحد العبيد العاملين المعروف « بالشفق » فذبحه بالاشتراك مع المتأمرين الآخرين وقطعوا رأسه ثم رموا جثته في الشارع فسقطت في نفس الموضع الذي كانت فيه جثة ابن عسقلانجه حاكم المدينة الذي قتله محمد بن هشام حين قيامه بالثورة .

وقد رفع رأس المهدى على رمح في نفس اليوم وطيف به البلاد كلها ثم عاثوا بجثته فقطعت يده ورجله ..

وأرسل واضح برأس المهدى الى معسكر سليمان بن الحكم داعياً اياه للدخول في طاعة هشام ، مؤملاً الحصول على تأييده مقابل قتله للمهدى ، فأبى ذلك سليمان وجنده وأغلظوا الكلام للرسول الذين اتوا بالرأس بل أرادوا قتالهم . واظهر سليمان الحزن على ابن عم المهدى وبكي عليه وأمر بتقطيف الرأس وحفظه موقتاً .

(١) ذكر ابن الائير ؛ الكامل ج ٧ من ٨٥ ان مقتل محمد بن هشام حدث في ٩ ذي الحجة سنة ٤٠٠ هـ . وذكر ابن بشكوال في الصاله خبراً لو أخذنا بفадه لاضطررنا الى تأخير مقتل المهدى عدة أيام إذ قال : ان محمد المهدى كان قد شهد جازة أحد القرطبيين تسعه عشر يوماً قبل وفاته وبحدد ذلك اليوم بـ ٢٤ ذو القعدة سنة ٤٠٠ هـ (١١) يوليو ١٠١٠ م مما يجعل من المستحيل حصول وفاته يوم ٢٣ يوليو إذ بين ١١ و ٢٣ يوليو لا يوجد تسعه عشر يوماً بل أقل من ذلك .

هذا وقد كان للمهدي في قرطبه ولد حديث السن اسمه عبيد الله وعمره
 يومئذ سنتين عشرة سنة احتل بعض اصحاب ابيه فهربوا به الى طليطلة فامر اهلها على
 انفسهم ودخلوا في طاعته . ولما وصل رأس المهدي الى سليمان بن الحكم ونephه أمر
 بارساله الى ولد المهدي في طليطلة ، فاما رأه هذا اعظم قتل ابيه ودعنه نفسه
 لاسترجاع عرش ابيه . ولكن لقيه محارب التعبجي فهزمه وأخذه اسيراً وارسل
 به الى واضح فقتله . وبقتل عبيد الله بن محمد بن هشام انفرض عقب الخليفة المهدي ،
 إذ لم يكن له علاوة على ولده ذاك سوى ابنة تزوجها محمد بن عبدالجبار بن عبدالعزيز
 بن الناصر (١) ، ولذلك فان الخلافة لن تعود الى عائلته إلا في شخص اخيه
 عبدالرحمن الملقب بالمستظر بالله في سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) .

(١) ابن حزم : جهرة انساب العرب ص ٩٢

الفصل الخامس

خلافة هشام بن الحكم، المؤيد» الثانية

نسبه ، صفتة ، اعماله الاولى :

هو هشام بن الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل . كان يكنى بـ «أبي الوليد» ويلقب بالـ «مؤيد» . أمه أم بشكتسيه^(١) ابنتها صبح ، كان لها حظتها عند مولاها الخليفة الحكم . وتوفيت في خلافة ابنها هشام . بويع له في المرة الأولى يوم الاثنين في ٤ صفر سنة ٣٦٦ هـ (١٢ أكتوبر ٩٧٦ م) بعد من ايمه وهو ابن احدى عشرة سنة وبضعة أشهر .

وقد خلع كما رأينا في سياق كلامنا عن ثوره محمد بن هشام يوم الأربعاء في ١٦ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٥ فبراير ١٠٠٩ م)

(١) بشكتسيه : تعي من بلاد البشكنس (الباسك) وهي منطقة واقعة في شمال إسبانيا .

فكانت مدة خلافه الاولى بذلك ثلاثة وثلاثين تقريرًا . ثم عاد الى الخلافة
ثانية بعد مقتل محمد بن هشام بتاريخ ٨ ذي الحجه سنة ٤٠٠ هـ (٢٣
يوليو ١٠١٠ م) وفي الظروف التي ذكرناها آنفاً ، وبقي فيها الى أن خلعه منها
ال الخليفة سليمان بن الحكم المستعين بالله .

ويصفه ابن عذاري المراكشي قوله : « انه كان ايماناً ، اشهلاً ،
اعيناً ، خفيف العارضين ، يميل لورت لحيته الى الحمر حسن الجسم ،
قصير الساقين ، مائل الى المبادرة والانقباض ، مقبل على تلاوة القرآن ودرس
العلوم ، كثير الصدقات على أهل الستر من الضففاء والمساكين (١) » .

كان واضح العامري يطمع بعد نجاح مؤامرته على ابن عبد الجبار
واعادة هشام المؤيد الى عرش الخلافة ان يصبح حاجباً لهذا الاخير فيتحكم
في مصائر الدولة كما فعل قبله المنصور بن أبي عامر حين استلم منصب
الحجابة . وهذا ما حصل فعلاً إذ أنه بعد أن قال هشام المؤيد بيعة
الناس من جديد ، عين الفقي واضح لحجابته وسلم اليه أمور دولته واوصى
الناس بسماع كلمته .

وبعث واضح كلامه ذكرنا في نهاية الحلقة الماضية برأس ابن عبد الجبار
إلى سليمان المستعين بالله مع كتاب يدعوه فيه مع جماعة من البر للدخول
في طاعة الخليفة هشام ، ولكن هؤلاء رفضوا كلامه معتبرين أنه ي يكن
لكتاب واضح أي تأثير على سليمان وجنته باستثناء أن أحد القواد المدعو
عبد الرحمن بن مناوه ، لما بلغه مهلك ابن عبد الجبار عدوه اللدود ،
كاب واضح واستوفق منه ثم هرب إلى قرطبه فاستوزر لهشام مدة بعد

(١) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٧٧

قتل واضح وعلي بن وداعه في اخبار طوبية الى أن ضعف أمر هشام ودخل عليه سليمان^(١).

وصار هشام في خلافته الثانية هذه يظهر كثيراً للناس رجاءً أن يتصل ذلك بالبربر فيتشر امرهم ويدخلون في طاعته تاركين سليمان وحيداً، ولكن هؤلاء كانوا مليئين بالحقد على أهل قرطبة الذين ارتكبوا معهم فيها مسبق مختلف أنواع القبائح.

وأصدر هشام أمره الى الجندي وأهل العاصمة بالحذر والاحتياط من مكائد البربر ، فاجه الناس وايده ، ولكن ترافق اليه أن نفر أمناء أممية بقرطبة قد كاتبوا سليمان وتماهدوا معه على أن يأتي مع جنده الى قرطبة في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٤٠٠ هـ (١١ أغسطس ١٠١٠ م) فيفتحوا له الابواب ويسلموا اليه البلد فما كان من هشام إلا أن قبض عليهم ووضعهم في السجن . ثم لما حان اليوم المقرر لقدمهم سليمان وجشه الى قرطبة ، سار هؤلاء متوجهين نحو العاصمة بنية الاستيلاء عليها ، مطمئنين الى انهم سيجدون ابواب المدينة مفتوحة أمامهم ، غير عالين بما حل بخلفائهم في الداخل . فلما أصبحوا على مسافة قصيرة من قرطبة فوجئوا برؤبة الخليفة المؤيد على رأس جيشه ونفر كبير من أهل قرطبة قادمين لقتالهم ، فما كان منهم إلا أن عادوا القبرى فتبعهم جند هشام دون أن يستطيعوا الالحاق بهم واتهى الامر دون نزوب قتال^(٢).

(١) ابن حيان عن ابن سبام ، الذخيرة - القسم الاول - المجلد الاول من ٣٢

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ٧ ص ٢٤٨

البربر يحاصرون قرطبه ويغزون عليها :

أخذ جنود سليمان يغزون من حين لآخر على أطراف قرطبه يقتلون وينهبون ويعيثون دون أن يجرأ أحد من القرطبيين على الخروج إليهم ، بل ظلوا يحتمون وراء الأسوار لا يتتجاوزونها شبراً واحداً . وطالت الحال على هذا الشكل والاضطراب يزداد يوماً عن يوم والاموال تنقص وعدد القتلى يتضاعف . زد على ذلك كله أن الوباء والمرض انتشر في قرطبه وأخذوا يفتakan باهلها « ومع ذلك فانهم كانوا حريصين على قتال البربر رغم عجزهم عنه . وأمر الخليفة هشام بمحفر خندق عميق حول المدينة وبشاء سور صغير أمام السور الكبير لتعزيز الدفاع عن المدينة . وكان واضح يرسل في كل يوم فريقاً من أهل قرطبة لمناوشة البربر فلا يتتجاوزون الخندق المحفور حول المدينة ويصاب منهم عدد فيمودون ويكترون الكذب ويدعون بأنهم هزموا البربر وقتلوا منهم عدداً كبيراً .

ودخلت سنة ٤٠١ هـ والخالة لم تغير ، بل على العكس ازدادت اعتداءات البربر على قرطبة فشددوا الحصار عليها مدة خمسة وأربعين يوماً فلم يستطعوا فتحها ، إلا أنهم تمكنوا في ٢٣ ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ = ٤ نوفمبر ١٠١٠ م من احتلال مدينة الزهراء . ويصف لنا ابن الأثير (١) كيفية احتلال المدينة فيقول : فازل سليمان قرطبه خمساً وأربعين يوماً فلم يلتكها ، فانتقل إلى الزهراء وحصراها وقاتل بها ثلاثة أيام ، ثم ان بعض الموكلين بحفظ أحد الأبواب سلم إليه الباب الذي هو موكل بحفظه فصعد البربر السور وقاتلوه من عليه حتى ازالوه وملكوا البلد عنوة وقتل أكثر من به من الجندي ، وصعد أهل الجبل واجتمع الناس بالجامع فاخذهم البربر

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٤٩

وذجوم حتى النساء والصبيان والقوا النار في الجامع والقصر والديار فاحترق أكثر ذلك ونهت الأموال .

وعلى أثر ذلك خاف وأضيق أن يصل البربر إلى قرطبة عن طريق مدينة الرصافة ، فاطلق يد العادة على هذه المدينة فخربوها وأحرقوها وقطعوا ثمارها .

وبقي البربر في إزهاء حتى الخامس والعشرين من شعبان إذ غادروها حينذاك وضاعفوغارتهم على أطراف قرطبة . ولما كثير من أهل البوادي إلى قرطبة خوفاً من البربر حتى صار عدد اللاجئين إليها أكثر من سكانها الأصليين . ولم يكن في المدينة من المؤمن ما يكفي لذاك العدد فضخم ثلات الكثيرون جوعاً وفنت المواشي . ولم يكفل البربر بمحصار قرطبة وبماجتها والعيث في إخائها ، بل توجه قسم منهم إلى مالقة Malaga فعادوا في نواحيها وقتلوا عدداً من أهلها ثم اتجهوا إلى البيرة Elvira ، فهربوا وخرموا وسبوا النساء وصادروا الأموال ثم عادوا إلى مالقة ثانية ولكن أهلها طلبوا منهم الأمان ودفعوا لهم سبعين ألف دينار على أن يتركوهم بسلام ، فنادرهم البربر متوجهين إلى الجزيرة الخضراء Algeciras فهاجروا وقتلوا بعض أهلها وهدموا بعض دورها وسبوا من نسائهم ، فارسلوا بعضهم إلى دار الصناعة وتزوج البعض الآخر من جنود البربر ومات الكثيرات منهم . وقطع انصار سليمان طريق المؤمن عن قرطبة فاشتد الجوع بهم .

وعلى الرغم من ذلك كله فإن أهل قرطبة كانوا يرفضون الكلام في الصلح مع البربر حتى أن رجلاً من وجوه أهل العلم قال في الجامع : « اللهم اصلاح علينا » فقتل في مكانه ، وقال آخر في الجامع : « ان

الله احب الصلح ، فقتل في الحين ، وصعدت امرأة على كتفها جرة من الوادي فوقعت الجرة عن كتفها وانكسرت فشاتم الناس منها وقتل ... الى غير ذلك من الافعال التي كانت تزيد الحالة اضطراباً وسوءاً^(١).

ولم يهمل أى من المؤرخين القدماء أو المحدثين وصف الفارات والهجمات التي قام بها سليمان وجنده في جميع أنحاء الاندلس في الفترة الواقعة بين ٤٠٠ - ٤٠٣ هـ (١٠١٠ - ١٠١٣ م) ، كما انهم لم يغروا ساكنين على المصاعد والاهاوالي قياماها أهل قرطبة في تلك السنوات الثلاث مما دعا فياسوف الاندلس وعاليها ابو محمد ابن حزم الى أن يصف سليمان بن الحكم « بأنه شئون الاندلس وشئون قومه ، لانه سلط جنده من البربرة ، فاخلوا مدينة الزهراء وجمهور قرطبة حاشي المدينة وطرفا من الجانب الشرقي ، واخلوا ما حوالى قرطبة من القرى والمنازل والمدن وافتوا أهلها بالقتل والسي وهو لا يذكر ولا يغير »^(٢).

كما ان ابن خلدون يصف تلك الحالة بقوله : « استمر البربرة على حصار قرطبة والمستعين بهم ، ولم يجسر أحد على الخروج اليهم . والبربرة يتربدون إليها ذاهبين وجائين بتنوع التهب والفتث إلى أن هلكت القرى والبساط وعدمت المرافق وضاقت أحوال أهل قرطبة وجدهم الحصار »^(٣).

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ١١٧ وابن عذاري المراكشي اليبيان المغرب ج ٣ ص ٩٩

(٢) ابن حزم جهزة انساب العرب من ٩٣

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ١٥١

وأما ابن الأثير فيقول : « إن البربرة نزلوا قريباً من قرطبة في سنة ٤٠١ هـ وجعلت خيلهم تغير يميناً وشمالاً وخرروا البلاد . . . إلى أن يقول : « ثم نازل سليمان قرطبة خمساً وأربعين يوماً فلم يلكلها ، فانتقل إلى الزهراء وحصراها وقاتل من بها ثلاثة أيام . ثم أت بعض الوكلين بمحفظ أحد الآبوات سلم إليه الباب الذي هو موكل بمحفظه : فصعد البربر السور وقاتلوه من عليه حتى ازدوجه وملكونا اللبل عنوة وقتل أكثر من به من الجندي ، وصعد أهل الجندي واجتمع الناس بالجامع فأخذهم البربر وذبحوهم حتى النساء والصبيان واقموا النار في الجامع والقصر والديار فاحتراق أكثر ذلك ونهبت الأموال ». (١)

ويذكر كل من العجب والبغية نصاً بنفس المعنى : « خرج المستعين عن قرطبة في شوال من سنة ٤٠٠ هـ ، فلم يزل يجول بمساكن البربر معه في بلاد الاندلس ، يقصد ويذهب ويقر المدائن والقرى بالسيف والغارة ، لا يبقى البربر معه على صغير ولا كبير ولا امرأة ، إلى أن دخل قرطبة في صدر شوال من سنة ٤٠٣ هـ ». (٢)

وأما ابن الخطيب فيقول : « في أخريات ربيع الأول من هذه السنة ، نزلوا قرطبة ودخلوا مدينة الزهراء . وانضم الخلق من الأحواز إلى المدينة ، وانتشرت الغارات ، وعظم الميث فيها اتصل بالبلاد . وانتشر البربرة على كور الاندلس مالقاً والبيزة وما اتصل باحواز قرطبة ، يخربون الديار ، ينسفون النعام ، ويسبون الحريم ، ويصادرون بالفداء من يتهم باليسار من الرعية . وطلبو الناس بالأموال ، وقطعوا الميرة عن قرطبة ، فاشتد

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ٧ ص ٢٤٨ وما بعدها

(٢) عبد الواحد المراكشي : العجب من عجائب وonders المقادير ص ٦٦

الغلام ، وعظم البلاء^(١) .

و كذلك يتعرض القرى و ابن بسام و ابن بشكوال وغيرهم في كثير من مواضع كتبهم لهذه الحوادث الآفنة الذاكر مما يلقي ضوءاً لا يأس به على تلك الفترة المضطربة من تاريخ الخلافة الاموية .

استنجد سليمان بن الحكم بالنحاري - تسلیم الحصون لرسول قشتاله :

في وسط ذلك الجو المكفر ، وحيال عجز سليمان عن دخول العاصمة قرطبة ، كتب إلى الكونت مانشو جارثيا Sancho Garcia امير قشتاله كتاباً يطلب فيه أن يهب إلى مساعدته ضد الخليفة المؤيد وحاجبه واضح وبعده أنه ميسلاه في حال النصر بعض الحصون التي كان المنصور بن أبي عامر قد استولى عليها .

ما إن وصل الكتاب إلى الكونت المسيحي حتى بادر بارسال رسالته إلى قرطبة يشرح للمؤيد بواسطتهم الوضع ويطلبه على خبر استنجد سليمان به ويطلب إليه وإلى حاجبه واضح أن يسلموا إليه حالاً الحصون التي كان قد وعد بها سابقاً ، وإلا اضطر لمساعدة سليمان بن الحكم على فتح قرطبة .

اضطرب هشام لدى وصول الرسل القشتاليين واحتار في أمره واستشار وزراءه ووجهاء المدينة في ذلك فشارروا عليه بتسليمها خوفاً من أن ينجدوا سليماناً وحرصاً على إبقاء العلاقات السامية معهم .

واستجابةً لأهل قرطبة لطلب رسول الكونت مانشو جارثيا وعقد في

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ١١٧

قصر الخلافة اجمعوا كثير حضره الخليفة نفسه والوزراء والفقهاء والقواد والوجاهاء . . وعقدت خلاله معاہدة تعهد فيها النصارى بالا يهاجموا الاندلس مقابل حصولهم على بعض الحصون الهامة مثل وسمه Garmaj Atienza San EstePan شنت استين انتيسه Pan وغیرها من الحصون .

وقد اقتبس الكتاب على من حضر على الناس ثم خرجوا من القصر فرحين بما حدث ناسين ان الحصون التي تجدهم الخليفة الحكم بن عبد الرحمن الناصر والحاچب النصوري بن ابي عامر وابنه المظفر في سبيل احتلالها المشقات والاهوال ^(١) . ويدرك ابن خلدون في صدد ذلك ما يأتي : « بعث المستعين والبربر الى ابن اذفونش (يعني سانشو جارثيا) يستقدمونه لظهورتهم فبعث اليهم هشام المؤيد حاجبه يكفونه عن ذلك بان زلوا له عن ثور قشتالة التي كان النصوري اقتحماها فسكن عرفه وسكن عن ظواهرتهم » ^(٢) .

(١) ذكر اسماء بعض هذه الحصون E.levi-Provençal Hist de l'Esp. mus. T II p 316 Justo Perez de Urbel : Hist. del Condado de Castilla T II p 831

هذا ويضيف المؤرخ الانجليز ان عدد الحصون التي اعطيت لاسشو جارثيا كان يبلغ حوالي المائتين انا لم تسلم كلها له في ذلك الوقت بل ان عدداً منها بقي في حكم الوعد، واعطي له ضيانت على ذلك خسون شخصاً من وجهاء المدينة يخفيظ بهم كرهينة حتى يحصل تسليم الحصون له . هنا ولم يعدد الاب « دي اوريل » كل اسباء الحصون التي قال بان سانشو جارثيا قد وعد بها انا ذكر منها عدما سبق ذكره اعلاه ثلاثة اسباء فقط هي Berlanga Gastrabon Meconia ، Berlanga Gastrabon وقل بان

Berlanga يقع على بعد بضعة كيلو مترات في جنوب نهر دوير وأما الحصان الاخران فانه لم يستطع العثور على موقعهما بالضبط اما يرجع ان يكونا واقفين في جنوب الدوير ايضاً وهذه الحصون الجنوية هي التي اخر واضع تسليمها الى أمير قشتالة الذي يضمن ، حسب رأي المؤرخ ، حياته في الحوادث الفربية المستقلة .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٧ س ١٥١

وسمع أمير امباني آخر بجادته تسلیم الحصون لسانشو جاريما فاستولت عليه النيرة وأراد أن يستفيد هو بدوره فارسل بعض رسائله إلى قرطبة يطلبون تسلیم بعض الحصون إليه ، فاجيب إلى ذلك وكتب بتسليمها إليه . فلما ذلك كله أثلا شهر النصارى عليهم الحرب فيضطرون لصالحة البربر .

مقتل واضح :

ازاء تلك الحالة السيئة وإزاء ما رأه واضح من تطاول الجند عليه واستخفافهم به ، اظهر للناس انه عازم على مراسلة البربر لمعرفة رأيه ، ولذلك ادعى بأن الخلافة هناما هو الذي ارضاه بذلك . وفجلا يبعث برجل يعرف « ابن بكر » وطلب إليه أن يذهب إلى مسكن سليمان المستعين ويتحتم به لسماع رأيه . فلما عاد عدا من اجتماعه سليمان هاجمه الجند وقتلوه دون أن يستطيع واضح منع ذلك . ثم احتزوا رأسه ورفقوه على رمح وطافوا به أنحاء المدينة ليطردوا من اذهان الناس فكرة الصلح مع البربر .

أمام ذلك الاصرار على قتال البربر ، عزم الجميع على الخروج إليهم ووعد قاضي المدينة بتقديم خمسة فرس من مال الإحسان وأخذ الناس بالتأهب والاستعداد . ولكن بيت المال كان فارغاً والحملة تحتاج إلى مال فجمع هشام أغبياء قرطبة وتجارها وشكوا إليهم قلة المال وطلبوا أن يجمعوه له . فاجابوه بأنهم قد فعلوا ذلك مراراً وأنه لم يبد باستطاعتهم التبرع أكثر مما تبرعوا وأنهم يفضلون الموت على تلذّح الحالة . ولذلك فهم يريدون الخروج إلى البربر بأي شكل كان وحتى قبل أن تم الاستعدادات اللازمة . ولكن حين دعت الحاجة جبن هؤلاء وتخاذلوا ولم يحسموا على احتياز الأسوار .

وعزم واضح على الحرب تخلصاً مما هو فيه ولكن عرف الجند عزمه

على الفرار فصار اليه القائد ابن وداعه^(١) في عدد من الجندي فاخر جوه من داره ، وعاتبه ابن وداعه على نيته في مصالحة البربر والهروب من قرطبة ثم قام اليه فضربه بالسيف وحمل عليه الجندي فقتلوا واحتزوا رأسه وطاقوها به المدينة والقيت جثته في نفس الموضع الذي قي فيه ابن عسقلانجه ومحمد بن هشام حين قتلهم . واعقب ذلك ثبات دور اصحابه وكتابه . كما وجدوا في داره كمية كبيرة من المال كان قد أعد لها لاهروب بها فاستولوا عليها مع ما وجدوه من الآلات والمتاع . وقد حدث ذلك كله في ١٥ ربيع الثاني سنة ٤٠٢ هـ الموافق ١٦ أكتوبر سنة ١٠١١ م^(٢) .

هذا ويذكر ابن الأثير مقتل واضح فيقول : « انه كاتب سليمان يعرفه انه يريد الانتقال عن قرطبة سراً ويشير عليه بمنازلها بعد مسيره عنها ، وغا

(١) اورد ابن البارقي كتابه « الحلة البراء » مخطوط في المكتبة الوطنية بمدريد رقم ٤٨٩٧ من ٢٤ ترجمة صغيرة لابن وداعه ذكر فيها انه أحد الفرسان الابطال ونهاه الدولة في ذلك الاوان وذكر له شعرآ هو الآتي :

زار الحبيب فرجا بالزائر	اهلا يدر فوق غصن نامر
قبات من فرجي تراب طرفة	ومسحت اسفل نعله بجايري
وخيث ان يقدا خمس رحلة	من رقة قبسطت اسود ناظري

(٢) يذكر المستشرق الاسباني المعروف اميlio Garcia Gomez في مقالة بعنوان *Algunas Jrecisiones sobre le riuina de la Cordoba Omeya*

نشرها في مجلة الاندلس 271 p II - al - ان واضحا قبل عندما كان يحاول الهرب في التاريخ المذكور اعلاه على يد الفاطمي ابي الحسن علي بن وداعه بن عبد الوهود السالمي الذي استلم حينذاك أمور المدينة .

الخبر الى المؤيد فقبض عليه وقتله » (١) .

حال قرطبه بعد واضح :

اظهر هشام بعض الخزم والتجلد بعد مقتل واضح ، وصرح بأنه لم يعد يرغب في تعين حاجب له وأنه سيباشر الأمور بنفسه ، ولكن ما إن مضت أيام على ذلك حتى عاد الى طبعه القديم فصار الوزراء يدبرون أمر البلد .

وسلم هشام رئاسة الشرطة لقائد ابن وداعه فاشتد على أهل الريب وعابه الجندي وغيرهم . وكان واضح قد بنى على الخندق مجلساً عالياً يشرف منه على البربر سماه الديدبان فصار الوزراء والفقهاء بعد مقتله يجتمعون في ذلك المكان كل يوم فيشاورون في الامر ولا يتخذون قراراً إلا عمدوا الى فسخه في الغد .

وطمت المدينة بـ « الطوفان » ثغر قرطبه المدعو « نهر الوادي الكبير » إذ هدم حوالي الفي دار وعدد لا يحصى من المساجد والقناطر ومات فيه نحو خمسة آلاف نفس ردهما وغرقاً وذهبت فيه الناس وأموالهم وهدم أكثر سور وردم قسم من الخندق ودام الطوفان ثلاثة أيام حتى انكشف أخيراً .

رغم هذا كله فإن أهل قرطبة والعيدي العamerيين تماهدوا على أن تكون أيديهم متفرقة وكاملتهم واحدة في حرب البربر وأكدو ذلك بالاعان والمهود وشهدوا على ذلك الوزراء والوجهاء . وكان الغلاء يزداد يوماً بعد يوم ، والجماعة تنتشر حتى أكل الناس الدم من مذابع البقر والغنم وأكلوا الحيوانات

(١) ابن الائير : الكامل ج ٧ من ٢٤٩

المية البالية ومات أحد المساجين في السجن فاكله أصحابه . مع وهذا قشر الخمر ظاهر والزنى مباح ^(١) .

ويصف ابن الأثير حالة قرطبة آنذاك فيقول : « اشتد الامر بقرطبة وعظم الخطب وقلت الاقوات وكثُر الموت . وكانت الاقوات عند البربر اقل منها بالبلد لأنهم كانوا قد خربوا البلاد ، وجلا أهل قرطبة وقتل المؤيد كل من مال الى سليمان .. » ^(٢)

أما ابن خلدون فيقول : « استمر البربر على حصار قرطبة والمستين بينهم .. وقد ظلوا يتقددون اليها ذاهبين وجائين بتنوع النهب والفتنة الى ان هلكت القرى والبساط وعذمت المرافق وضاقت أحوال قرطبة وجدهم الحصار » ^(٣) ،

وقد اغار البربر في خلال ذلك على بلنسية فتنموا منها خمسة حصان ونهبوا كمية من الاموال وعادوا دون أن يصابوا باذى . كما انه اثار في طليطلة في مدة هذا الحصار عبيد الله بن محمد بن عبد الجبار وبابعه اهله فسير إليهم المؤيد جيشاً حصرهم فمادوا الى الطاعة وأخذ عبيد الله أسيراً وقتل في شعبان سنة ٤٠١ هـ . وسار البربر في اثناء ذلك الى اشبيليه فارسل المؤيد اليها جيشاً فحاصروا ومنع البربر عنها ، وأرسل سليمان نائب المؤيد بسرقسطه وغيرها يدعونه اليه فاجابوه واطاعوه ، فسار البربر وسليمان عن اشبيليه الى قلعة رباح فلكلوكوها وغنموا ما فيها واتخذوها داراً ثم عادوا الى قرطبة فحاصروها ...

(١) ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٤

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٤٩

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ١٥١

وينما كان القرطبيون يعانون الجوع والحرمان ، كان البربر يملكون من البقر والغنم ما كانوا يعجزون عن ضبطه حتى ان جماعة من قرطبة كانوا يسطرون ليلا على بعض رعاة البربر المترفين فيسلبون منهم ما استطاعوا وياخذونه الى قرطبة حيث يبيعونه هناك . فلما تكرر ذلك صار البربر يكثرون لهم فيقتلون عدداً منهم في كل ليلة حتى انقطع القرطبيون عن ذلك ولم يعودوا يحسرون على سرقتهم .

وكتب سليمان الى أهل قرطبة يحذرهم الفتنة ويمدد لهم المساوى التي كان البربر يتحملونها منهم ويقول لهم بأنه ميسني ذلك كله اذا أقبلوا بفتح ابواب المدينة له ثم بعدهم الى الصلح وكفوا قلائل وانكروا الآخرين وكانوا الا كثرين فلم يردوا على كتابه ، وضيق البربر الحصار على المدينة ووضموا ايديهم على مزارعها وبساتينها فازدادت المخاعة .

وحصل في ذلك الوقت حريق في سوق الخثافين في قرطبة احترق على اثره اسوق عديدة واتهز الناس تلك الفرصة فاعملوا الذهب فيها لم تأت عليه النار كما احرق بعض القرطبيين جامع الزهراء واخذوا ما بقي من فناديله وصفائح ابوابه ومنبره وحصره .

وكان يدير امور المدينة حينذاك رجل يدعى « ابن مناو » تسمى بذى الوزارتين ، وكانت يساعدته في ذلك ابن وداعه رئيس الشرطة . وقد رغب ابن مناو في صلح البربر لما رأى من سوء الحالة ولكن الفقهاء انكروا ذلك وقالوا بان في ذلك هلاكا لهم إذ ان البربر لن يرحمونه وانه من الافضل ان يظلوا على حربهم .

لكنه في سنة ٤٠٢ = ١٠١٢ م كتب أهل قرطبة كتابا الى البربر يستعطفونهم بانهاء الفتنة ويطلبون اليهم اليرضوا بتسلیم الامر الى

ال الخليفة هشام المؤيد إذ هو أولى من سليمان المستعين الذي سيكون ولـي عهده ومدبر أمره والقائم باعباء الخلافة عنه . وحمل ذلك الكتاب بعض مشايخ البلد فلما سلموه إلى سليمان وقرأ فيه : « من عبد الله هشام بن الحكم أمير المؤمنين إلى سليمان بن هشام .. » رمى به وغضب وقال : « أنا هو أمير المؤمنين ، وأما هشام فلا يستحق ذلك » . وايده البربر في ذلك . ثم مزق الكتاب قبل أن يقرأ ، وعاد يقول : « والله ما بایم هشاما قط إذ كانت سني ثمانين سنين بوع له ، وأما هو فقد بایعني مختاراً غير مكره فهو أحق بـان يتصحـن نفسه ويلزم الواجب عليه » .

ثم عاد المشايخ من معسكر سليمان إلى قرطبة حيث اجتمعوا بهشام المؤيد وقصوا عليه ما حديث فلم يعلق على ذلك بحرف كأنه لم يسمع شيئاً . وكل ما هنالك أنه أمر بعد خروجهم بتجديـد بـيعته بين الناس .

بعد ذلك كتب أهل الشورى إلى أهل قرطبة يقولون لهم : « أما أن تخرجوا لـحـرب البربر لأنـه لم يـعد لنا طـاقة بـهم ، أو أن تكتـروا إلى الكـوـنـتـ سـانـشـواـ جـارـيـاـ يـسـاعـدـكـمـ عـلـيـهـمـ . إذـ انـ هـذـهـ الحـالـةـ لاـ يـكـنـ أـنـ تـدـوـمـ » . فاجتمع الوزراء والفقـاءـ والوجـهـاءـ وـتـداـولـواـ فيـ الـأـمـرـ وـقـرـرـواـ أنـ يـكـتـبـواـ كـتـابـاـ إـلـىـ زـاوـيـ بـنـ زـيرـيـ يـعـرـضـونـ عـلـيـهـ الـأـمـوـالـ وـالـحـاجـاتـ مـقـابـلـةـ انـ يـنـفـصـ عنـ مـعـسـكـرـ سـلـيـمـانـ الـمـسـعـيـنـ . إـلـاـ انـ زـاوـيـ اـجـاهـهـ بـرـفـضـ عـرـضـهـ وـيـقـولـ لـهـ إـنـهـ لـيـسـ مـنـ يـخـالـفـونـ اـصـحـاحـهـ وـيـنـقـضـونـ عـهـدـهـ وـلـكـنهـ عـلـىـ اـسـتـعـدـادـ لـاـ تـوـسـطـ مـنـ أـجـلـ الصـلـحـ : « أـمـاـ نـقـضـ عـهـدـ سـلـطـانـيـ وـمـخـالـفةـ اـصـحـاحـيـ فـلـاـ سـبـيلـ إـلـيـهـ ، وـأـمـاـ السـعـيـ فـيـ الـاصـلـاحـ فـلـيـمـتـهـدـ فـيـ تـأـلـيفـ كـلـمـةـ الـسـلـمـ ، فـوـالـلـهـ لـاـ قـصـرـتـ فـيـ حـرـصـاـمـيـ عـلـىـ مـاـ يـقـرـبـنـ إـلـىـ اللـهـ مـنـ قـطـعـ الـفـتـنـةـ وـحـقـنـ الدـمـاءـ وـاصـلـاحـ ذـاتـ الـبـيـنـ »^(١) .

(١) ابن عذاري الراكيـيـ : الـبـيـانـ الـمـغـربـ جـ3ـ صـ108ـ

ودخل على اثر ذلك في ١ ذى الحجة من سنة ٤٠٢ هـ = ١٠١٢ م الوزير « ابن مناو » و معه وجوه الجناد والعميد العامريين على هشام المؤيد فعرضوا له حال المدينة وقالوا بان الامر قد بلغ اقصاه وأنه لم يعد لهم طاقة بمقاومة البربر وأن الناس متقسمون ، منهم من يريد الصلح ومنهم من لا يريد و أن المال قليل والامتعار في غلاء والجناد فقراء والمنفرون مضطرب ولا يستطيع طلب معاونة النصارى لانه ليس لدينا ما نطعمكم اليه ونقدمه لهم : فبكى هشام ازاء ذلك الوضع وقال لهم : « اصنعوا ما أردتم ودعوني بعزل فلست أقدر لكم ولا لنفسى على شيء فانظروا ما فيه صلاحكم فافملوا وانا اتبع كلامكم » . فما كان من ابن مناو متسلاً للمدينة إلا أن حزم امتهن وحمل ماله وفر في تلك الليلة هارباً إلى بطليوس وبقيت قرطبة دون رأس يدير الامور فيها .

في تلك الاثناء ازداد اقترب البربر ووصلوا حتى أسوار المدينة . وكثيراً ما كان شجاعتهم يتحدون القرطبيين ليخرجوا اليهم فيبارزوون معهم وقد لمح في تلك المارك الفردية اسم الامير البربري جباسه بن ماكس (١) إذ انتصر في مرات عديدة على خصومه من أهل قرطبة وقتل عدداً كبيراً منهم . ولكن حدث في ٢٣ شوال سنة ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م انه بينما كان جباسه بن ماكس واربعه من اصحابه يستريحون في مكان بالقرب من قرطبة ان رأهم جمـع من أهل قرطبة وقد نزعوا لهم دوابهم فانقضوا عليهم ، وما كاد يستوي جباسه على حصانه ويركب

(١) يقول عنه ابن حيان في تاريخه « المبين » انه كان شهماً ، هيباً ، بيمة من اليم ، كريماً في قومه ، ايا في نفسه ، صدر من صدور صنهاجه (عن ابن الخطيب : الاخطاء ج ١ من ٤٩٤ تحقيق محمد عبدالله عنان طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩) .

اصحابه حتى وصل اليهم القرطبيون وكان عددهم سبعين فارساً فنشبت معركة عنيفة استطاع فيها البربرة على قتالهم أن يقتلوا عدداً كبيراً من القرطبيين ، ولكن واحداً من هؤلاء طعن جباسه برممه طعنة رمته الى الارض ، فلما رأى ذلك اصحابه خلوه قد مات ففروا عنه واخذوه القرطبيون أسيراً ولكنهم لما تتحققوا من شخصيته وعرفوا أنه ذلك الشخص الذي قتل عشرات من أخوانهم قتلوا حالاً ومثلوا بجثته . ويضيف ابن عذاري المراكشي أن أهل قرطبة قتلوا جباسه وقطعوه قطعاً وتهادوا عليه فاكلاه لما كان أكثر من قتالهم وما جربوه من شجاعته وشدة نكباته ، ولو أنهم عرفوه قبل اخذه ما تجاسر أحد عليه (١) .

أما ابن الخطيب فإنه ينقل تفاصيل مقتل جباسه بن ماكس عن « متين » ابن حيان الموقر ، فيقول ما نصه :

استلجم جباسه بن ماكس الصنهاجي ابن أخي زاوي بن زيري ، وهو فارس صنهاجة طرا وفتاها ، وكان قد تقدم إلى هذه الناحية زعموا لما بلغه اشتداد الامر فيها فرمى نفسه على طلابها ، واتفق ان ركب بسرج طرى العمل متفتح البد وحانه مقعده عند المحاولة ، لتنقله على الصهوة ، وقيل أنه كان متباذلاً على ذلك فقطارح على من بازائه ، ومضى قدماً بسكنى شجاعته ونشوته ، يصادق البيوت بصفحته ، ويستقبل القنا ببلاته ، لا يعرض له شيء إلا حطه ، إلى أن مال به سرجه ، فأتى به حمامه لاشتعاله بذلك ، بطعنة من يد السمي النبيه النصراوي ، أحد فرسان الوالي المامرين ، فسقط لفيه وانتظمته رماح الوالي فبادته . وحامى أخوه جبوس وبنو عمته وغيرهم من الحجاج البربرة على جثته فلم يقدروا على استنقاذها

(١) ابن عذاري المراكشي اليان المغرب ج ٣ ص ١١٢

بعد جلاد طوبيل ، وغلب عليه الوالي فاحتروا رأسه وعجلوا به إلى قصر السلطان وأسلوا جسده العامة ، فركبوه بكل عذيمة ، واجتمعوا عليه أجماع البغاث على كبير الصورة ، فجروه في الطرق وطافوا به إلى الأسواق وقطعوا بعض أعضائه ، وابدوا شواره كبدة بكل مكره من أنواع الإذى ، باعظم ماركب ميت ، فلما سئموا تحراره أوقدوا له ناراً فحرقوه بها جرياً على ذميم عادتهم ، في قبح المثلة ، ولؤم القدرة ، والنجات الحروب في هذا اليوم لمصايبه ، على أمر عظيم ، وبلغ من جميع البرارة الحزن عليه متاله ، ورأت ان دماء أهل قرطة جيماً لا تعد له^(١) .

وقد أقام البرارة على الانتقام لحبسه . فلما أصبح اليوم الثاني ٢٤ شوال سنة ١٠٣٤ هـ = ١٩ مايو ١٩١٣ م ، قاتلوا أهل قرطة قتالاً شديداً ونصبو لهم الكثني واستطاعوا أن يوقفوا بعدد هائل منهم . ثم عاد أهل قرطة في اليوم الثاني لقتال البربر ولكنهم هزموا أيضاً وقتلوا قتلاً ذريعاً فعرفوا آنذاك أن لا قبل لهم بقاومة اعدائهم وإن تسليم المدينة أصبح أمراً محتوماً . وقد خرج فعلاً في نفس ذلك اليوم ، القاضي ابن ذكوان مع بعض النقباء إلى سليمان ورؤساء القبائل البربرية فطلبوا منهم الامان فامنوه على أن يدفعوا غرامة باهظة ساهم فيها التربى القرطي ابن السرج وحده بعشرة ألف دينار ودخل سليمان المدينة .

هكذا يروي ابن عذاري^(٢) استيلاء البربر على قرطة ودخولهم إليها فلا يفصل في ذكر الأحداث التي وقعت حين دخولهم إليها ولا الفضائح التي ارتكبت آنذاك ، مع أن عدد من المؤرخين الآخرين يصف لنا دخول

(١) ابن حيان عن ابن الخطيب : الاخطة في اخبار غرناطة ج ١ ص ٤٩٤ - ٤٩٥

(٢) ابن عذاري المراكشي ؛ البيان المغرب ج ٣ ص ١١٢ - ١١٣

البرابرة الى عاصمة الاندلس حينذاك كأنه كارثة عظمى حلّت بالمدينة ، وقد كان كذلك دون شك . فإن الامر يتكلم عن ذلك الظرف فيقول : « خرج كثير من أهل قرطبة وعسكرها هرباً من الجوع والخوف . واشتد القتال عليها وملكيها سليمان عنوة وقرأ وقتلوا من وجدوا في الطريق ونهبوا البلد وأحرقوه فلم يحصي عدد القتلى لكثرتهم ، وزل البربر في الدور التي لم تحرق فنال أهل قرطبة من ذلك ما لم يسمع بثله . » (١)

أما ابن خلدون فيصف الحالة كأنه : « اتصل الحصار بمحيط البلد وصدق البرابرة في القتال فاتحهموها عنوة سنة ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م وفكوا بهشام المؤيد ودخل المستعين . ولحق باهل قرطبة من البرابرة في نسائهم ورجالهم وبنائهن وابنائهن ومنازلهم ... » (٢)

كما يقول عبدالواحد المراكشي : « بقيت جيوش البربر تحاصر مع سليمان بن الحكم مدينة قرطبة حتى ٥ شوال سنة ٤٠٣ هـ ، فحينذاك دخلوا قرطبة وأخلوها من أهلها ، حاشا المدينة وبعض الربيض الشرقي . » (٣)

ويشير التويري في الحديث عن تلك الفترة فيقول : « لما دخل البربر قرطبة وضعوا أيديهم في الناس واستباحوا الاموال والحرام . » (٤)

وأما الباحثة الاسباني م. اسين بلانيوس M. Asin Palacios فيقول « حين دخل البرابرة قرطبة بعد حصار طوبل دام حوالي عامين ارتكبوا

(١) ابن الامر : الكامل ج ٧ ص ٢٤٩

(٢) ابن خلدون ؟ كتاب العبر ج ٧ ص ١٥١

(٣) عبدالواحد المراكشي : العجب ص ٤١

(٤) التويري ؟ نهاية الارب ج ١ ص ٧٨

كثيراً من الفظائع والنهب التي أخربت الاحوال في قرطبة أكثر مما كانت عليه . هنذ نيسان سنة ١٠١٣ م أي منذ أن سلطت قرطبة حتى يوليو من السنة نفسها ، كانت المدينة وشوارعها ومنازلها مسرحاً لكل أنواع العنف والاضطهاد والتقييد . فكان البربر ينهبون ما وقفت عليه أيديهم ويحرقون المنازل ويعتدون على الحرمات وبغایون الاهلين لكي يشغوا انتقامهم من مقاومة القرطبيين لهم أثناء الحصار » .

في خلال تلك الأيام قتل الكثيرون من مختلف العابقات ومن مختلف الأحزاب والزعارات ، وكانوا ضحايا عدم التمييز الذي اظهره البربرة في انتقامهم الفظيع والذين كانوا يدعون الدفاع عن البيت الاموي الممثل في شخص قائدتهم مالين بن الحكم » . (١)

يبين لنا من كل ما تقدم أن البربرة قد فتكوا بعدد كبير من أهل قرطبة حين دخولهم إليها ، وأنهم قد انتقاموا شر انتقام تلك المدة التي أجروا على قضايا متقاضين من مكان إلى آخر ساعتين وراء النهر والفوز بالخلافة .

وقد كان من جملة من قتلوا آنذاك عدد من فقهاء المسلمين وأئمهم وعلمائهم ذكر منهم الفيلسوف إبا الوليد بن الفرضي (٢) والفقير محمد بن

Miguel Asin Palauès : Abenbàzam de Cardaba (١)
T II p 72

(٢) ذكر مقاله ابن الائير : الكامل ج ٣ من ٢٤٩ وقال عنه قتل مظلوماً .

سعید الحرار ^(١) والفقیہ ابا سلمہ از اهد ^(٢) والادب الفقیہ محمد بن
قاسم الجمالی ^(٣).

(١) ذکر مقبله ابن بشکوال : الصله رقم ١٠٣٦ فقال عنہ : محمد بن سعید بن السری
الاموی الحرار من اهل قرطبة یکنی ابا عبدالله له رحلة الى المشرق لغی فيها عبد الله
البلخی وعلي بن الحسین الاذنی الفاسی و محمد بن موسی بن النقاش والحسن بن رشیق
وغيرهم . ومن ناٹیفه جمع واضح الدلائل و كتاب روضات الاخبار في الفقه وكتاب
عمل المرأة في اليوم والليلة وغير ذلك حدث عنه شمیع ذلك ابو عبدالله بن عبدالسلام
الحافظ و قال : قدم علينا طیطة مجاہدًا . وحدث عنه ابو حفص الزهراوي . وكانت
العامة تعظمه . فتله البربر يوم دخولهم قرطبه ، وقد كانت استقبالهم شاهراً سیفه
بن ادیم : الی الی ياحب النار ، وطوبی لی ان كنت من قلام حق قلوه يوم الاثنين
٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ . ذکر وفاته ابن حیان .

(٢) ذکر ابن بشکوال في الصله رقم ٥٤٦ فقال عنہ : ابو الراءد الامام سعید بن عمار
بقرطبه ، کات قدم الزهد والنفیف ، وكان من فتن محمد المهدي وامر معه
التذیر . فمات بایدی البربر عند تعلیمهم على قرطبة ودُجبوه في منزله يوم الاثنين
سنة ٤٠٣ هـ .

(٣) تکلم عنہ ابن بشکوال في الصله رقم ١٠٣٧ فقال ؟ محمد بن القاسم بن محمد الاموی
من اهل قرطبة یعرف بالجمالی وجائمه قریۃ من اقیم اؤلیه من قتبیانه من عمل
قرطبة منها اصله . یکنی ابا عبدالله . روی عن ابا عیید الجیبی وعن ابا عبدالله
الریاضی وابی بکر الزیدی وابی بکر بن الاحر الفرشی وغیرهم ورحل الى المشرق
وبح سنة ٣٧٠ هـ واخذ هناك عن جانبه من العلماء ، واخذ بالغیر وان عن ابی
محمد بن ابی زید وابی الحسن الغایبی واخذ عنه ابو محمد (ابن ابی زید) كتاب
رد الزیدی على ابن مسره ، حدثه به عن واسعه ابی بکر الزیدی ، وكان من اهل
العلم والادب والدرایة والرواية والحفظ والمرفة الى الدين والصلاح والاخلاق الجلیة ،
وكان حافظاً للفقہ « ذاکر لاخبار الشواهد ، بصیراً بالعقود والوثائق . كان حلیماً
ادیماً مارحاً جبل الشارکة لاخوانه ، حسن الاخلاق ، سمحاً ، فضلاء للحوائج ، وولي
الشوری مع ابی بکر التیبی ، ولاهماً مع ابی المطری بن غطیس الفاسی سنة

والقاضي يحيى بن عبد الرحمن النخمي ^(١) . والمالم الجليل عبدالله بن حسين المعروف بابن الغربالي ^(٢) .

وفي اليوم التالي لدخول البراءة إلى قرطبة ، بوضع سليمان المستعين بالله بالخلافة للمرة الثانية فحكم هذه المرة ثلات مئتين ونيف .

٣٩٥ وتنسل الصلاة بالمسجد الجامع بالزهراه فكان آخر خطب قام على منبره . وتقد أيضاً أحكام الشرطة لل الخليفة هشام بن الحكم ، فان محموداً في حكمته . ثم ختم الله له آخر ذلك كله بالشهادة فقتلته البراءة يوم تغليم على قرطبة في جوف داره مدافعاً عن أهله وولده وذلك يوم الاثنين ٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ . وكان مولده في صفر من سنة ٣٣٦ هـ . ذكره ابن مقرج وحدث عنه أبو عمر بن عبد البر . وذكره المؤلاني وقال ؟ عني بالعلم وشهر بالفهم وكان نظاراً معدوداً في الخداق ، قتلته البراءة عند دخولهم قرطبة في صدر شوال سنة ٤٠٣ ؛ فات شهيداً ووافقته إذ دخلت الريض منصراً من حومتنا وقد ساقه ابن بعيش إلى المقبرة في فرد باب وداعي ونبيه عليه فصرت معه إلى قبره ووارثته فيه على غرار وغوف لائع الناس من مواراتهم ودفونهم حيثش . وفعلت به ما يفعل بالشهداء وفنته في تيابه الختصرة دون غسل ولا صلاة عليه نعمنا الله ولائيه .

(١) يحيى بن عبد الرحمن بن وائل النخمي قاضي الجماعة بقرطبة ، وبكتني ابا بكر . سمع بقرطبة من أبي عيسى الليثي وغيره ووصل إلى المشرق فحج ولقي عمه إبا الحسن بن جحشم وسمع عنه ومن غيره ، وصحب في رحلته إبا محمد بن أبي زيد فناظره وأعجب أبو محمد بمحفظه ومعرفته . وكان فقيها حافظاً ذا ذكراً للسائل بصيراً بالاحكام مع الورع والفضل والدين والتواضع والتحفظ بيده ومرهونه . واستقضى الخليفة هشام بن الحكم بقرطبة مرتين قضى بين الناس أحسن قضائه . وفاته قعده الله محنة شديدة من قبل البراءة مسجده ، وفيم الصلاة فيه مدة قضائه . وفاته قعده الله محنة شديدة من قبل البراءة حين تغليم على قرطبة . وتلفوا منه مبلغاً عظيماً وجنس بقصر قرطبة إلى أن توفي به . أخرج للناس مغطي في نعش وصلى عليه بباب الغربي من الجامع ودفن يوم الأحد ٤٠٣ في العدة سنة ٤٠٣ هـ ودفن بالريض وصلى عليه حاد الزاهد .

(٢) عبدالله بن حسين بن ابراهيم بن حسين بن عاصم من أهل قرطبة يعرف بابن الغربالي

(حاشية ما قبل)

ويكى ابا بكر وهو من ولد عاصم العريان صاحب الامير عبدالرحمن بن معاویه . روى عن ابي علي البعدادي وولي الشرطة . وكان احد ابناء وجوه اليوتات بقرطبة ومشيخة رجال السلطان الذين تصرفو في الاعمال الجليلة واحد كبار أهل العلم وأصحاب المألف المقيدة وهو الذي اخصر كتاب البيان والذين لا يلاحظونه والذى في الانواء كتبها مقيدا هو معروف بابن العباس . قتلته البرابر في تعليمه على قرطبة يوم الاثنين ٦ شوال سنة ٤٣٤ هـ . ذكر ذلك ابو الحسن الباطيسي وفاته من خطاب ابي عبدالله بن حسن نافله من خطبه قال : وبلغنا انه ووري بعد ثلاثة ايام من قتله بمقبرة ام سلمى دون غسل ولا كفن ولا صلاة لشغل الناس بما دهمهم من تغلب البرابر عليهم وفتحهم قرطبة وغارتهم عليها وسيبهم لاهما . وقال ابو بكر بن اسحق الكاتب وفاته من خطبه : توفي ابو بكر ابن عاصم صاحب الشرطة ، قتلته خوارج البربر يوم الثلاثاء ٥ شوال سنة ٤٣٤ هـ يروى عن ابي علي استغاثيل بن القاسم ثوادره ولا اعلم به حدث .

الخلافة السادسة

خلافة سليمان بن الحكم «المستعين بالله» الثانية

دخل سليمان قرطبة يتبعه كبار قواده ورجال الحاشية في ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ = ٩ مايو سنة ١٠١٣ م فسار إلى قصر الخلافة توا وجلس في قاعة العرش يحلف به انصاره . فلما استقر به المقام أمر باحضار هشام بن الحكم بين يديه فاحضر ، فأخذ يوحنه على مقاومته له و قال له : « أما كنت تبرأت لي من الخلافة واعطيتني صفة يمينك ؟ فما حملك على أن نعفت عنك وحالات عقلك ؟ فاعتذر له هشام بأنه مغلوب على أمره ، مسير في تصرفه . ثم تبرأ من الخلافة ثانية أمامه وأعلن خلع نفسه وتسليم الامر لسليمان ، فبايعه الناس بالخلافة .

يقول ابن الأثير (١) ان سليمان ملك في سنة ٤٠٣ هـ ولقب بالمستعين وأن هذه غير ولايته في منتصف شوال على ما ذكرنا سنة ٤٠٠ هـ . وبابيه الناس وخرج أهل قرطبه إليه يسلامون عليه فانشد متعملاً :

(٢) ابن الأثير : الكامل : ج ٧ ص ٢٦٨

اذا ما رأوني طالعا من ثنية يقولون من هذا وقد عرفوني
يقولون لي اهلا وسهلا ومرحبا ولو ظفروا بي مساعدة قتلوني

نُم يضيف الى ذلك قائلاً : وكان سليمان اديباً شاعراً بليناً . واربىء
في أيامه دماء كثيرة لا تحمد .. وكان البربر هم الحاكون في دولته لا
يقدر على خلافتهم لأنهم كانوا عامة جنده ، وهم الذين قاموا معه
حتى ملکوه » .

لما تمت بيعة سليمان المستعين بالله أمر بارسال كتب الى مختلف فواحبي
الانداس لتعيم فتحه قرطبة وتوليته خليفة على المسلمين . ويصف الأديب
المؤرخ الاندلسي ابن بسام تلك الكتب فيقول : إنها كانت موشحة بما توشع
به كتب الفتوح الاسلامية على أهل دار الحرب . ومن وصف حال القيروان ،
وشدة السعلوة والاقدار على الفتاك والاستباحة فافرط في ذلك ارهاباً للناس
بذكريه وتخويفاً لهم من مثله ، فكان أجلب لنغار القلوب وقرف النذوب ،
وبعد الشروع وبخش الحقوود ، لما وتر جميعهم بالحادنة في قرطبة ، فاستশروا
بغضه وانقادوا لكل من عانده ورد أمره من عبد أو حر فزع عليهم منه ،
وياماً من خير يحيطهم من بر ابرته . فكان ذلك سبباً في تفرق البلاد وتملك
اسحاب الطوائف . (١)

ثم انتقل بعد ذلك المستعين بالله مع قواه وجيشه الى مدينة ازهرا
التي صارت عنهم لكثره عددهم ، فعسکر قسم من الجندي بجوارها كما نزل
الاخوان علي والقاسم بن حسون مع فرقهم في الضاحية المعروفة باسم
شقة شقندة Segenia .

(١) ابن بسام : الذخيرة - القسم الاول - الجزء الاول من ٢٤

ويحكي ابن عذاري المراكشي^(١) انه لما دخل سليمان وجنوده الى قرطبة اتى حبوس بن ماكسن رجل قرطي فافضى له باسم قاتل أخيه ، فركب حبوس مع بعض اصحابه وتوجهوا الى دار ذلك الرجل فاخرجه من بيته وقتلوه ثم اضرموا النار في داره بعد أن أخذوا ماله وامتعنه واسلحته واربع عشرة جارية وجدوهن في بيته ثم عثروا على جثة أخيه ولم يبق منها سوى المظالم فقال : والله لا كان عندي أمان لعبد من عبيدبني أممية فخافة الناس وهرب كثير منهم ، وتركوا ديارهم وأموالهم فاحتوى عليهما البربر .

هذا ويدرك المترافق الاسپاني ميجيل اسين بلاثيوس^(٢)
انه في أواسط شهر يوليو من سنة ١٠١٣ م - ٤٠٣ هـ Asin Palacios
اصدر الخليفة سليمان قراراً بتفويج جميع سكان قرطبة ما عدا الذين يسكنون
في الاحياء المركزية وفي الاحياء الشرقية ، وكان البراءة حينها يفادر
جماعه من أهل المدينة مساكفهم بهاجونها ويستولون على ما فيها ثم
يسلمونها للحربيين ،

اذا صحت نسبة هذا القرار الغريب للخليفة سليمان ، لانه لا شئ
يكون قد اتخذه للتخلص من سكان بعض الاحياء الذين كان يعتبرهم
مناوئين لحكمه ويشكرون خطرًا على دولته ، فاراد أن يبعدهم كيلا يعملوا
على تحريض باق الشعب ضده ومحاولوا القيام بثورة عليه . وقد رأى أن
تأثيرهم في مجريات الحوادث وهم بعيدون عن مركز الخلافة يكون أقل منه
فيما لو كانوا يعيشون في حاضرة الدول نفسها .

(١) ابن عذاري المراكشي : اليان المغرب ج ٣ ص ١١٥

M.Asin Palacios: Aben hazam de Cosdaba T II p 72 (٢)

على أي حال مما لا ريب فيه أن البربر حين دخولهم إلى العاصمة انتقموا من أعدائهم القرطبيين انتقاماً كبيراً بالقتل والحرق والنهب والسلب . ويقول المقرري في موضع من كتابه «نفح الطيب» : انه لدى دخول البربر إلى قرطبة لحق بيوقاتها معرة في نسائم وأولادهم » .

مصير مكتبة الحكم الثاني المستنصر :

وكان من الشعور ما ارتكبه البربر حين دخولهم إلى قرطبة ، نهبهم المكتبة الرائعة القيمة التي كان قد تعب الخليفة الحكم الثاني في جم حشوتها من مختلف أنحاء العالم وبأثمان الأسمار وارفعها . فان هذا الخليفة الحب لثقافته والعلم ، والشغوف بالطاعة والكتابة والتلبيق .. استطاع ان يجمع في قصره مكتبة لم يستطع ان يجمعها قبله أو بعده ملوك الأندلس . وبلغ عدد مجلداتها أكثر من أربعين ألف مجلداً .

هذا ويدرك بعض المؤرخين نقاً عن لسان تلید الخصي القيم على خزانة العلوم والكتب بدار بي مروان أن عدد الفهارس التي كانت فيها اسماء الكتب بلغ اربعة واربعين فهرساً في كل منها خمسون ورقة ، عشرون منها مخصصة لذكر اسماء الدواوين فقط . وكان يبذل الحكم المستنصر مبالغ طائلة لشراء الكتب القيمة من أية بقعة من بقاع المعمورة فحصل لديه بذلك بجموعات نادرة من الكتب لم تكن إلا في مكتبه . ومن ادهش ما يذكر في هذا الصدد أن الخليفة المستنصر لم يترك واحداً من تلك الكتب التي كانت عنده إلا وقرأه وانتقده وعلق عليه فاعتبر لذلك حجة علمية في عصره وصار الفقهاء والعلماء في الاندلس يعودون إلى رأيه في معظم المشاكل التي تعرض لهم .

ان الحديث عن مكتبة الحكم الثاني المستنصر وعن شفته بالطاعة

والقراءة ، والبالغ الطائلة التي كان يبذلها للاحصول على المؤلفات قبل أن تنشر بين أيدي الناس ، والمدد الضخم من الناسخين والمتربجين والمؤلفين والمخالفين الذين كانوا يعملون في مكتتبته ، والمسايرة المتشرين في جميع عواصم البلاد العربية لتأمين كل ما يتفق عنده الفكر العربي إذ ذاك وارساله إلى مكتبة الحكم ، والموادر التي تروي عن أهميات الحكم بكل ذلك ، أن الحديث عن كل هذا يطول جداً ومتى به الصفحات الطوال وليس هذا مكانه إذ لسنا في معرض الحديث عن الحكم الثاني وإنما عن مصير تلك المكتبة الرائعة التي جمعها الخليفة المنافق .

كانت أول ضربة وجهت إلى تلك المكتبة العظيمة هي الفربة التي وجهاها إليها حاجب الخليفة هشام المؤيد محمد بن عبد الله المعروف باسم الحاجب المنصور بن أبي عامر . وأسباب ذلك هي الآية :

لم يكن ابن أبي عامر معروفاً بورعه ونقواه ، كما لم يكن من ذوي ازهد والتدين . هذا عدا عن أنه ضرب بعرض الحائط آراء العلماء ولم يستشرهم في شيء بل حكم حكماً دكتاتورياً مطلقاً ، وبدأت السنة العامة تلوك سيرته وتتهمه بضعف الایمان . فرارد المنصور أن يقطع ألسنة السوء هذه بعمل يرضي عنه الشعب ويؤيده الفقهاء والعلماء وكان المنصور يعلم تمام العلم أنه يوجد في مكتبة الخليفة الحكم المستنصر عدد ضخم من المؤلفات القيمة المتعلقة بالعلوم القدية كعلم النجوم وعلم المنطق والفلسفة وغيرها من علوم الأولئك ، كما كان يعلم أن عوام الأندلس وكثير من مشايخها وفقيهها كانوا مخالفين للحكم في اقتنائه تلك الكتب ومعادنته إليها والتعليق عليها ، لأنهم كانوا يعتبرون كل من اقتناتها أو قرأها مزرعاً للإيمان خارجاً عن الله ميالاً إلى الالحاد . ولم يكن الشعب في الأندلس قبل الحكم قد اعتاد على رؤية

أمثال تلك الكتب أو قرأتها ، فلما جلبها المستنصر إلى مكتبه نعموا عليه نوعاً ما وعلوا عليه ذلك .

كان المنصور يعلم ذلك كله ، ولذلك فكر بأن يستميل إليه الناس وزيد شعبيته عن طريق اتلاف تلك الكتب القيمة . وهذا هو السبب الذي دعاه لتوجيه تلك القرية القاسية إلى أعظم مكتبة في العالم العربي آنذاك .

ولكي يضفي على عمله صفة شعبية عامة ، دعا معظم فقهاء وعلماء قرطبة ورجال الدين فيها ثم محمد إلى تأليف لجنة خاصة منهم تتحجّن الكتب الموجودة في خزان الأموين ، فلما فرضت اللجنة من ذلك وفصلت الكتب الخطيرة - على حد زعمهم - عن الكتب المباحة قرأتها ككتب الطب والحساب واللغة والتجويد والأشعار والآدبيات والفقه والحديث وغير ذلك ، أمر المنصور بحرقها واقتادها . فاحرق بعضها وطرح البعض الآخر في البر القصر وهيل عليه التراب والحجارة كمزق البعض الآخر ... الخلاصه انه اتبع في اتلافها مختلف الطرق ولم ينج منها إلا ما أفلت في اثناء تمييز الكتب وهو القليل الذي لا يذكر . وصار الناس بتلك العلوم ولم تعد إلى الرواج من جديد إلا حين اقسمت الاندلس بين ملوك الطوائف إذ أخذ هؤلاء يتنافسون فيما بينهم في الثقافة والعلم والتأليف وعادوا إلى احياء بعض ما اندر من تلك العلوم القيمة .

هذه هي القرية الأولى التي تلقتها إذن مكتبة الحكيم الثاني وقد كانت على يد المنصور بن أبي عامر كما رأينا .

أما القرية الثانية الشديدة فقد تلقتها في هشام المؤيد الثانية على يد الفقي الصقلي واضح المامر وقد حدث ذلك على الشكل الآتي :

عندما كان البربر يحاصرون قرطبة بزعامة سليمان السعدين ، احرقوا الزروع كارأينا واحتلوا في فترة من الفترات مدينة الزهراء وضيقوا الخناق على القرطبيين ومنعوا وصول المؤن والامدادات اليهم فاتسحت الصائفة والمجاعة بين الناس وعجزت الحكومة عن ايجاد الاموال اللازمة لتلك الحالة . هنا كان من واضح العامری إلا أن دعا وجهه المدينة واثرائها وكبار الملاك والتجار فيها ثم عرض عليهم الوضع في العاصمة وما وما وصلت اليه الحالة من السوء وخبرهم بأن خزينة الدولة أصبحت فارغة وبالتالي عاجزة عن مد المصاريف لتابعة القتال ضد البربر وطلب اليهم أن يقرضوا الدولة كل حسب استطاعته . ييد أن أولئك الآثرياء والوجهاء كانوا على ما يظهر قد قاموا بعدة تبرعات قبل ذلك وفي وقت قصير دون أن يروا الاوضاع تتحسن أو الارمة تفرج ، فاجابوا واضحوا بأنهم قد فلوا ذلك عدة مرات من قبل وأنه لم يعد باستطاعتهم الدفع أكثر مما دفوا . ازاء هذا الرفض لم ير واضح مندوحة من الاجوه الى طريقة تكسبيه بعض المال . وكانت هذه الطريقة هي بيع قسم من مكتبة الحكم .

يحدثنا المؤرخون عن هذا الحادث بقولهم : ان المؤلفات القيمة التي كانت تحتوي عليها تلك المكتبة يعت باؤكس ثمن واقفه قيمة . واذا كان قد بقي قسم من الكتب دون بيع فربما كان ذلك لاعتراض الناس عن شرائها نظراً لقلة قيمتها أو لا كتفاء واضح بما حصل عليه على المال مقابل الكمية التي باعها أو لأي سبب آخر .. وقد حصل ذلك سنة ٤٠٢ هـ = ١٠١٢ م .

أما الضربة الثانية والأخيرة ، تلك الضربة التي قضت على ما تبقى من مكتبة الحكم فقد تلقتها على يد البربرة عندما دخلوا مع رئيسهم السعدين إلى قرطبة فاتحين في سنة ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م . حينذاك أعمل البربر النهب

والسلب في تلك الكتب فحملوا القيم منها واتلفوا القسم الآخر باحراره أو بتغيير معالله . وانتشر بعض تلك الكتب بعد ذلك في أنحاء الاندلس ومنها انتقل إلى أفريقيا وغيرها .. ولا زال الماء والمستشرقون حتى يومنا هذا يعشرون على بعضها مخأة في زاوية من الزوابيا وقد طواها النسيان وأهملتها يد الانسان .^(١)

تولية البراءة على المدن والاعمال :

بعد أن بويغ سليمان بالخلافة واستحكم أمره ، اعطي لكل من القبائل البربرية الهمامة التي مساعدته في الوصول إلى الحكم منطقة يحكم فيها ، فكانت منطقة البيرة Elvira التي تعتبر غرناطة من أهم مدنها ، من نصيب قبائل سهاجة الشديدة البأس فحكمها الامير زاوي بن زيري وذرته من بعده نحو المائة سنة . كما كان الجوف نصيب مغراوه ، وأما منذر بن يحيى فقد نال سرقتنه ، وحصل بنو برزال وبنو يفرن على حيان وقرمونه Carmona كما حصل بنو دمر وزاداجه كل شذونه ومورور . وهي القاسم بن حمود على الجزيرة الخضراء ، بينما ولـي علي بن حمود على سنته وطنجة .

ويملق ابن خلدون^(٢) على توزيع البلاد بين البراءة بهذا الشكل بقوله :

(١) من هذه الكتب المخطوط الذي ذكره المستشرق : E. levi - Provençal Herpèris 1934 p 198 - 200

إذ قال انه عثر عليه بين المخطوطات العربية الموجودة في مكتبة جامع القرويين الكبيرة في مدينة فاس . وهذا المخطوط هو نسخة من مختصر أبي مصعب احمد بن أبي بكر الزهري الذي وضع بناء على امر الخليفة الاموي الحكم الثاني من أجل ضمه إلى مكتبه العامرة . وان آخر صفحة من هذه النسخة تحوى العبارة التالية : « وكتب حين بن يوسف عبدالامام الحكم المستنصر بالله امير المؤمنين اطال الله بقاء وأدام خلافته في شعبان سنة ٣٥٩ » .

(٢) ابن خلدون ؛ كتاب العرج ٧ ص ١٥١

صار الملك طوائف في اخرين ايضاً مثل ابن عباد باشيليه وابن الافطس بعليوس وابن ذي النون بطلطله وابن ابي عامر بلنسية ومرسميه Murcia وابن هود بسرقسطه ومجاهد العامری بدانیه Denia والجزائر Baleares وغيرهم . . .

ولما بلغت هذه التقسيمات مسامع عبدالله البرزالي دخل على سليمان وقال له : « يا أمير المؤمنين ، بلغني اذك وليت بن حمود العلوين على المغرب ، قال : نعم ، قال له : أليس العلويون طالبين ؟ (١) قال : نعم . قال : تأني الى خشاش (٢) تردهم ثابين ؟ قال : نفذ الامر في ذلك .

عوامل ثورة علي بن حمود على سليمان :

اما العوامل التي دعت عليا بن حمود لثورة على من اكرمه وكافأه ، وولاء على احدى مقاطعات دولته فهي متعددة اهمها :

١ - الكتاب الذي بعث به اليه الخليفة هشام المؤيد بن الحكم من قرطبة عندما كان هذا محاصراً فيها من قبل سليمان بن الحكم (المستعين بالله) : فقد ادعى علي بن حمود ان هشاما قد ولاه عهده في ذلك الكتاب وطلب اليه الاخذ بثاره ان هو قتل . وكانت تروج حينذاك في الاندلس نبوءة مفادها بان قاتلاً في سبنته يبدأ اسمه بحرف العين سيمالك الاندلس ويختلف مختلف اجزائها . فلما ولي علي بن حمود على سبته اقتنع الخليفة هشام بصحة تلك النبوءة وكتب اليه بعده والاخذ بثأره . (٣)

(١) طالبين أي ساعدين وراء الخلافة .

(٢) خشاش ؟ دود

(٣) ابن سام ؛ النخبة ، الفصل الاول ، المجلد الاول ص ٢٦ وابن عذاري الراکشي
اليان المغرب ج ٣ ص ١٢٠ والمغربي : فتح الطيب ج ٢ ص ٤٧

يقول ابن حيان : « وكان هشام عندما رأه من اضطراب امره وتيقنه من انصرام دولته ، بما مني به قدماً وحديها ، من تماطله في عمده الظاهر عليه ، وقيامهم واحد بعد واحد في خلمه . صير علي بن حمود ولاية عهده ، واوصى إليه بالخلافة من بعده ، وراسله بذلك إلى سبعة أيام ترددت عليهما ، بمعنى الاستمداد وجمعه طوائف البربرية للجهاد وولاه طلب دمه واستكماله السر فيه إلى أوانه . وبلوغ زمانه ، هاججاً لاحفاظ القرشية ، ومحركاً لاطوائف الطالية فرمادهم يومئذ من على هذا بشاعة الآثافي ، طوى كشحه منها على مستكنته أرجاؤها لوقتها)١(.

ويقول ابن الخطيب : « يقال إن هشاماً المحجوب لما شعر بالهلاك خطب بن حمود بسبته يستنصره ويقلده دمه والعلب بيأره ويفضي إليه بعده فتحرك سنة ٤٠٥ هـ)٢(.

وقد اعتبر ابن حمود أن ذلك الكتاب كاف لاضفاء الصبغة الشرعية على مطالبه بكرسي الخلافة طالما أن الخليفة القائم نفسه هو الذي أوصى له بالحكم من بعده .

هذا وإننا لا نستطيع الجزم بصحة ذلك الكتاب أو عدم صحته لأنه على الرغم من أن جماعاً غيره من المؤرخين قد ذكره وتكلم عنه في صدد الكلام عنه ثوره على بن حمود على سليمان ، فإن أحداً منهم لم يورد نص ذلك الكتاب أو ذكر بأنه قد رأه بل اكتفوا بالقول أنه احتوى على وصية هشام بالعهد من بعده إلى علي بن حمود وتوكيله بالثأر له من سليمان . وقد انفرد ابن عذاري المراكشي)٣(بذكر ارسال علي بن حمود

(١) ابن حيان عن ابن ياسن : التذكرة ، القسم الأول ، المجلد الأول من ٢٦

(٢) ابن حيان عن ابن الخطيب ؟ الحل المرقومة من ٤٥

(٣) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٠

للكتاب الذي ادعى أنه وصله من هشام المؤيد الى الامير البربرى جبوس الصنهاجى ثم الى خيران العامري وطلب اليها ان يهبا لمساعدته فاجابه هذان بانها معه ققوى بذلك امرة .

ربما قال قائل بعد هذا كله أن تنبئه هذا العدد الكبير من المؤرخين الى كتاب هشام يجعل وجوده مؤكداً ومحينا ، وانا اجيب على ذلك بأنه لا مجال للشك في وجود مثل ذلك الكتاب اما الشيء الذي لا يستطيع التأكيد منه هو : هل كان ذلك الكتاب حقيقاً مكتوباً بخط الخليفة هشام أم كان مزوراً وضعه ابن حمود الوصول الى هدفه والظفر بمنصب الخليفة في قرطبة ؟ على أي حال ، فإن ما يهمنا هنا هو ان الكتاب الذي اظهره ابن حمود قد افاده فائدة كبيرة في الثورة التي اعلنها على الخليفة سليمان بن الحكم وكان من أهم العوامل التي ساعدت على انتصاره النهائي .

٢ - طمع علي بن حمود بالوصول الى منصب الخليفة بعد ان رأى ما كان عليه الناس من الاختلاف في ذلك الوقت خاصة وانه كان يتمي الى عائلة من ارفع العائلات واثرها في الاسلام وانه كان بعيد الصيت ذات شهرة بين القبائل البربرية التي كان هو بدوره ينتمي الى واحدة من اقوائها وأشدتها في شمال افريقيا والأندلس وهي قبيلة زفاته . هذا اعدا عن ان وجود أخيه القاسم واليأ على الجزيرة الخضراء تلك المدينة الاستراتيجية الواقعة في أقصى جنوب شبه الجزيرة الابيرية والطلة على مضيق جبل طارق ، كان مما يسهل عليه عبور المجاز والتزول في ارض الأندلس دون ان تشعر به جيوش الخليفة المستعين .

فذا اضفنا الى ذلك علم علي بن حمود بان هناك عدد لا يأس به من امراء البربرة في المدن الكبرى الاندلسية مستعدون لتأييد ثورته ضد المستعين

والسير معه لحصار العاصمه قرطبه ، عرفنا لماذا لم يتردد ابن حمود في اعلان ثورته .

٣ - كانت المراسلات التي دارت بين علي بن حمود والفتى خيران العameri لما شجع الاول على الثورة أيضاً . فان خيران لم يكن راضياً بولايـة سليمان بن الحكم الاموي بل كان من أصحاب هشام المؤيد ، فلما ملك سليمان قرطبة وجد خيران فاراً في جماعة كثيرة من الفتيان العamerيين ، فامر الخليفة الجديد بتبعهم فجدهـت فرقـة من البربر في ازـهم حتى لـقـومـونـازـلـوـهـمـ . وقد اشتـدـ القـتـالـ في ذلكـ اليـومـ وجـرحـ خـيرـانـ عـدـةـ جـراـحتـ وـتـرـكـ عـلـىـ أـنـهـ مـيـتـ ، فـلـمـ فـارـقـوهـ قـامـ يـتـشـيـ مـتـرـخـاـ فـرـآـ أـحـدـ البرـبـرـ عـلـىـ تـلـكـ المـيـثـةـ فـرـقـ لـحـالـهـ وـأـخـذـهـ إـلـىـ دـارـهـ بـقـرـطـبـةـ وـعـالـجـهـ حـتـىـ شـفـيـ وـاعـطاـهـ مـالـاـ استـطـاعـ بـوـاسـطـتـهـ الخـرـوجـ سـرـاـ إـلـىـ شـرـقـ الـانـدـلـسـ حـيـثـ التـفـ حـولـهـ هـنـاكـ عـدـدـ كـبـيرـ مـنـ الـانـصـارـ وـالـاتـبـاعـ فـقـوـيـتـ شـوـكـتـهـ وـقـاتـلـ مـنـ هـنـاكـ مـنـ البرـبـرـ وهـاجـمـ الـرـيـهـ Almeria فـاستـولـىـ عـلـيـهاـ وـشـكـلـ جـيشـاـ مـنـظـمـاـ وـاعـتـارـ عـلـىـ مـعـظـمـ اـمـرـاءـ البرـبـرـ فـيـ الـبـلـادـ الـجـاـوـرـةـ لـهـ فـعـلاـ اـمـرـهـ وـعـظـمـ شـائـنهـ .

هـذـاـ وـكـانـ خـيرـانـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ اـتـسـاعـ سـلـطـتـهـ وـقـوـتـهـ قدـ اـمـرـ انـ يـخـطبـ عـلـىـ مـنـابـرـ بـلـادـهـ لـهـشـامـ المؤـيدـ اـعـتـقادـاـ مـنـهـ بـانـ هـشـاماـ كـانـ لـاـ يـزالـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاةـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ اـخـتـفـائـهـ مـنـ قـصـرـ الـخـلـافـةـ بـعـدـ دـخـولـ سـليمـانـ الـمـسـتعـينـ عـلـيـهـ . وـكـانـ خـيرـانـ يـكـاتـبـ النـاسـ وـيـأـمـرـهـ بـالـخـرـوجـ عـلـىـ سـليمـانـ فـوـافـقـهـ جـمـاعـةـ مـنـهـمـ ، وـكـاتـبـواـ عـلـيـاـ بـنـ حـمـودـ وـهـوـ بـسـبـبـتـهـ يـعـبرـهـمـ الـضـيقـ لـيـقـومـواـ مـعـهـ وـيـسـرـوـاـ إـلـىـ قـرـطـبـةـ فـفـعـلـ .

هـذـهـ هـيـ الدـوـافـعـ الرـئـيـسـيـةـ لـثـورـةـ عـلـيـ بـنـ حـمـودـ ، وـلـاـ شـكـ بـانـ هـنـاكـ دـوـافـعـ ثـانـوـيـةـ آخـرىـ رـبـعـاـ كـانـ شـخـصـيـةـ أوـ خـاصـةـ أـدـتـ إـلـىـ تـلـكـ الثـورـةـ الـجـارـفـةـ

الى ابعدت بي أمية عن الخلافة مدة سبع سنوات ونصف تولى خلاها الحكم
امراء من البربرة الحوديين ما لبث دوّلتهم ان دالت في سنة ٤١٤ هـ = ١٠٢٣ م
واسترجع الامويون ملكهم اغا لفترة ليست بالطويلة ولا بازاهرة .

نجاح ثورة علي بن حمود :

بعد أن استقرت فكرة اعلان الثوره في ذهن ابن حمود اخذ يهد
العدة لامبور من سبته الى الاندلس ، والانتقام للخلفية هشام المؤيد من عدوه
سلیمان المستعين .

لم يكن قد مضى على تعيين علي بن حمود أميراً لسبته اكثر من
عام واحد ، أي لم يكن عام ٤٠٤ هـ = ١٠١٤ م قد انصرم بعد ، إذ بلغ
سامع علي في تلك الاونة أن قاضي سبته محمد بن عيسى والفقير ابن يربوع قد
اخبرا رسولا للمستعين بنيته على الثوره فقبض عليهما وقتلها .

ولامت استعداداته كتب الى أخيه القاسم بن حمود الذي كان آنذاك في
قرطبة يمامه عن حركته فانتقل هذا حالاً الى الجزيرة الخضراء وأخذ يستعد لتأييد
حركة أخيه .

وأتصد على بعد ذلك — كما اسلفت — بحبس الصنهاجي وخيران
العامري وطلب اليهما تأييده فوعدهما بذلك وعداً فاطماً . كما كان من جملة
الامراء الذين ايدوه عامر بن فتوح مولى فائق الذي كان بدوره مولى للخلفية
الحكم المستنصر ، وكان عامر أميراً على مدينة مالقة ، وهذا لم يكن يخفى
على ابن حمود ان امراء غرفاته من بي زيري والامراء الصنهاجيين سيعمدون الى
الانضمام الى حرکته حلماً يبدأ بوضعها موضع التنفيذ .

لما اطمأن ابن حمود الى متانة حلفه مع الولاة السابقين عبر المضيق

من سبعة الاندلس واستولى على ماله بدون قتال في نهاية سنة ٤٠٦ هـ (ريع
سنة ١٠١٦ م) إذ ان صاحبها كان حليفه كاذكرنا فسلم اليه المدينة وأعلن
اصلحاته اليه .

بعد ذلك ، يقع بعض الاختلاف بين روایات المؤرخين في وصف
الحوادث التي مرت بها الثورة في المراحل التالية ، اما لا يشكل ذلك
الاختلاف شيئاً جوهرياً في معرفة مجرى الامور . ويعكّرنا اجمال هذه الروایات
بالروایتين التاليتين :

الاولى : اوردها ابن الاثير فقال : بعد ان استولى علي بن حمود على مالقه في سنة ٤٠٦ هـ سار خيران ومن انصم اليه فاجتمعوا بالتنك وهي ما بين المرينه والمالقه - وقررروا ما يفعلونه ثم عادوا يتجهزون لقصد قرطبة فتجهزوا وجمعوا من واقفهم وساروا الى قرطبه وبایعوا عليا على طاعة المؤيد الاموي ، فلما بلغوا غرب ناطلة وافقهم أميرها وسار معهم الى قرطبة فخرج سليمان والبربر اليهم فالتفوا على عشرة فراسخ من قرطبة ونشب القتال بينهم فانهزم سليمان والبربر وقتل منهم خلق كثير . ودخل علي بن حمود قرطبة في الحرم منه ٤٠٧ هـ (١) وأما الرواية الثانية فيوردتها ابن عذاري الراکشي بقوله : « استولى علي بن حمود على مالقه في نهاية سنة ٤٠٦ هـ بدون قتال إذ ان حاكمة عامر بن فتوح قبل بتسلیم المدينة معلنا انصياعه اليه . وقدم اليه في مالقه خiran الصقلي مع نفر من جنده وزاوي بن زيري وحبوس بن ماکس واخوته وبنو عممه الصنهاجيون فعظم شأنه وقوى امره وسار بهم نحو قرطبه . ولم يجد سليمان مقاومة تذكر فاتهت المعركة هزيمته واسره مع اخيه وأبيه (٢) .

(١) ابن الأثير، الكامل ج ٧ ص ٢٨٥

(٢) ابن عذاري المراكشي البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٠

نلاحظ أن الفرق الوحيد بين الروايتين هو أن الأولى تذكر اجتماع خيران علي بن حمود في النكب وسيرهم نحو غرناطة حيث انضم إليهم أميرها وسار معهم إلى قرطبة ، بينما تذكر الثانية أن خيرانا وحفاءه وأمير غرناطة وغيرهم قد وافوا ابن حمود إلى مالقة وساروا معه من هناك إلى قرطبة ففتحوها .

وعلى أي حال ، فإن الروايتين تتفقان في ذكر حلفاء علي بن حمود وفي الطريق الذي سلكه للوصول إلى قرطبة وفي النتيجة التي أحرزها بانتصاره على خصمه .

وهنا بقي علينا أن نتساءل : لماذا انكسر سليمان المستعين في المعركة التي حصلت بينه وبين علي بن حمود أمام قرطبة ؟

١ - كان مركز سليمان في قرطبة ضعيفاً بسبب نظرية الكراهة التي كان ينظرها أهل قرطبة إليه ، واللقد الذي كانوا يكتونه له منذ أن دخل بهم بالقوة مع الصاره البرابره وارتكبوا ما مر معنا من الفظائع والقتل والنهب .

٢ - انفض عن سليمان قسم كبير من أنصاره وابياعه حين سمعهم بحركة علي بن حمود لرفعه بيته وبعد صيته وأملأ في الحصول على منصب اسماي في عهد الخليفة الجديد .

٣ - التفاف عدد كبير من أهل الاندلس حول الثائر الاموي الذي قام في شرق الاندلس في سنة ٤٠٥ هـ = ١٠١٤ م والمعروف باسم المعطي . ويدرك ابن حزم نسب هذا الاموي فيقول : هو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن عبدالعزيز بن خالد بن عثمان بن

عبدالله بن عبدالعزيز بن خالد بن عقبة بن أبي معيط ^(١) . كان عبد الله هذا اخ اسمه محمد بن عبد الله تضلع في الفقه وعرف بالنسك في حياته وكان أبوها محدثا ثقة ولد ينصر منه ٣٠٥ هـ ودخل الاندلس مع أبيه وان له أكابر منه في سنة ٣٠٦ هـ ^(٢) .

كان عبدالله يكنى بابي عبدالرحمن . وقد روى عن أبي محمد الباجي وغيره ، وكان من أهل البيل والذكاء والشرف . وقد كان يسكن مع عائلته في قرطبة ويشغل في الفقه ، ثم هاجر إلى مدينة « دانيه » حيث كان يحكم الصقلي مجاهد فاجتمع هذا واتباعه حول المعطي ونصبوه خليفة عليهم في جنادى الآخرة من سنة ٤٠٥ هـ = ١٠١٤ م ، فقام مع مجاهد خمسة أشهر دعى له خلالها على النابر في شرق الاندلس ، ثم اقلما معه إلى جزيرة ميورقة حيث ارسل المعطي مجاهدا في حملة « بحرية » مركبة من مائة وعشرين سفينه إلى سردينيه ففتحها مجاهد وغنم منها غنائم لا تحصى واسر عدداً كبيراً من أهلها .. ثم ما لبث مجاهد أن خلع المعطي من الخلافة بعد رجوعه إلى جزيرة ميورقة ففر هذا إلى أرض كتامة في إفريقيا وبقي فيها حتى سنة ٤٣٢ هـ = ١٠٤١ م حيث توفي في تلك السنة ودفن في نفس مكان وفاته .

يذكر ابن بشكوال نقاً عن ابن حيان ما يأتي : أن أبا محمد الباجي

(١) ابن حزم : جهرة أنساب العرب ص ١٠٦ ، هذا وقد اورد ابن بشكوال : الصله رقم ٥٨٨ نسب المعطي مع بعض الاختلاف عما اوردته ابن حزم فقال : هو عبدالله بن عبيد الله بن الوليد بن محمد بن يوسف بن عبدالله بن عبدالعزيز بن عمرو بن عنان بن محمد بن خالد بن عقبة بن أبي معيط بن إيان بن عمرو بن أمية بن عبد شمس المعطي من أهل قرطبة . ونحن نرجح نسبة كما اوردته ابن حزم لثقة التي يتمنع بها هذا الأخير في معرفة الأنساب وعدم ايراده أي نسب اذا لم يكن متأكداً منه .

(٢) ابن حزم : جهرة أنساب العرب ص ١٠٦

قال عبد الله المعطي ذات يوم : كأني بك يا فرشى قد اثرت فتنه وتقلدت اماره إلا اني أراك قليل المتعة بها فاستعد بالله من شر ما انت لاق . فوجم المعطي ما قل له واجبه : من أين يقول الشيخ ايده الله هذا ويعلم الله بعدي عنه . فقال : من اصح طريق ، فقد كنت أراك في منامي فاراً تقد حطها زرجون لم تثبت أن اخمدت فاوتها فتنه تقوم بها سرعة الحمود وكذلك احب امرك يكون فيها . والله اعلم . قال ظاهر الغطي الاستعاذه من ذلك وضرب الدهر من ضرباته الى أن كان من أمر المعطي ما ذكرناه فصحت رؤيا الشيخ فيه بعد أربعين سنة ..^(١)

وقد كان ظهور عبد الله المعطي هذا في شهر الانداس ونورته على سليمان المستعين بالله ومبaitه بالخلافة من المؤامل التي فلت في عضد سليمان واضعفت قوته العسكرية والمعنوية .

فإذا اضفتنا الى كل المؤامل المتقدمة عدم تحمس انصار سليمان من أهل قرطبة لقتال مع خليفتهم وشدة بأس البراءة من انصار آل حمود وآل زيري والصهابيين وغيرهم ، ادركنا السبب الذي ادى الى انكسار المستعين في المعركة التي خاضها ضد ابن حمود امام قرطبة .

مقتل سليمان المستعين :

اما فيما يتعلق ب نهاية سليمان المستعين فانها قد حدثت على الشكل التالي :

عندما وصل علي بن حمود وجنوده الى ظاهر قرطبة (على بعد عشرة فراسخ منها) برز اليهم الخليفة المستعين مع ابنه محمد بن سليمان على رأس قوة من الجناد ، فقاتل الفريقيان قتالاً شديداً ولكن المهزولة حلت بالخليفة

(٢) ابن بشكوال في الصله رقم ٥٨٨

ومن معه من القرطبيين فقر معظمهم على اعقابه ووقع سليمان في الاسر مع أخيه عبدالله وأبيه الحكم وابنه محمد فسيقولوا إلى علي بن حمود وسلموا إليه ليفعل بهم ما يشاء^(١).

دخل علي بن حمود على أثر ذلك إلى قرطبة مع الفتى السقلي خيران وغيره من الانصار والجند وتوجهوا لتوهم إلى قصر الخليفة أميين أن يجدوا هشاما المؤيد حياً ولكنهم بحثوا عنه في كل مكان فلم يعثروا عليه وأكد جماعته لعلي بأنه قتل، وعرضوا عليه أحد القبور وقالوا له بأن هشاما مدفون فيه فأمر بيشه ورفع الشخص المدفون فيه فقاموا. وجمع لأجل ذلك الناس واستدعى بعض قتيل المؤيد الذين رباهم وعرضه عليهم ، وكان أحد أولئك القتيلان يعرفه معرفة جيدة ويستطيع تمييزه من بين موداء كانت في قبره ، ففحصه وفتشه ولكن لم يستطع التأكد من شخصيته إنما هو وغيره على الرغم من ذلك على أنه هو المؤيد بنفسه خوفاً على انفسهم من بطش علي فيما إذا أظهروا عدم التأكيد من شخصيته . هذا ولم يكن ظاهراً على جهة هشام أي أثر لجرح أو ضرب فأمر علي بكفنه ودفنه بروضة فنفذه الامر^(٢).

(١) ينفرد التويري ج ٢٨ من نسخة عن طريقة وقوع سليمان بن يدي علي بن حمود فيقول : وتب القائد علي بن حمود من أولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه في سنة ٤٠٧ هـ طالباً بدم المؤيد وكان قد ولأه المستعين بالله العدو فعاد إلى الاندلس وترك الجزيرة الخضراء ، وقالوا المستعين بالله : لا بد من خروجك لمقاتل ابن يديك فركب المستعين بالله وخرج فلما قربوا من مسكن علي بن حمود قادوا المستعين بالله بجام بغلته وسلموه لعلي ، حمود فامر بضرب عنقه في سنة ٤٠٧ هـ.

(٢) ابن بسام ؛ النخبة القسم الاول الجلد الاول من ٢٩ وابن عذاري المراكشي ؛ البيان المغرب ج ١١٧ والتويري ، نهاية الارب ج ٢ من ٧٩ وابن الاثير ؛ الكامل ج ٧ من ٢٨٥

وبعد أن تم دفعه أمر علي باحضار سليمان وأخيه وايه بين يديه ، فلما مثلوه أمامه طلب إلى سليمان أن يحضر هشاما فاجابه انه قتل على يديه ابنه محمد بن سليمان والوزير احمد بن يوسف بن الدب ، فقضب علي جوابه وضرب عنقه بيده . ثم ضرب بعد ذلك عنق أخيه عبد الرحمن وأبوها يرى ذلك ثم تقدم من الاب وقال له : اهكذا يا شيخ قتل هشاما . قال لا والله ما قتلناه ولا هو إلا حي يرزق . فمجل علي بقتله وكان تقلياً صالح لم يتبعه شيء من امور ابنه ^(١) . وقد حصل ذلك كله في يوم ٢١ محرم سنة ٤٠٧ = يوليو سنة ١٠١٦ م ^(٢) .

بعد ذلك جعلت رؤوس هؤلاء القتلى في طست واخراجت ينادي عليها : هذا جزاء من قتل هشاما المؤيد ثم ردت الرؤوس الثلاثة ونظفت وطفيت ، وقد كانت رؤوس البربر المقتولين في الواقعة قد جمعت في قفة وجعل رأس احمد بن الدب في اعلاها وعلقت في آذانهم رقاع باسمائهم .

ويقول ابن حزم بأنه قد انقطع أمر بني مروان في الاندلس بعد ذلك الحادث ، حاشا من قام منهم بعد ذلك ممن لم يغش لهم أمر ^(٣) .

هذا وكان سليمان ابن قد ولاه عبده اسمه محمد ، نظير ايه في الامال ،

(١) ابن بسام ، التذكرة القسم الاول المجلد الاول من ٢٩ ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ١١٧ وابن الائبر : الكامل ج ٧ ص ٢٨٥ والتوربي ، نهاية الارب ج ١ ص ٧٩

(٢) وضع كل من عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٤ والضي ، بقية المتن من ٢١ قارباً مقتل سليمان المستعين خطأ في ٢٣ محرم سنة ٤٠٧ ^{هـ} بينما الاصح هو ما أوردناه اعلاه في ٢١ محرم سنة ٤٠٧ ^{هـ}

(٣) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٩٣

والرضا بفساد البلاد ، فـ " بعد قتل ايه الى منذر بن يحيى التجمي صاحب سرقسطه والثغر ظلما في أن ينصره هذا للصداقة المتبعة التي كان يرتبط بها مع ايه ولا ان سليمان المستعين كان قد استحبه . ولكن التجمي المذكور غدره وقتلها يده . وكان لحمد هذا ابن اسمه علي ، وقد انفرض عقب محمد بن سليمان (١) .

مصير هشام المؤيد بن الحكم :

بعد أن رأينا اهتمام الخليفة علي بن حمود بأمر الخليفة هشام الثاني ، ذلك الاهتمام الذي دفعه لتبش جثته من مثواها الأخير كي يعرضها على من كان يعرف شخص المؤيد معرفة وثيقة ، وبعد أن تأكد من أن المدفون هو بنفسه الخليفة هشام عاد إلى دفنه واتقى من قاتليه ، بعد ذلك كله هل نستطيع الجزم يا ترى بان هشاما المؤيد بن الحكم المستنصر كان قد مات فعلاً حين استولى علي بن حمود في محرم من سنة ٤٠٧ هـ (يواليه ١٠١٦ م) على قرطبة ؟

لقد تضاربت الآراء في هذا الموضوع واختلف المؤرخون فيما اوردوه من نصوص عن نهاية هشام ، بعضهم رجح مقتل هشام حين دخول سليمان بن الحكم إلى قرطبة في سنة ٤ = ١٠١٣ م وأخرون ذكرروا بان الشخص المدفون الذي عرض على ابن حمود وعابه لم يكن هو هشام بنفسه وإنما أكده له ذلك بعضهم لما رب خاصة أو خوفا من غضب ابن حمود عليهم ، وقسم ثالث ذكر بان هشاما كان لا يزال حياً آنذاك ويوردون عن حياته بعد ذلك التاريخ احاديث لا يمكن الجزم بصحتها أو تكذيبها . ونحن سنحاول هنا — بعد ايراد معظم الروايات التي ذكرها المؤرخون عن

(١) نفس المصدر السابق .

مصير هشام — استخلاص الحقيقة منها كلها اعلنا نوفق في القاء نوء على هذا الحادث الغامض .

يذكر عبدالواحد المراكشي : « ان هشاما المؤيد بن الحكم المستنصر قد قتل حين دخول سليمان والبرابرية الى قرطبة سنة ٤٠٣ هـ ويقول انه كان في طول دولته متغلباً عليه لا ينفذ له امر وغلب عليه في هذا الحصار - يعني حصار البربر لقرطبة - واحد من العبيد هو واضح العاري بعد محمد بن ابي عامر ولديه المغفر والناصر »^(٢) فالمراكشي هنا يؤكّد مقتل هشام عند دخول سليمان الى قرطبة .

وبؤيده في مصير هشام هذا المؤرخ اسان الدين ابن الخطيب الذي ينفرد بين جميع المؤرخين بذكر رواية تصف كيفية مقتل هشام وتعتبر من الوثائق التاريخية الهامة إذ يقول بالحرف الواحد :

وفي هذا العهد ، لاول عودة سليمان بن الحكم ، هلك هشام - رحمه الله - وكانت الفتىان والعامريان والبقايا الشاميون ، لما يئسوا من حسن العقي ، وايقنوا باستيلاء البرابرية مع سليمان على قرطبة ، قصدوا ليلة الاثنين الذي فتح فيه البرابرية قرطبة الى باب السدة وقد تأهبوا لافرار ، وجددوا في الدخول الى هشام « فلم يكتنهم من ذلك . فجعلوا يرسلونه ويعرضون عليه الدخول الى مدينة الزهراء كيما يجتمع الجندي اليه بها ، فايني وقل : « المدينة من قرطبة ، ومن فاته رئيس الامر فلا يأخذ بذنه . وقد علم الله اني ما احببت الدخول في شيء مما ادخلتوني فيه ، فقد نفذ قضائي بكراهي ، وهو حسي » . قالوا : « فاركب معنا الليلة في خف من رجال وصفوة من اهلك ، نخرجك في جمعنا ، ونقطع من الليل ، فتلحقك بقلعة

(١) عبدالواحد المراكشي المعجب ص ٤١

شاطبة ب محل عصمة ، فلا يبعد ان يلحق بك الناس ، وينحل امر عدوك
بسربعة » . فقال : « وهذا اشد . أعود الى مثل حال سليمان ، والفتح
الفتنة والمرج لlama هذا ما لا يكون ابداً » . فلما يئسوا منه ، مالوا
إلى الصلح من غد ، وطمعوا في الحياة ، واستجابوا لخلع هشام ومكثوا
من فاصيته . فحمل إلى سليمان ، وعاته ، ثم صرفه ، وقد رق له محمد
بن سليمان ولده ، ووساه بالجميل في أمره فقام معه أيام ، لا يخفى مكانه ، ثم عيب
شخصه ، فكان آخر العهد به .

وشايع يومئذ أن محمدأً اعجل عليه دون اذن والده سليمان ، فاغتاله
خنقًا منفردًا بذلك ، مع بطانته ابن حمير وشیره ، ثم خلون من ذي
القعدة سنة ٣٠٤ هـ . فكانت مدته في هذه الكترة سنتين واربعة أشهر ،
انتت ما قبلها من آماد الشر وازمان الفتنة . وكانت منه يوم الخلع الثاني ثمان
واربعين سنة واربعة أشهر . ولم يختلف عقباً من ذكر ولا اتي .^(١)

فابن الخطيب اذن من انصار الرأي القائل بقتل المؤيد في أول عهد
سليمان . وإذا حدث وأورد هذا المؤرخ في بعض نصوصه آية رواية عن
ال الخليفة هشام بعد هذا العهد فلتا كان يؤكّد بأنها اشاعات لا نصيّب لها
من الصحة .

اما ابن سام ، فيذكر ان سليماناً المستعين قد وبع هشاماً على خروجه
منه . ثم قيل بأنه قضى عليه وقيل انه فر من بين يديه^(٢) أي ان هذا المؤرخ
لا يرجح ايّاً من الاحتمالين .

(١) عبد الواحد المراكشي المعجب ص ٤١

(٢) ابن سام : الذخيرة - الفم الاول - المجلد الاول ص ٢٦

ويتبني ابن عذاري المراكشي رأياً آخر فيقول : « لما استقر المقام بسلیمان المستعين أمر باحضار هشام بن الحسکین يدیه فاحضر ، فأخذ يوبخه على مقاومته له وقال له : أما كنت تبرأت لي من الخلافة واعطیتني صفقة حينك ؟ فما حملك على أن نقضت عهده وحالات عقدك ؟ فاعتذر له هشام بأنه مغلوب على أمره مسير » في تصرفه ثم تبرأ من الخلافة ثانية امامه وأعلن خلع نفسه وتسلیم الامر اسلیمان فبایعه الناس بالخلافة (١) . كما قال في موضع آخر : « فر هشام الى مالقه حين استيلاء علي بن حمود على الخلافة في قرطبة . وبعد أن مکث فيها بعض الزمن ذهب الى المریه امعاناً في الاختفاء عن الناس ، ولكن صاحبها زهیراً الفتی أمر باخراجه من المریه ، فخرج منها واوى الى قلعة ریاح التابعة لابن ذی التون صاحب طلیطله ، وهناك عثر عليه القاضی ابو القاسم ابن عباد فاحضره الى اشبيلية ودعا له بالخلافة (٢) »

فابن عذاري في هذين النصين ينفي بأن هشاما قد قتل على يدي سلیمان المستعين حين دخول هذا الى قرطبة في سنة ٣٠٤ هـ .

ويقول ابن الاثیر (٣) : « ان هشاما المؤید اخرج من القصر وحمل الى سلیمان ، ودخل سلیمان قرطبة في منتصف شوال ٤٠٣ هـ وبويع له بها . ثم أن المؤید جرى له مع سلیمان اقصاص طویلة ثم خرج الى شرق الاندلس من عنده » . ونحن نزی في هذا الرأي ترجیح فرار هشام بعد

(١) ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب ج ٣ ص ١١٥

(٢) نفس المصدر السابق من ١٩٠

(٣) ابن الاثیر : الكامل ج ٧ ص ٢٤٩

دخول سليمان الى قرطبة . فابن الاثير من انصار هذا الرأي إذ أنه يعود الى التلبيس اليه ثانية في مكان آخر من تاريخه بقوله : « وكان ذلك الفتى الذي كاف بالتحقق من جثة المؤيد يعلم ان هذا حي .. » (١)

ويذكر المؤرخ ابن القحطان : « بان الخليفة هشاما فر من قرطبة حين استيلاء المستعين ، واستقر مدة من الزمن في احدى القرى القرية من اشبيليه يؤذن في مسجدها ويعيش من العمل في الخلفاء حتى عثر عليه القاضي ابو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد فاتى به الى اشبيليه ودعا اهل الاندلس جميعاً لمبايعته بالخلافة » (٢) .

كان نوعاً آخر من الروايات ذات ذيوعاً كبيراً في انجام الاندلس ومفاده بان هشاما - بعد دخول المستعين الى قرطبة في سنة ٤٠٣ هـ - عاد الى الاندلس الى الشرق متوجهاً نحو مكة ، وقد حمل معه خريطة مملوقة بالنقوش والنفائس ولكن الزروج الذين صحبوه سلبوه ما كان معه فبقى خاوي الوفاق من كل شيء . وذاق طعم الجوع يومين الى أن رأه رجل يصنع الخلفاء فرق له ورثى حاله فعرض عليه أن يتعجن له الصلصال على أن يعطيه في اليوم درهماً ورغيفاً ، فقبل هشام بذلك ورجا صانع الفخار أخذ هشام يكسب قوت يومه إنما بشقة وصعوبة لانه كان يأنف من تلك الحالة التي هو عليها . وبعد أن قضى هشام مدة على تلك الحال ، هرب مع فافلة ذاهبة الى فلسطين ووصل الى اورشليم وهو في اشد حالات

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٧ من ٢٨٥

(٢) ابن القحطان عن ابن عذاري المراكبي ، اليان المغرب ج ٣ من ١٩٩ وابن الاثير ،
الكامل ج ٧ من ٢٩١

الاملاقي ، وهناك بينما هو يتنقل في بعض طرق المدينة إذ وقف على حانوت حصري واخذ ينظر عمله بانتباه شديد فسأل الحصري : هل تعرف هذه الصناعة ؟ فاجابه بحزن : كلا ، وانا آسف لانه لا سبيل الى العيش وكسب ما اسد به الرمق . فقال الحصري : اذن فاقب معي حاجتي اليك في احضار الخيزران ولك اجرك . قبلاً مسروراً وبقي عند الحصري الى ان حدق الصناعة . ودام على هذه الحال بضع سنين ثم اذيع بأنه عاد الى الاندلس حيث ظهر في المريه سنة ٤٣٦ هـ فاستقدمه ابن عباد ودعاه وجعل نفسه حاجه .^(١)

لا شك بأن هناك روايات اخرى عن مصير هشام ولكن ما ذكرت هو الام ، فماذا نستطيع ان نستخلص من كل ذلك ؟

نستخلص من ذلك كله ان شخصية هشام المؤيد الضعيف ، أصبحت ستارة يختبئ خلفها الطامعون في الحكم فبعض هؤلاء كان يعلن موته لكي يصبح هو وريثه وال الخليفة الشرعي للبلاد وآخرون كانوا يعلونون حياته دون أن يظهروا للناس ويتخذون لانفسهم لقب الحاجب فيحكمون البلاد باسمه حكماً فعلياً مطلقاً .. الخ

وهذا ما دعا مؤرخ الاندلس ابن حيان الى القول : « مات هشام يد أول خاليه وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار ودفن علانية . ثم اظهره بعد ذلك الفتى واضح ملك مدة حتى مات مرة ثانية يد خالمه الثاني سليمان بن حكم الذي دفنه خفيه . ولما وصل علي بن حمود الحسني الى الخلافة

(١) ابن حيان عن ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ من ١٩٩ وابن الخطيب : اعمال الاعلام من ١٢٩ وابن الاتير : الكامل ج ٧ من ٣٩١

أخرج جنته وتأكد من شخصه ثم عاد إلى دفنه الدفعة التي خلناها حقيقة
إلى أن وقعت عليه هذه الميّة الثالثة (حين أعلن ذلك ابن عباد سنة ٥٤٥ هـ =
١٠٥٩ م) بعد خمس وعشرين سنة من الميّة الثانية . وعسى أن تكون إن شاء الله
الصادقة فكم قتل وكم مات ثم انتفض عنده التراب .

واني اعتقاد شخصياً من تبعي لتطورات هذا الحادث أن كل
الروايات التي قيلت عن هشام المؤيد بعد دخول علي بن حمود إلى قرطبة
سنة ٤٠٣ هـ لا تستند إلى برهان حي ظاهر ، بل هي من نوع التقدير
والاشاعات التي كان يروجها بعض الحكماء آنذاك من أجل مآربهم الخاصة ،
وانه لو كان هشام حياً فعلاً في تلك الفترة لاستطاع الكثيرون أن يروه
ويتعرفوا عليه ويتأكدوا من شخصه وهذا لم يحصل أبداً ، بل رأينا
على العكس أن بعض الناس قد تعرف على جنته حين أخر جها من موتها على
بن حمود في سنة ٤٠٧ هـ (١٠٦٦ م) ولذلك فاني ارجح ان هشاماً كان قد توفي
فعلاً في ذلك الوقت .

شخصية سليمان المستعين الأدبية :

كان سليمان بن الحكم من فحول الادباء والشعراء في عصره ، شهد له بذلك
معظم المؤرخين الذين ارخوا له وتكلموا عن دولته . والليك ما يقوله عنه الاديب
الاندلسي الكبير ابن بسام الشنتربي (١)

كان سليمان من مدّت له في الادب غالباً كفى دونها أهل الادب ،
ورفت له في الشعر راية مثى تحnyaً كثير من الشعراء والكتاب ، غير ان

(١) ابن بسام : الذخيرة - القسم الاول المجلد الاول من ٣٢

ايم الفتون الوت بذكره ، وايدي تلك الحرب الزبون طوت بجملة شعره .
وهو أحد من شرف الشعر باسمه وتصرف على حكمه ، مع قعود أهل
الاندلس يومئذ عن البحث عن مناقب عظمائهم وزهدهم في الاشادة بمراتب
زعمائهم . ولم اظفر له إلا بقطمة عارض بها هارون الرشيد فشعشت بها
الكؤوس وتهادتها الانفاس والنفوس . وقد اثبتت القطامين معاً ليرى الفرق
ويعرف الحق .

قال هارون الرشيد ؟ (١)

ملك الثلاث الانسات عناني
وحلان من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها
واطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك إلا ان سلطان الهوى
وبه قوين، اعزَّ من سلطاني

فقال سليمان المستعين :

عجب يا يهاب الايث حد سناني
واهاب لحظ فواتر الاجفان
منهاسوی الاعراض وال مجران
وقلكت نفسي ثلاث كالدمى
زهر الوجوه نواعم الابدان
ككواكب الظلاماء اعن لاظرى
من فوق اغصان على كثبان
هذا الملال وتلك بنت الشري
حسناً وهذه اخت غصن البان
حاكت فيهن السلو الى الصبا
فقضي بسلطان على سلطاني
في عز ملكي كالاسير العاني
لا تعذلوا ملكاً تذلل لا هوى
ذل المهووى عز وملك ثانى

(١) ذكر عبد الوحد المراكشي : للعجب من ٤٥ ان هذه الايات الثلاثة ليست في
الاصل من نظم الخليفة العباسي هارون الرشيد وإنما هي من نظم العباس بن الاحتف
قالها على لسان الرشيد فنسب اليه .

ما ضراني عبد هرت صباة وبنو ازمان وهن من عبادني
ان لم اطع فيهن سلطان الموى كلفا بهن فلست من مروان
هذا وقد كان يكرم الشعراء ويندق عليهم اعطياته وهباته فاكثروا من
 مدحه . وكان من أشهرهم ابن دراج القسطلي الذي نظم في حقه عدة
قصائد اثبث معظمها ابن بسام في ذخيرته .

المقدمة المعاصرة

خلافة علي بن حمود

هو علي بن حمود بن أبي العيش ميمون بن حمود بن علي بن عبد الله بن عمر بن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .^(١) ويكنى بابي الحسن . كانت أمه قرشية تسمى البيضاء وهي ابنة عم ابيه . وهو أول ملوكبني هاشم بالأندلس . بويع بالخلافة ثاني يوم من قتله لسلیمان بن الحكم أبا في ٢٢ محرم سنة ٤٠٧ هـ = ١ يوليه سنة ١٠١٦ م ، وقد اتخذ لقب الناصر لدين الله .

يصفه ابن عذاري المراكشي في موضع من كتابه بكونه امراً ، اعين ،

(١) هكذا اورد نبه ابن حزم : جهرة انساب العرب ص ٤٤ ، وابن حيان عن ابن سام : النجارة القسم الاول المجلد الاول ص ٧٨ وابن الائير : الكامل ج ٣ ص ٢٨٤ وابن الأبار : الحلقة السيراء ص ١٦٢ والضي : بغية المانع من ٢٢ وعبد الواحد المراكشي : الموجب ص ٣ وابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب ج ٣ ص ١٢١ (بعض هؤلاء وضع احد عوضا عن حمود « الثانية » وليس لذلك اهمية تذكر) .

تنسد عينه الواحدة المرة بعد المرة ، نحيل الجسم ، طوبل القامة^(١).

ثم يعود الى الكلام عنه ثانية في مكان آخر من تاریخه فيقول انه كان سخيناً ، شجاعاً ، حاد الذهن ، عازماً ، حازماً ..^(٢)

ويضيف ابن الأثير على صفات ابن حمود السابقة الذكر اخرى جديدة فيقول انه كان عادلاً ، شفيفاً ، حسن السيرة^(٣).

يمكى ان عليا بن حمود كان « تلقاعه »^(٤) ، شديد الاختابة بعينه ، لا يكاد يفتح عينيه على شيء يستحسن الا اسرعت الامة اليه ، وله في ذلك نوادر عجيبة ، ولربما قال لانفسه من نسائه ، واري محاسنك عن عيني ما استطعت ، فاني شاح عليك من عيني وانا احب الاستمتاع بك او كلاماً هذا معناه .^(٥)

عامل علي بن حمود في بادى أمره أهل قرطبة معاملة حسنة وابدى لهم عطفاً ولينا وقا على البرارة طمعا في ارثاء القرطبيين ، فطبق عليهم الحدود وازل بهم العقوبات لأقل شبهة حتى صار أقل الرعية يرفع وجهاًهم الى الحكم بما شاء من الدعاوى فتجري عليهم الاحكام باقى ما تجري على غيرهم رغم انهم نصروه واوصلوه الى الخلافة . وتنفس أهل قرطبة الصعداء

(١) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ من ٢٢١

(٢) نفس المصدر السابق ج ١٢٤

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٧ من ٢٨٥

(٤) تلقاعه تعني

(٥) ابن حيان عن ابن بسام - التذكرة الفسم الاول المجاد الاول من ٨٠ وابن عذاري المراكشي البيان المغرب ج ٣ من ١٢٣

في عهده وتبينوا بأن البرارة يطعون من يخافونه وأنه من المكن السيطرة عليهم . وجلس علي الناصر بنفسه لمظالم الناس وهو مفتوح الباب ، لم يعين لباه حاجيا يدخل الناس عليه بل يدخلون كما شاؤوا ، ويقيم الحدود بنفسه ولا يستثنى في ذلك أحداً من كبار قومه . فانتشر في قرطبة وانحصارها نوع من العدل والطمأنينة لم يكونا يعرفان منذ زمان .

ومن بعض ما يروى عن مباشرته اقامة الحدود بنفسه انه قدم اليه نفر من البربر في جرم كبير فنظر في أمرهم ثم أمر بضرب اعناقهم بحضور عدد غير من وحوه قبائلهم وعشائرهم ينظرون الى رؤوسهم تفصل عن اجسامهم دون ان يحسنروا على الشفاعة لهم مما دلن أهل قرطبة أشد فتنة وجعلهم يعججون بجزمه وجراحته . وقيل أنه خرج يوماً على باب عامر فالتقى بفارس من البربر وامامه حمل عنبر فاستوقفه وقل له : من أين لك هذا ؟ فقال : أخذته كما يأخذ الناس . فامر بضرب عنقه ، ووضع رأسه وسط الجل ، وطيف به في البلد لكي يكون عبرة لمن يخالف الانظام والقوانين (١) فساد السلم وقل الفساد .

ليس معنى هذا كله أن علياً بن حمود لم يظهر أي نوع من أنواع العنف تجاه القرطبيين ، فقد كان لا يقصر عن استعمال السدة عند الحاجة . ونستنتج من أحد النصوص لابن حيان أن علياً بن حمود قد استدعي اليه في أحد الأيام بعض من خدموا في عهد سليمان المستعين وحاسبهم على ما عملوه وكسبوه في عهد هذا الخليفة ثم أمر بمصادرة بعض أموالهم وأمتهن بعضهم بالضرب رغم علو مكانتهم بين الناس . فكان ذلك من اعظم المصائب

(١) ابن بام: الذخيرة قسم اول مجلد اول من ٨٠ وابن عذاري المراكشي : البيان الغرب ج ٢ ص ١٢١ والمقربي : فتح الطيب ٢ ص ٢٨

التي وقعت عليهم.

ظهور المؤنثي الاموي:

قام في شرق الاندلس في سنة ١٠٧٤ م = ١٠١٦ م رجل من الامويين دعا لنفسه بالخلافة وتلقب بالمرتضى . أما اسمه الكامل فهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن الرحمن الناصر . وقد قام بالثورة على ابن حمود مستهدفاً استرجاع عرش الامويين من أيدي البراءة الحوديين الذين لم يكونوا في نظره سوى معتصمين للخلافة . وكان ساعده الامين في اعماله كلا الفقي الصقلي « خيران » الذي رأيناها يدخل قرطبة جنباً إلى جنب مع علي بن حمود والذي انقلب عليه الان على ما يظهر . فما سبب هذا الانقلاب يا ترى ؟ ان خيران حين دخل قرطبة مسمى علي بن حمود

(١) ابن حيان عن ابن بسام ، الذخيرة الفقير الاول المجلد الاول من ٨١ والمفرغ : فتح
الطب ح ٢٨ من ٢

كان يأمل في الثور على هشام المؤيد حياً فتسلم اليه مقايد الامور ويقى
هو وعلي بن حمود كوزراء لدى هشام فلما لم يعثر عليه حياً وتسلم علي
بن حمود منصب الخليفة فقد خيران على الوضع بصورة عامة وعلى علي
بصورة خاصة لوصوله الى ارفع من مكانته بكثير . هذا وربما اعتقد
خيران بان ابن حمود قد خدعه بكتاب هشام الذي اظهره له وأن ذلك
الكتاب كان مزوراً . كما يذكر بعض المؤرخين ان علياً بن حمود لم
يكن ينظر نظرة رضي الى النفوذ الذي كان يتمتع به خيران في ظل الخليفة
فأخذ يعمل على التخلص منه ، وبلغ ذلك خيران فقرر الثورة عليه
والانتقام منه .

ان ^أمجموع هذه الاسباب ^{أو} قسماً منها ، مع احتفال وجود عوامل
^{ثانوية} أخرى هي التي دفعت الفقي خيران الى التعجيل في الفرار من قرطبة
إلى شرق الاندلس حيث اجتمع هناك بالمرتضى فأبده ، وانضم اليها
خلق كثير .

كان اتباع المرتضى يكترون يوماً بعد يوم ، حتى أن أهل قرطبة
الذين لا زال قسم كبير منهم يحن الى الامورين بدأوا يهتمون باخباره
ويظهرون الميل اليه . واستاء علي بن حمود منهم ايتها استياء ، إذ كان قد
بذل جهده في ارضائهم وادا لهم يملون في نهاية الامر الى رجل اموي ويتناسون
المعاملة الحسنة التي كانوا يلاقونها منه .

وبين عشيّة وضحّاها ، انقلب علي بن حمود على أهل قرطبة وصب
« عليهم جام » غضبه ، لما تأكد من ميلهم للمرتضى ، فزاد الفرائض
وانزع منهم السلاح وصادر كثيراً من اموالهم ، ولم يعبأ بانصافهم في المحاكم
والدعوى ، وجمل قوماً من الاشرار يعتدون على وجهائهم ويلصقون بهم

مختلف الهم التي أدت بالكثير منهم الى اعماق السجون . وبث عيونه وانظره في كل مكان فصار كل من القرطبيين يحسب نفسه مراقبا من جاره بل أقرب الناس اليه . وعمت البلية ودام الحال على هذا الشكل حتى مقتل علي بن حمود .

مقتل علي بن حمود :

في شهر ذي القعدة من سنة ٤٠٨ هـ = مارس (آذار) سنة ١٠١٨ م ، أخذ علي بن حمود بعد المدة لاسير نحو جيان لقال من بها من جند خيران والمرتضى . فلما كان الثامن والعشرون منه خرج الجيش الى ظاهر قرطبة بالاعلام والطبلول ووقفوا ينتظرون قدوم علي بن حمود .

كان هذا قد دخل عند السحر الى الحمام ، وكان بعض صقالبته قد تآمر واعليه لقتله ، وكان عددهم ثلاثة هم منجح ولبيب وعجب وضعوا خطوط مؤامرتهم في نفس تلك الليلة وقرروا تنفيذها في الصباح . فلما دخل علي الحمام وجدوا الفرصة مناسبة لتنفيذ غرضهم ، فتسلاوا اليه وهو عار يستحم فابتدره منجح بكوب ثقيل من النحاس هوى به على رأسه بكل قوته فشجه فوقع مغشياً عليه ثم نادى صاحبيه فاسرعا واخذوا يطعنانه بالخناجر حتى برد فاغلقوا باب الحمام عليه وتسلاوا الى سقف بعض القصور وکنوا في مخابيء هناك لم يكن يعرفها غيرهم فلم يشعر بهم آنذاك أحد . ولما استطاع نساقه بقاءه بالحمام دخلن عليه فراغهن ما رأين من دماءه الفزيرة التي كانت تلطخ أرض للكان ووجنه قد لفظ الانفاس وفارق الحياة .

وسرعان ما انتشر نبأ مقتله في المدينة ، فارتاع انصاره من قبيلة زناته وصاروا يبحثون عن القتلة وعن الدوافع التي دفعتهم الى ارتكاب جريمتهم . ولم تكن تلك الدوافع على ما يظهر سوى نفقة على المعاملة السيئة

التي كان يلقاها هؤلاء الصقالبة من علي بن حمود وخوفا على انفسهم منه .
ويبت هذا القول ما ذكره ابن حزم من أن الفتى الذين قتلوا علينا بن حمود
ما فعلوا ذلك إلا دفاعا عن حياتهم التي كانت مهددة بالخطر وأنهم حين قبض عليهم
واستجوحوه أقر واجبرهم .. (١)

ولما علم الجنديون كانوا قد خرجن الى ظاهر قرطبة ينتظرون خليفتهم
للسير نحو جيان ، بقتل علي ، عدلوا عن المسير وعادوا ادراجهم الى قرطبة لكي
برروا ماذا ستتوخض الاحداث عنده آنذاك .

ويعلق ابن حيان على مقتل علي بن حمود بقوله : اما أهل قرطبة ففرّج عنهم عم عظيم بقتله وابتهلوا بشكر خاقتهم (٢) .

ثم يقول في مسكات آخر : « انقضى أمر علي على هذا السبيل وسار خامساً لمقتلي حبارة الملوك في الاسلام بابدي عبيدهم واتباعهم في الحلم خاصة : احدهم الفضل بن سهل ذو الرئتين وزير المؤمن ، ثم ابو سعيد الحنفي صاحب القراءة ، ثم الديامي المنزري باصبهان بعد الثلاثاء ، ثم ناصر الدولة الحسن بن حمدان المنزري بالموصل واعمالها في تلك المدة ، وأخرهم علي بن حمود هذا المنزري بالاندلس بعد الاربعين ، مع مزينة عليهم ببراعة الترف وحرمة القرابة . » (٣)

لم يتَّأْ انصار على من قبَلَه زناه واقرباؤه ان يضيئوا الوقت فارسلوا

(١) ابن حزم : نقط المروء س ٢٠

(٤) ابن حبان عن ابن بام - المذكرة الفم الاول الحمد الاول من ٨٣

3 3 3 3 3 3 3 3 3 3 3 3 (T)

حالاً إلى أخيه القاسم ، وكان آثناً ولياً على أشبيليه ، يخبرونه بالواقعة
ويدعونه إلى المحبة لاستلام العرش مكان أخيه . ولكن القاسم لم يصدق
في بادئ الأمر وخف أن تكون حيلة من أهل قرطبة (١) . فارسل من
من تحقق من ذلك وعاد فأخبره بصحة ما سمع فرحل القاسم حالاً إلى قرطبة
ووصلها في اليوم الثالث من مقتل أخيه علي الذي أخرج جسده فصلي عليه القاسم
ثم أرسله إلى سبتة حيث دفن هناك .

كان علي بن حمود اديباً مجيداً للعلم والثقافة والشعر ، يسر بالمدح
ويجزل المطاء عليه ، ولذلك فقد مدحه طائفة من الشعراء البدعية
امثال ابن الخطاط القرطبي وعبادة بن ماه السماء وابن دراج القسطلي
وغيرهم ..

وقد اعجب ابن بسام بأحدى القصائد التي نظمها ابن دراج القسطلي في
 مدحه ابن حمود اعجبانا به لم يصفها بما يلي : (٢)

« لابن دراج القسطلي قصيدة طويلة في علي بن حمود ، وهي من
الهاشيميات الغر ، بناها من المسك والدر لا من الجص والاجر ، لا
بل خلدها حدثاً على الدرر ، وسر بها مطالع النجوم الزهر ، لو قرعت
سمع دعبدل بن علي الخزاعي والكميت بن زيد الاسدي ، لامسقا عن
القول ، وبرنا إليها من القوة والحوال ، بل لورآها السيد الحميري وكثير
الخزاعي لاقاماها بنية على الدعوة ، ولنقياها بشارة على زعمها بمخرج

(١) يذكر المؤرخ بهذه المناسبة أن القاسم لما ورد عليه رسائل البراءة من قرطبة بدعونه
لتسلم الخليفة مكان أخيه ، لم يظهر فرحاً بالamarة وخف أن تكون حيلة من أخيه عليه
ففهقر إلى أن اتفتح الحق فركب إلى قرطبة .

(٢) ابن عسام : الذخيرة الفاسدة الأول المجلد الأول من ٧٠

الخيل من رضوى ،

وتبدأ القصيدة بالآيات التالية :

شجيت بشجو الغريب الذليل
وكوني رسولي الى ابن الرسول
فهدي الغريب سواء السبيل
الى الفاطمي المطوف الوصول

لملائكة يا شمس عند الاصليل
فككوني شفيعي الى ابن الشفيع
لعل عوقيه أن تسم
الى الماشربي الى الطالبي

الفلم الثامنة

خلافة القاسم بن حمود

تخدم نسبه في خلافة أخيه علي ، وكان يُكنى أبو محمد ، وبِلْقبِ الْمَأْمُونِ .
أمِهِ هي أمِ أخيه علي والمسمى « البيضاء » كما ذكرنا . وكان أَسْنَ من أخيه
بـ عشرة أعوام .

كان امراً ، اعين . اصفر اللون ، طوبلاً ، اكحل ، خفيف المعارضين
لما بايده الناس في قرطبة بعد ستة أيام من مقتل أخيه أبي في ٧ ذو العقدة
سنة ٤٠٨ = ٢٨ مارس ١٠١٨ م احسن استقبال الناس واجمل لهم
الوعود ، وأمر بان ينادي بالامان على جميع الناس مهما كان جنسهم . ثم
أمر بالتفتيش عن قتلة أخيه حتى عثر عليهم ، فعذبوه أشد العذاب لكي يعترفوا
فيما اذا كان لهم شركاء في الجريمة ، فنفوا ذلك بتاتاً واكدوا بان الجريمة كانت من
تدبيرهم وحدتهم ، فأمر بقتلهم .

نعم اقره القاضي ابن الحصار الذي كان يمارس وظيفة القضاء في

خلافة أخيه في منصبه ، واقر الموظفين في مناصبهم ، والحكام في ولاياتهم .
وظهر منه منذ بادئ حكمه عدلاً ورأفة ، فتقسم الناس روح الرفق ورتعوا في
ظل الأمان ، وأطمأنوا بهم الحال .

تحدث معظم الروايات عن القاسم بن حمود ك الخليفة موادع حسن
السيرة لم يغير الناس على عادة معينة أو مذهب معين رغم أنه كان متشارعاً
لآل البيت ، إذ أنه كان حريراً على الا يظهر ذات لثلا يؤثر فعله على علاقاته
مع الشعب ^(١) .

وقد حاول استهلاك الموالي العاريين الذين كانوا قد غادروا قرطبة واعلنوا
خروجهم عن طاعة الخلفاء في العاصمة ، فراسل بعضهم مثل الفتى زهير
الذى أصبح في زمانه والياً على جيان وقلمة رباح وبإسمه Baeiza كا
كتاب الفتى خيران الصقلبي الذي كان قد خلع طاعة أخيه علي فأتى إليه
خieran واجتمع به ولكن الاتفاق لم يتم بينهما إذ سرعان ما غادره خيران
عادلاً إلى الريه .

لم يفل انسجام الخليفة الجديد مع أهل قرطبة ، فسرعان ما بدأ
الفساد يدب إلى العلاقات بين الطرفين . فان القاسم بن حمود رأى بأنه لا
يمكن وضع ثقته التامة بالبربرة الموجودين في قرطبة فصار يقتني العبيد السود
ويسألهم شؤون قصره ، ويستند إليهم الوظائف والمهام ويحودهم على أعماله .
فكان ذلك مبيناً في غضب البربرة وأنحرافهم عنه أولاً ، وفي استياء الاندلسيين
ثانية لرؤيتهم عنصراً جديداً يدخل بلادهم كي يشكل طبقة جديدة تنافسهم
في السلطة والحكم .

(١) المقرى : فتح الطيب ج ٢ ص ٢٩ وعبد الواحد المراكبي ، المعجبس ٥ والنورى
نهاية الارب ج ١ ص ٨٠

هذا وقد لاحظ الخليفة ابن حمود منذ بدء خلافة ميل البراءة الى تأييد ابن أخيه يحيى التسلم لمدينته مالقه ، فأخذ ينظر اليهم نظره الخذر ولم يعد يأمن منهم على ملكه ، فاتسعت شقة الخلاف بينه وبينهم ، وادي ذلك الاتساع كما سترى فيما بعد الى اضطرار القاسم الى الفرار أيام جيوش ابن أخيه يحيى الزاحفة الى قرطبة .

في الوقت ذاته ، ومن الاسباب التي ساعدت على التباعد بين القائم والقرطبيين ، ازدياد ميل هؤلاء الى المرتضى الاموي الذي ذكرنا بأنه ظهر في خلافة أخيه علي في شرق الاندلس ودعا لنفسه هناك بالخلافة ، فالتافق حوله خلق كثير . فقد زاد الارجاف بذلك الاموي في ايام القاسم وصار الحديث الناس في ليتهم ونهارهم وقتوها نصرته كي يخلصوا منبني حمود والبراءة ويعود الحكم الى أصحابه الشرعيين من الامويين ، فنفر منهم الخليفة القائم واخذ بعد المدة طاجبهة خطر تلك الموره المتاجحة .

وكان الحظ حليف ابن حمود بالنسبة لثورة المرتضى إذ انهى هذا الى النهاية التي كان يتمناها له القاسم كامتنانين بعد قليل ، بينما خانه الحظ في موقفه تجاه ابن أخيه يحيى ، إذ استطاع هذا أن يستميل اليه البراءة والأندلسيين في العاصمة وأجبر عمه على الفرار من قرطبة لاجئا الى اشبيليه . ولنر الآن كيف كانت نهاية المرتضى .

الاستعدادات للثورة :

بعد أن اعلن خيران انضمامه الى المرتضى محمد بن عبد الرحمن وبابنه بالخلافة ووضع جنده وموارد مدینته المريه تحت تصرفه ، اخذ الاثنان يعملان معا في اعداد المعدة وتنظيم الخطاط لهاجمة قرطبة وفتحها . وقبل ان يلتجأ خيران الي العمل العسكري اخذ يهدى لذلك لدى ملوك الطوائف ،

فانصل بعدد منهم ودعاهم الى مشاركته في المجمع على قرطبة . فلبى معظمهم دعوته وعاهدوه على نصرته ونصرة المرتضى حتى تتحقق الامانى وكان أشهر أولئك الذين اتضموا اليه منذر بن يحيى التجيبي صاحب مرسقطه والغفر الاعلى وسليمان بن هود وامراء شاطبه وبلنسية وطرطوشة والبونت Alpuente وهكذا اتفق اكثراً أهل الاندلس على مناصرة المرتضى واجتمعوا بوضع يعرف بالرياحين في عيد الاضحى من سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٨ م) وحضر ذلك الاجتماع جم غفير من الفقهاء والمشايخ واعلنوا مبايعة المرتضى بالخلافة على طريقة الشورى ، أي ان الناس كانوا يرون من امامه ويصفقون على يده (يصفحونه) دلالة على اعتقادهم بخلافته .

قويت نفس المرتضى بعد تلك اليمعة ورأى امامه من الجوش ما يكفل له النصر النهائي وتيقن من أن دخوله قرطبة اصبح مضموناً . ولكن على الرغم من ذلك فان خيران لم يتورع عن مراسلة الفرنجة وطلب النجدة منهم ، فلبى هؤلاء طلبه وارسلوا اليه فرقه من الفرسان كي تشتراك في الحرب المقبلة التي ستشن ضد الخليفة في قرطبة .

تم كل هذا وما يخص على وصول القاسم سنة واحدة . ولما رأى المرتضى واصحابه ان كل شيء اصبح جاهزاً لالسير بدأوا تحركهم على رأس ذلك الجيش الغفير من العبيد العارفين والاميين والاندلسيين والفرنجة نحو قرطبة . ولكن خيران وصحابه فكرروا انه يحسن بهم قبل الوصول الى قرطبة مهاجمة حليف قوي من حلفاء القاسم بن حمود هو زاوي بن زيري أمير غرناطة ومنطقة البيرة . فما الذي دعاهم الى ذلك يا ترى ؟

لقد تعددت الروايات في تعليل ذلك التوقف عند غرناطة : فهنا ما يقول بان خieran ومنذر وصحابها رأوا بأنه من الخطأ السير الى قرطبة

وترك الامير الصنهاجي زاوي بن زيري ورائهم يهدد مؤخرتهم في كل وقت فنصحوا المرتضى بان يتخلص منه قبل كل شيء ثم يتابع طريقه بعد ذلك الى قرطبة ^(١) . وقد ظن المرتضى ان هذا الامر لن يأخذ من وقته اكثرا من ساعة واحدة يصطلم فيها الامير البريري زاوي ثم يتابع تنفيذ خطته بعد ذلك . يسد ان الواقع اظهر له غير ما كان يعتقد ودارت الدائرة عليه كما سترى .

وهناك نوع ثان من الروايات التي تقول بان منذرًا التجبي وخيران العاري قررا الغدر باصحاب المرتضى والخلص منه ، فاوحايا اليه بفكرة حصار غرناطة وقررا في الوقت ذاته اطلاق زاوي بن زيري على خطتها وعلى عندها الغدر بالمرتضى كي يكون على يديه من الامر ويعلم بان الفوز في النهاية سيكون له فيثبت في المعركة حتى ينجلي بفرار الخائفين .

أما الموارد التي دفعت هذين الاميرين الى الغدر بالمرتضى فيمكن اجمالها باحد الامور التالية أو بجموها معاً .

١ - يذكر بعض المؤرخين ان منذرًا التجبي وخيران الصقلي قالا لبعضهما : « أرأاك المرتضى في الاول وجهاً ليس بالوجه الذي زراه حين اجتمع اليه الحم الفزير ، وهذا ما كر غير صافى النية .. » ^(٢) فقرر الغدر به .

٢ - يظهر ان الاميرين السابقي الذكر قد ظنا بان المرتضى ان

(١) ابن حيان عن ابن سام - الذخيرةقسم الاول المجلد الاول من ٤٠٠

(٢) المغربي ، نفع الطيب ج ٢ ص ٣٠ وابن عذاري المراكشي اليان المغرب ج ٣ من ١٢٧ ، وابن سام ، الذخيرةقسم الاول المجلد الاول من ٣٩٨ .

يكون إلا صورة في الحكم وانهما هما اللذان يسييران الامور وي فعلان ما يريدان . فلما وجدا بأن المرتضى لم يكن من ذلك النوع من الناس وانه ينوي تسيير الامور بنفسه والاشراف على كل صغيرة كبيرة ، وكرهوا التعاون معه وعملوا على التخلص منه (١) .

٣ - ذكر ابن حيان انه لما جاء مثذر التجبي في جيشه مع الفرنجية وغيرهم للجتماع بالمرتضى في مدينة شاطئه لفزو قرطبه ، كان من جملة من يرافقه شخص بارز يدعى ابن مسوف ، مر من بلنسيه فأغلاق واليها « مبارك » ابوابها في وجهه ومنعه من دخولها . فلما اجتمع ابن مسوف بالمرتضى بشاطئه حرضه ضد مبارك وطلب اليه ان يخرجه لفزو ، ولكن المرتضى لم يستمع الى رأيه وقبل عذر مبارك في عدم امكانه الاشتراك في الفزو بل كلفه بجمع الاموال بعد مسيره وارسالها اليه . ففقد ابن مسوف وعقد اجتماعا مع خيران ومنذر تعاهد فيه الثلاثة على القدر بصحابهم (٢) .

٤ - قيل ان المرتضى بعد أن بايعه امراء شاطئه وبلنسيه وطرطوشة والبونت بالخلافة كما ورد معنامنذ قليل مال الى هؤلاء وقر بهم اليه واقبل على اخذ رأيهم في كل أمر . بينما اظهر الجفاء لمنذر بن يحيى التجبي وخيران فندما على ما كان منها وصمها على حياته .

على أي حال لم ينف حلفاء المرتضى بتعدهم له بنصرته حتى النهاية وتخلىوا عنه أمام غرفاته فكانت نهايته على يد زاوي بن زيري ، فلما الآن كيف حدث ذلك .

(١) Dozy : Recherches p 230

(٢) ابن حيان عن ابن بسام ، التختيرة القسم الاول المجلد الاول من ٤٠٠

زاوي بن زيري :

هو زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي أحد أمراء قبيلة صنهاجة التي كانت تحكم في إفريقيا (تونس) وكان يكتفى بابي مقى . جاز إلى الاندلس في آخر سنوات حكم المنصور بن أبي عامر مع ابناء أخيه ماكس وحبسه وحبس الشاحنات التي نشبت بين أخيه زيري وبين أقربائه من ملوك إفريقيا باديس بن منصور بن بلقين ، ففضل الرحيل عن بلده على الاستقرار في تلك الحروف العائلية التي كانت تخزّن في نفسه وتخزنه . وقد تلاقى الحاجب المنصور بكل بر وترحيب وأكرام واغدق عليهم النعم والعطايا وجعلهم الغريب المفضل في جيشه فذاع صيتهم لما أظهروه من الجرأة والفروسية والمعروفة بفنون القتال^(١) . ولما توفي المنصور بن أبي عامر وخلفه في الحجابة ابنه عبد الملك المغفر زاد هذا في تقوّي الصنهاجة إليه وأصبح أميرهم زاوي ساعده الائين حتى دعاه بعضهم بمحاجبه للتعاون الوثيق الذي وجد آنذاك بين الاثنين . ثم لما مات عبد الملك وحل محله أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول اضطربت الأمور بقيام محمد بن عبد الجبار اللقب بالمدى بالثورة على العامريين ولما نجح هذا في الاستيلاء على قرطبة أعمل البربر أسوأ معاملة لتأييدهم آل عامر وتخزيئهم فاذلهم وتنكر لهم ولاحقهم في كل مكان ، فخرج معظمهم عن قرطبة فارضاً من وجه ابن عبد الجبار . واتفقا آنذاك كاً تقدم معنا حين كلامنا عن خلافة محمد بن هشام حول أمير أموي هو سليمان بن الحكم وبابيعه بالخلافة بناء على نصيحة أميرهم زاوي بن زيري . واستعنوا آنذاك بالنصارى كرأينا وأخذوا يهاجرون مدن الاندلس ويستولون على بعضها ويعملنون فيها استقلالهم فكانت منطقة البيرة وعاصمتها غرناطة من نصيب

(١) يصفهم ابن الخطيب في الاحاطة ص ٥٢١ بأنهم جماعة وافرة من مساعير الحروب وآثار الحروب .

الصناهجة برئاسة اميرهم زاوي ، فأدوا إليها واتخذوها دار ملك لهم واسس فيها زاوي سلالة حاكمة توارثت فيها السلطة حوالي القرن تقرباً .

يقول ابن الخطيب في ذلك : « فلما انحازت صناهجة إلى غرناطه ، جمأها زاوي المذكور ، واقام بها ملكاً ، وائلٌ بها سلطاناً لذويه ، فهو أول من مدَّنْ غرناطه ، وبتها وزادها تشييداً ومتنة ، واتصل ملكه بها ، وارشحت عروقه ^(١) . »

كان الناس حينها يتحدثون عن زاوي بن زيري يعنونه بداعية البربر ، وعدا عن ذلك فقد عرفت عنه كثيرة من الصفات الحميدة فقد كان حازماً ، حصيفاً ، راجح الفكر ، صبوراً ، شجاعاً ، عارفاً بأمور الحرب ، خادماً لقومه ، شهير الذكر ، بعيد الصيت ، أصيل المجد ، علي الرأس ، شهماً .

وكان علاوة على ذلك ذا ثروة طائلة بدأ بجمعها منذ كان في أفريقيا ، من أمواله الخاصة وما كان يغنمها في الواقع التي كان يخوضها ضد أعدائه .

هذه هي شخصية زاوي بن زيري وهذه هي المكانة التي كان يتمتع بها في غرناطة حين حاصره المرتضى مع جيوشه الحرارة ، فلابد الآن كيف استطاع زاوي احرار النصر .

حصار المرتضى لغرناطة ، مقتله :

ما ان تحرك الجيش الذي جمعه المرتضى لمهاجمة قرطبة حتى اسرع خيران بارسال كتاب الى زاوي بن زيري يعلمه بخطفهم في المجموع على مدinetه وينبهه بالخلاف الواقع بينه وبين المرتضى ويعده بالانتصاف على هذا الاموي

(١) ابن الخطيب ، الاخطاء من ٥٢١

أثناء المعركة ويضمن له النصر النهائي اذا صمد قليلاً في بادئ الامر . اطلع زاوي على الكتاب وفهم فحواه وقرر العمل بموجبه .

صار جيش المرتضى في طريقه وقد استطاع امراؤه وقواده اخْنَمَ
المضارب والفساطيط منهم كما كانوا قد جمعوا له مبالغ ضخمة من الاموال
ليستعين بها على مدة مصاريف الحرب . وقد رافقه في سيره كل الامراء
والوجوه من أهل بيته ، جاؤوا اليه بجيء من لا يشك في الظفر فأتوا
مِنْهُمْ بأجمل الحلي وارفعتها كي يتباهاوا بذلك في قرطبة اذا دخلوها ، حتى
ان كثيراً من التجار الارثرياء اغتروا بذلك الجيش فصحبوه آملين تيسير الفتح
وسعنة الربع .

هذا هو الجيش الذي عسكر أمام غرناطة . وفي ساعة الوصول كتب
المرتضى الى زاوي يدعوه الى طاعته ويعده بالامان له ولن معه وان تحفظ
اموالهم وحياتهم وانذره ان لا سيل لبقاء في غرناطة على ذلك الشكل وانهم اذا
لم يسلمو الآن وظفروا بهم فانهم لن يقبلوا لهم عشرة .

فلما قريء الكتاب على زاوي ، جمع رجاله وأرسل ابن أخيه جبوس
يا أمره بالقدوم اليه ، فأتى هذا في جميع جنده ودخل المدينة على اعبيتهم
غير بخانب لهم ولا مختبيء منهم . فاجتمع بغرناطة حوالي الالف من خيرة
الفرسان بينما كان العدو بعد اضعاف اضعاف ذلك . ثم أمر زاوي كاتبه بارسال
الجواب على رقعة الورقة نفسها وان يكتب ما عليه عليه فقط دون زيادة حرف على
ذلك . واملي عليه ما يأتني :

« قل يا ايها الكافرون لا اعبد ما تبعدون ، ولا اتم عابدون ما
اعبد : ولا انا عابد ما عبّدتم ، ولا اتم عابدون ما اعبد ، لكم دينكم
ولي دين ». وامر بعادتها الى المرتضى . فلما قرأها هذا استشاط غيظاً وأرسل

إليه كتابا مليئاً بالتهديد والوعيد يقول فيه من جملة ما يقول : « انه قد أتاه بجميع ابطال الانداس والفرنجية فما عساه يصنع أمام تلك القوة ؟ ولذلك فمن الأفضل له أن يعلن تسليمه . وانهى كتابه بهذا البيت من الشعر :

ان كنت متّا أبشر بخير أو لا فأيقن بكل شر
فلا قرأه زاوي ، قال ردوا عليه بما يأتي :

« الماكم التكاثر حتى زرتم المقابر ، كلام سوف تعلمون ثم كلام سوف تعلمون ، كلام لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين ، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » .

فلا تلقى المرتضى ذلك الود ، زاد غضبه واعجب اصحابه بدهاء زاوي وقالوا : ان هذا الرجل لم يأب الطاعة لنا إلا لانه وافق بتجددته وعن معه او مصمم على الموت او مغزور بنفسه .

وأمر المرتضى آنذاك ببدء المجوم ومناوشة المهاجمين ، فدنا الجيش من المدينة في تعبئة محكمة وكراديس منتظمة واخذ يرمي بالله على الاموار . وأمر زاوي جماعته بالثبوت والقتال بفطنة وشجاعة وقلوا لبعضهم : لا خير لنا اذا لم نقاتلهم بعنف وجرأة بعد ان ايقنا بأنه لا ينفعنا معهم سوى الظفر أو الموت على ايديهم . وطالما انه لا يوجد لنا مهرب من ذلك ، وبما انهم يحاصروننا مع اهلنا وعائلاتنا ولن يارحوا المكان بأي شكل كان فاما ملك واما هلاك . وأن موتنا في ملاقتهم بعد بذلك كل المستطاع احب اليانا من تغلبهم على مدینتنا .

وخرج الصناهجة الى محاصرتهم بأنفس جريئة ، وقلوب حانقة مصممين على الموت في سبيل الدفاع عن بلدهم . وحيي وطيس القتال وسقط عدد كبير من القتلى من الجانبين ، ودام الحرب اياما فأرسل زاوي الى خيران

بستتجزه وعده بالخيانة فأجابه : « إنما توقفت حتى ترى مقدار حربنا وصبرنا ، ولو كنا بواطننا معك ، فائت جمعك لنا ، ونحن ننضم عنده ونخذ له غداً ». (١)

فلا اتي اللد ، محمد خيران الصقلي ومنذر التجيبي الى الفرار فعلا ، وكان منذر قد اوقع في نفوس اصحابه من الفرنجية الرعب من غدر الموالى العامريين فيما بعد ، فشنل بذلك بالهم وضعف مقاومتهم . فلما شاهدوا فراره لم يعرفوا بذلك تعليلا وظنوا ان الموالى العامريين قد غدرروا بهم .

ويحكي انه لما مرّ منذر التجيبي اثناء فراره بسليمان بن هود وهو يثبت الفرنجية ويقول لهم صاح به : النجاة يا بن الفاعلة ، فلست اقف عليك . فقال له سليمان : جئت بها والله صلعا وفتحت أهل الاندلس (٢) ، ثم فرّ وراء يقية جنده وتبّه خيران برجاله . أما العامريون فقد صبروا حول صاحبه المرتضى وثبتوا أمام العدو حتى كثّر فيهم القتل وصرع منهم عدد كبير فخاف المرتضى ان يقع أسيراً في يد العدو فما كان منه إلا أن ولّ هاربا خارج حدود المنطقة التي يسيطر عليها ابن زيري .

واسرع زاوي الى سرادق المرتضى فاستولى على ما حواه من الاموال والخلي والباس وغير ذلك . كما استولى جنوده على ما تركه جيش المرتضى من الاسلحة والعتاد والمتاع .. فامتلأت بذلك ايديهم

أما بالنسبة للمرتضى ، فإن خيراها وضع عليه ارصاداً وجوايسis لئلا يخفى اثره ، فغير عليه بعضهم بقرب وادي آش وقد ظن انه أصبح

(١) المغربي : نفح الطيب ج ٢ ص ٣٠

(٢) ابن عذاري المراكشي البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٦ - ١٢٧

هناك في مأمن ، فهموا عليه وقتلوا ثم أتوا برأسه إلى خيران ومنذ ذلك الموجودين آتذاك في المريء فحدث الناس أنها اصطبغا على رأسه سروراً بقتله وتناولاه بقيسح الكلام عالم يكن يستحقه .

ونجا من تلك الموقعة أبو بكر هشام ، أخو المرتضى الأكبر فلتحق بالعبيد العامريين ولكنهم لم يشاوروا الانضمام إليه فسار إلى حصن البوانت حيث استقر عند أميره عبدالله بن قاسم الذي أحاره واعتبره ضيفاً رفيع الشأن وناصر قضيته إلى أن بُويع بالخلافة كـ سترى فيما بعد .

وكانت تلك الموقعة على حد قول ملك غرفاطه الزيري عبدالله الذي تحدث عنها في مذكراته : « أول ظفر ثبتوها به في أوطانهم وهابهم الناس وانقادت لهم الرعاعيَا وتوحد ملوكهم بغرفاطه وطاعت لهم أكثر بلاد اعدائهم المزرومين »^(١) .

كما علق ابن حيان على تلك المعركة بقوله : « حل بهذه الواقعية على جماعة الاندلس مصيبة انسنت ما قبلها ولم يجتمع لهم على البربر جمع بعد ذات ، واقروا بالادبار وباؤوا بالصغراء »^(٢) .

وقد قال الشاعر محمد بن سليمان بن الخطاط المعروف بالكافيف في مدحه للقاسم قصيدة جيدة بمناسبة قتل المرتضى منها ما يأتي :

لَكَ الْخَيْرُ خَيْرُ الْمَضِي لِسَبِيلِهِ وَاصْبِحْ مَالِكِ اللَّهِ فِي إِبْرِيزِهِ

E. levi-Prôvençal^{al-Andalus}, 1941, fase I p.7 deux (١)
nouveaux fragments des « Mémoires » du roi ziride Abd Allah de Grenade.

(٢) ابن حيان عن ابن عذاري المراكشي ، اليان المغرب ج ٣ ص ١٢٧

وفرق جمع الكفر واجتمع الورى
 وقام لواء الجح فوق منتهى
 واشرقت الدنيا بنور خليفة
 من الماين الذين بجدهم
 فلا تسل الايام عما ات به
 عوائد نصر ميرته سيفه
 ولما دعا الشيطان في الخيل حزبه
 كتائب من صنهاجة وزناته
 تقدم خيرات اليها بزعمه
 فأحجم تحت النقم والخيل تدعى
 فلما التقى الجماعان عاود رأيه
 وولى وابقى منذرًا من ورائه

احوال زاوي بعد المعركة ، وحيله :

على اثر انتصار زاوي على جيش المرتضى والعبيد العامريين ، اسرع
 بارسال كتاب مفصل الى الخليفة القاسم بن حمود ، يشرح له فيه كيف
 احرز النصر على اعدائه . كما يرسل اليه نصيه من التنبية التي كان من
 جملتها سرادرق المرتضى . سر" القاسم بذلك الخبر ايها سرور وامر بان
 يضرب السرادق على ضفة نهر الوادي الكبير المار في قرطبة لكي يراه الناس
 وقد شاهده فعلا عدد غير من الناس الذين لم يرق لمعاظمهم ذلك المشهد الذي يدل
 على نكبة الاميين وزوال سلطانهم .

يعلق احد المؤرخين القدماء على مصير الاميين بعد تلك المعركة
 بقوله : « ركدت ريح الروانية في ذلك الوقت وقتل من نجم منهم بأطراف

الأرض ، ويش الناس من دولتهم والوى الجحول بحملتهم ، فانقطعوا في البلاد
ودخلوا في غمار الناس وامتهنوا واستهينوا ..

على الرغم من الفوز الذي احرزه زاوي في تلك الموقعة فإن رد
الفعل الذي احدثه لديه كان غريباً من نوعه ، اذ صمم على الرحيل عن الاندلس
والمغيرة الى بلده في افريقيا بعد أن استأند في ذلك ابن عمه صاحب افريقيا المعززين
باديس في ذلك فأذن له .

وأما السبب في رحيل زاوي على الرغم من النصر العظيم الذي
احرزه وتنازله عن ذلك الموقع الهام من بلاد الاندلس الذي هو مقاطعة
البيه في الوقت الذي صفاله فيه العيش وذل العدو فيعود الى انه بعد ان
رأى تأكّل أهل الاندلس عليه واقدارهم وشجاعتهم خلال تلك الحروب
واشرافهم على التسلب عليه قال لقومه : كيفرأيتم ما قد خلصنا منه ؟ قلوا
عظيم . قال : فلا تتناسوه وتقاطلوا انفسكم بعده . ان انهزام من رأيتموه
لم يكن عن قوة منا اما سببـه غدر بعضـهم ببعضـ . وقد كنت اعلم بتلك
الحياة من يوم وصولـهم ، وكذلك كنت اقوى نفوسـكم واشجعـكم ،
وقد نجـا الله منهم وترـاجـع القوم بعد ان فقدـوا رئـيـسـهم . يـدـ ان استـخـالـفـ
ذلك الرئـيـسـ عندـهم ليس بصعبـ ولـستـ آمنـ ان يـعـودـوا اليـكـ قـرـيـباـ وـمـ
اـكـثـرـ عـدـدـاـ فـلاـ يـكـونـ لـنـاـ قـبـلـ يـقاـوـمـهـ . وـهـمـ انـ قـتـلـ مـنـهـ اـحـدـ خـلـفـهـ
الـفـ معـ مـيـلـ مـعـظـمـ اـهـلـ الـبـلـادـ الـيـمـ فـيـكـونـ مـعـنـيـ ذـلـكـ زـيـادـ عـدـدـهـ بـصـورـةـ
مـسـتـمـرـةـ وـقـصـانـ عـدـدـهـ ، إـذـ عـنـدـمـاـ يـوتـ اـحـدـهـ يـصـعبـ عـلـيـنـاـ انـ تـجـدـ وـاحـدـ يـخـلفـهـ
لـبعـدـنـاـ عـنـ بـلـادـنـاـ وـعـنـ مـرـكـنـ عـصـيـتـناـ .

ثم قال لهم بعد ذلك : انتـ انتـصـرـناـ فيـ هـذـهـ المـرـةـ عـلـىـ فـرـسانـ زـفـاتـهـ
وـلـكـنـهـ لـنـ يـغـلـوـ عـنـ اـبـدـ خـاصـةـ وـاـنـاـ قـدـ بـشـنـاـ اـحـقـادـهـ وـاـنـاـ كـوـاـمـهـ

الدفينة ، فان فرغوا لنا على قلة عدتنا او استنصرنا بالاندلسيين علينا وقمنا بين فكبي أسد فقضى علينا ولذلك فالرأي عندي ان نتبرز هذه الفرصة الان ونحن متصرين غائبين فترحل عن بسلادهم مع عبانا وذرتنا فنسلم بأنفسنا ونقضي بقية حياتنا بين اهلانا وظهرانينا . اذا راحل عن الاندلس فلن اطاعني فاي رحل معي . ولكن أحداً من ابناءه لم يوافق على الرحيل ، فلزم على ذلك بمفرده .

في ذلك الوقت كان زاوي قد عمل بوفاة ملك القیروان بادیس بن المنصور تارکاً على العرش طفلاً صغيراً اسمه المعز ، ويظهر ان نفس زاوي قد تاقت الى تلك الولاية فلزم على الرحيل الى القیروان .

وكان زاوي عدد من البنين ، اقوياه الجسم ، راجحي العقول ، فيهم من التجدة والقوة والباس ما جعلهم يعيون على ايمهم رأيه في الرحيل عن الاندلس خوفاً من هجوم آخر يشنه الاندلسيون عليهم ، ومن هؤلاء الاولاد حلاي وبلقين .. وقد قال هذا الاخير لزيه : « بنیت لغيرك ف تكون له بنزنة الخادم او الاجير ، لا ترك حاضراً لنائب وابتئ بمکانك الذي لم تحصل عليه إلا بعد مشقة واسراف من نفسك على الملوك ». فقال زاوي : نستختلف على المدينة من شيوخ تلكاته المؤوثق بهم في المحدثات من يتفقها وينوب منابي حتى ابشر بتفسي حال القیروان وكيفية دولتها ، فاما ان يتبرأ غرضنا والا انصرنا الى مرکزنا ! فتهما للسير على سبيل المشاركة للمعز » وان يكون له بالاندلس عدة وعيدي وما اشبه ذلك مما يستعمل في المشاركات واتصال الايدي على المهايات^(۱) . ومن هذا نرى ان زاوي كان يفكرا فعلاً في

E. levi. Provençae : «al-Andalus» 1944 fase I p. 7-8 : (۱) deux nouveaux fragments des «Mémoires» du roi Ziride 'Abd Allah de Grenade.

الحصول على امارة القبروان .

وكان بنو عمده في القبروان يحرسون على رجوعه إليهم ، لتقديمه في السن ، ولا أنه لم يكن فيهم يومئذ من يماثله من مشائخهم لأن جميع أخوته كانوا قد توقفوا ، ولا أنه كان يتمتع في بلده بصيت عظيم واحترام كبير لامالة نسبه وتعدد أفراد عائلته ، وقوه عصبيته . فقد ذكر ابن عذاري (١) أن النساء الواتي لم يكن يحتجن عنده لكونهن محترمات عليه كان عددهن زهاء ألف امرأة من بنتات أخوته وبنتيهن وبناتهن .

ويقال أن زاوي طلب من علي بن حمود يوم قتل سليمان بن الحكم رأسه حقا على بني مردان المبدي إليهم رأس زيري والده وان عليا قد ابى حلبه فصار الرأس عنده يفتخر فيه على أهل بيته باعتبار انه استطاع بذلك أن يحو شيئاً من العار الذي الحقد الامويون بعاليته عندما قتلوا أبيه .

وعيشن زاوي قبل رحيله عدداً من المشايخ يحكون البلد بعده .
ولم يرض بأن يخلفه أحد من أفراد عائلته بل استخلف اوائل المشايخ الذين عينهم لتسير الأمور الا يدخلوا على الحكم أى تعديل والا يسلموا الى ابن أخيه أو لأبي شخص آخر ، وأن يذلوا جيد استطاعتهم جلب الخير لوطفهم .

بعد ذلك توجه زاوي من غرب ناطه الى مدينة المنكب ، وهناك استقل سفنا كانت بانتظاره لنقله الى افريقيا . وقد شحذها مبالغ من الاموال تفوق المد والاحماء كان قد ختم قسمًا كبيراً منها في حرثه الاخيرة ضد

(١) ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٨

الرضاى . ولما وصل زاوي الى القىروان نال مكانة كبيرة فيها وارتفع شأنه . الا ان بعض الوراء احسوا على ما يظهر ببناته فخافوا منه وخشوا ان يكدر عليهم صفوهم وتسلطهم على الحكم ورأوا ان ولاية المuez" الطفل وعيثهم معه كا كانوا يعيشون أفضل لهم بينات المرات من تولية داهيه عليهم كزاوى بن زيري لا يملكون بوجوده شيئاً من الامر . ولذلك فقد دسوا اليه من سقاء السم ومات بذلك البلاد بضعة سنوات بعد وصوله اليها .

اما فيما يتعلق بمصير غرفاطه بعده فقد حدث ما يلى :

عندما مسأر زاوي الى النكب ينفي الرحيل منها الى افريقيا ، تأخر ابنه حلاي بعده بضعة أيام في غرفاطه بغرض اتمام بعض الحاجيات . واتفق حلالى هذا مع بعض ابناء عمه من سيرحلون معه للقبض على قاضى البلد ابن ابي زمين والشيخ من اهله حين يعودون من توديع ايه بغرض الاستيلاء على اموالهم . ويظهر أن ابن ابي زمين قد علم بمؤامرة ابن زاوي عليه فمرج من النكب الى حصن آش حيث كان جبوس بن ماكس بن زيري بن مناد الصنهاجي يتذكر اقلام عمه في البحر حتى يلحق بغرفاطه فيستولي عليها . فلما اتاه ابن ابي زمين وطلب اليه التوجيه في السير الى المدينة لاحتلالها ، شجعه ذلك على المغى في تنفيذ فكرته . فركب مع الفقيه الغرفاطي الذي حذرء من عواقب الابطاء فلم تشعر صنهاجه الا وجبوس قد اطلى عليهم قارعا طوله ، فخرجو اليه يستقبلونه وتلقونه بالطاعة والانقياد ، ووقف ابن عمه حلاي أمام باب المدينة حائراً وقد فسدت مؤامره على ابن ابي زمين . ولم يشأ جبوس التعریج على ابن عمه حلاي قبل ان يصعد الى قلعة غرفاطه ويحتلها ويضع حامية فيها . ثم خرج بعد ذلك الى ابن عمه حلاي ليودعه فمات به هذا على طريقة دخوله المدينة قاتلاً :

ما هذه الطريقة في دخول المدينة يا ابا مسعود ؟ (وكان جبوس

يُكْنِي، بأبي مسعود) أهذا دخول مكتب بفراف عشيرته ؟ هو بدخول شامت اشبه . كأنك فتحت بلداً وطردت عدوأ . فاعتذر له جوس وقال : « ما ذاك إلا لرسم الامارة وارهاب الرعية . ثم استوطن جوس البلد واورث الحكم إلى عقبه من بعده (١) .

ثورة يحيى بن حمود ونهاية خلافة القاسم :

إذا كان القاسم قد استطاع التخلص من خطر المرتضى الذي كان يهدده في عقر داره عن طريق الأمير الصهاجي زاوي بن زيري ، فإن المصيبة قد انتهت من جانب آخر لم يكن يحسب له ذلك الحساب ، واعي عن طريق ثورة ابن أخيه يحيى بن حمود .

كان يحيى بن حمود والياً على سبتة وطنجه في خلافة والده علي ، كما كان أخوه ادريس والياً على ماقه . فلما قتل أبوهما واستدعى انصاره من زناهه أخاه القاسم ليابعوه ^{بـ}بالخلافة ، اتفق ولداً على الاحتفاظ بـ^{بـ}عالقه مهباً كانت الظروف . وقرر أباً ما يظهر منذ ذلك الوقت التامر على عمها باعتبارها أحق منه بتسلم الخلافة .

وقد كتب يحيى من سبتة إلى أكابر قواد البربرة بفرطبة يقول لهم : « إن عمي أخذ ميراني من أبي ، ثم انه قدم في ولاياتكم التي أخذتوها بسيوفكم العبيد والسودان ، وأنا أطلب ميراني » . وقد اجابة البربرة واعدين إيه بالمساعدة حين يعلن الثورة على عمها . أما القاسم فإنه حين سمع بنوايا ابن أخيه شكا أمره إلى البربرة وطلب إليهم النهوض لقتاله ، فأظهرروا التناقل لأنهم أرادوا توسيع الهوة بين الفريقين كي يضعف كل منها الآخر فيستقذرون هم من ذلك ويقوى شأنهم وترفع مكانتهم .

(١) ابن حيان عن ابن سام : النخبة ، الفصل الاول ، المجلد الاول من ٤٠٣

جمع يحيى بن حمود ما عنده من المراكب واعانه في ذلك اخوه ادريس
صاحب مالقه فاجتاز يحيى المصيق بعدد واخر من الجندي ، فلما وصل الى مالقه كتب
الى خيران صاحب المريه مذكرةً اياه بالمعونة التي قدمها لأبيه طالباً منه أن يعيد
المعروف معه الان ومؤكداً له الموعد الصادقة التي يكتئنها له . فقال له اخوه ادريس :
ان خيران رجل خداع . فقال يحيى : ونحن منخدعون فيها لا يضرنا . ثم سار يحيى
نحو قرطبة وانقاً من معونة بر ارتها . وما ان اقترب من العاصمه حتى أخذ انصار
القاسم وابناعه يتفضرون عنه الواحد بعد الآخر ، فرأى نفسه مضطراً الى الفرار
ففادر المدينة متوجهاً الى اشبيليه ومصحوباً بخمسة من الفرسان وذلك في ٢٢ ربيع
الثاني سنة ٤١٢ هـ = ٥ اغسطس سنة ١٠٣١ م . ووضع البربر على قصر قرطبة
الى أن وصل يحيى بن حمود ودخل المدينة في ٤٠ ربيع الثاني سنة ٤١٢ هـ = ١٣
اغسطس ١٠٢١ م فشغل عرش الخلافة مكان عمده .

الحلقة الـ١٢

خلافة الحسن بن حمود

خلافة محبى بن حمود :

سبق لنا ان ذكرنا نسبة حين كلامنا عن خلافة ايه علي بن حمود ولذلك فاننا نكتفي بالقول بان الخليفة يحيى كان يكتن بأبي زكريا^(١) وان امه هي قريبة ايه وامها لبونه بنت محمد بن الحسن بن القاسم المعروف بقونو . وكان الحسن بن قتون من كبار ملوك الحسينيين وشجاعتهم ومردتهم وطفاتهم الشهورين^(٢) .

بويع بخي بالخلافة في ثانٍ يوم من دخوله الى قرطبة أى في مطلع جمادى الاولى من سنة ٤١٢ هـ (١٣ من اغسطس سنة ١٠٢١ م) فكانت سنة آنذاك ثلاثة وأربعين سنة . لقب بالمعتلى بالله . وقد وصفه بعض المؤرخين بأنه كان امرأاً اكحل ، اعين ، طويلاً الطير ، قصير الساقين ، وقوراً ، هشتنا ، ليتنا .

(١) لقد اختلف في ذكر كنية يحيى بن حمود فذكر بعضهم بأنها أبو زكريا، وذكر آخرون بأنها أبو محمد وأوردها آخرون على أنها أبو القاسم.

^{٥٢}) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢

سلك يحيى خطوة والده من ناحية ترسه بالفروسية واقامة حلبات سباق الخيل وخروجه لقنص ، كما فاق اباء في اتسافه بعض الصفات الحميدة كتجنبه للعصبية بالانصاف والعدالة وسعيه دائمًا وراء السلام في بلده فحصل في قليل من الوقت على سمعة حسنة وصيت حميد . وكان يحيى علاوة على كل ذلك من الاذكياء النجباء ، عرف كيف يتوجب الى الناس فيستمليهم اليه . كما قرب اليه الكثيرون ورفع مكانتهم واجزل لهم العطا ، فصاروا يدعون له بطول البقاء ويتكامون عن مآثره بين الناس . وكان اذا وفد عليه وافت باللغ في اكرامه ، واذا مدحه شاعر اجزل رفقه وعطاه .

الاً انه على الرغم من كل ذلك ، فان يحيى بن حمود لم يخل من بعض القائض ، وبالدرجة الاولى اعجابه بنفسه وغروره . يقول عنه أحد المؤرخين : « أن العجب والكبر شابا خصاله ... واند الاعجب منه ، فكان عاقبة أمره خسرا ^(١) . كما يقول مؤرخ آخر : « احتجب يحيى عن فريق من البربر ومن جند الانداس وتكتبه عليهم ، فكرهوا حكمه ، وتنواروا عليه » ^(٢) .

يضاف الى ذلك ان عدداً من ملوك الطوائف لم يغروا اليه ولم يبايعوه بالخلافة بل بقي كثيرون يخطبون في مساجد بلادهم لعمه القاسم .

هذا ومنذ دخوله الى قرطبة أخذ قواد البربر يلحون عليه في ان ينفذ ما وعدهم به في رسالة له قبل مجئه الى العاصمة من الاستفناه عن معظم العبيد الذين جلبهم عممه القاسم واعتمد عليهم مسلماً اليهم ارفع الرتب واعلى المناصب ، فاستجاب يحيى لطلبه واسقط كثيراً من السودان من مرافقهم

(١) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٢

(٢) المقربي : نفح الطيب ج ٢ ص ٣١

واعالمهم فلم يقنع البربرة مع ذلك بما حققه لهم بل طلبو المزيد من الاضطهاد لتلك الفتنة من العيد لما كان من هؤلاء إلا ان التحقوا بهم القاسم في اشبيليه واعلنوا ولاءهم له واستعدادهم لخوض المعركة الخامسة لاسترجاع العاصمة من ايدي يحيى بن حمود فأخذ أمر هذا يضعف وامر عمه القاسم يقوى . وسيظل الامر كذلك حتى يستطيع القاسم المودة من جديد الى قرطبة للتربع على عرش الخلافة فترة اخرى من الزمن .

علاوة على كل ما نقدم فإن المصاريف في عهد يحيى قد زادت زيادة فاحشة نظراً لكرمه وسخائه أولاً وابتذل البربرة ومطالبيهم الدائمة ثانياً . مما عتم يحيى أن وجد نفسه في صائفة مالية لا تخرج لها ، فكان ذلك من العوامل التي أضعفته في الصراع القائم بينه وبين عمه القاسم .

ويرجع البعض شعور النعمة عند بعض الفئات على يحيى بن حمود الى تقريره اناس من أصل معمور واعطائهم الراكن المالية ، ويضربون مثلاً على ذلك استئزاره للاديب المعروف والكاتب المشهور محمد بن الفرضي ، فإن رفده اياه الى مرتبة الوزارة جعل عليه القوم تكيل له الذم وتطعن في اختياره لأن العادة المتعارف عليها في ذلك العهد هو ان يكون معظم الوزراء من ذوي الاصل الرفيع والنسب العريقة ، ولذلك يقول ابن حيان في هذا الصدد :

« قدم يحيى بن حمود الى الوزارة محمد بن الفرضي الكاتب ، فكان اعدى من الجرب على دولته وارتقب أهل الاب حلو الحنة . فقد عداه بالله من وزارة السفلة .^(١) كما يقول ابن عذاري الراکشي : « استوزر يحيى محمد بن الفرضي الكاتب فكان اضر شيء على دولته لانه كان من

(١) ابن حيان عن ابن ابن سام : الذخيرة - القسم الاول - المجلد الثاني من ١٤

اصل وضيع ،^(١) .

ونحن نرى مما تقدم ان المناصب في ذلك العصر لم تكن تحرز عن طريق العلم والثقافة والجذارة فحسب وإنما بالدرجة الأولى بتأثير النسب والعائلة والنفوذ الشخصي ، الامر الذي أخذ يزول منذ مطلع العصور الحديثة ليensus المجال للكفاءات العلمية والإدارية والعلمية وكما يقدر الإنسان حق قدره .

الخلاصة ان يحيى بن حمود كان يتمتع بكثير من الصفات الحسنة والخلصات الجيدة ، ولكنه وقع الى جانب ذلك في اخطاء لم تغفر له في ذلك العهد فأدى ذلك الى انهيار خلافته .

ويحسن بنا قبله ان ننتهي الى ذكر فراره من قرطبة ان نشير الى بعض مشاهير الادباء الذين اعتمد عليهم يحيى في خلافته واهمهم : الكاتب المعروف احمد بن برد صاحب رسالة « السيف والقلم والمفاخرة بينها » وكتاب « سر الادب وسبك الذهب » .. كما اتخذ له من الاندلسيين اصدقاء خمسمائة امثال جعفر بن محمد بن فتح والفقير الاديب ابي عمر بن موسى بن محمد الياني الوراق الذي قال مركزا خطيراً في عهده . وبواسطة جعفر بن فتح تعرف على كبار الادباء بقرطبة ابراهيم بن الافليلي فقرب به اليه ورفع شأنه وجعله من خواصه .

وقد بُرِزَ في أيام يحيى ايضاً القاضي الامامي ابو بكر ابن ذكوان وأخوه ابو العباس ابن حاتم فرفعها يحيى الى مرتبة الوزارة خاصة بعد وفاة الشیخ ابی العباس ابن ذكوان . وقد اشتهر فيما بعد ابو بكر خاصة فكان وحيد عصره في فضله وعلمه وعفته .

اما الآن فاني اعود الى ذكر فرار يحيى من قرطبة ، فان القاسم عندما علم من مكان اقامته في اشبيلية ان هناك تبرماً شديداً لدى بعض قواد البربر من

(١) ابن عذاري المراكبي : البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٢

تصرات يحيى ، وكان قد قدم اليه معظم العبيد وانضموا اليه كما ذكرنا ، راسل اولئك القواد من البربر واوضح لهم بأنه سيزحف على قرطبة ووعدهم بأخذ الوعود بعد انتصاره فأجابوه بأنهم على استعداد لتأييده ، ويظهر ان يحيى قد علم بشيء من ذلك ورأى الوضع يسوء في قرطبة بالنسبة اليه يوماً بعد يوم ففضل النجاة بنفسه على البقاء فيها والتعرض لما تحمده عقباه . وكان يحيى في اثناء خلافته قد عين اخاه ادريسا واليَا على سبعة بعد أن كان في ماقنه ، ففقيت ماقنه حالية في الحقيقة من رئيس يديها ولذلك اتجهت نيته حالاً الى الذهاب اليها عندما فكر بالفرار . وربما كان يحيى قد فكر في تأخير رحلته عن قرطبة فترة أخرى لو لا انه سمع بان اهلها كاتبو اخیران العامری وطلبو اليه ان يأتي اليهم ليسأله زمام المدينة فخاف يحيى من اطهاع خيران فشد رحاله وخرج مع بعض خواصه في ليلة ١٢ ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ = ٦ فبراير سنة ١٠٢٣ م قاصداً ماقنه . ولما بلغ القاسم فراره ركب من اشبيليه الى قرطبة ودخلها فرحب به اهلها وعمدوا الى مبايعته في اليوم التالي لوصوله .

الخلفاء العاشرة

خلافة القاسم بن حمود الثانية

دخل القاسم قرطبة للمرة الثانية يوم ١٢ ذي القعدة من سنة ٤١٣ هـ فبراير سنة ١٠٢٣ م فجددت له البيعة وبقي فيها سبعة أشهر وبضعة أيام خلمه أهل قرطبة على إثرها كاً مسني وعادوا إلى اسناد الخلافة لأحد الامويين.

أثناء خلافة القاسم الثانية ، استطاع ابن أخيه يحيى أن يحتل الجزيرة الخضراء التي كانت مركز عصبية القاسم وفيها امرأته وذخراه . فكان ذلك ضربة قوية لمعنويات القاسم وخلافته . كما تمكن أخوه ادريس من أن يدْ حكمه من سنته إلى طنجة ، تلك المدينة ذات الواقع الاستراتيجي الهام والتي كانت على حد تعبير ابن الأثير « عدة القاسم يلجم إليها ابن رأى ما يخاف بالأندلس ». وبذلك يكون الإخوان يحيى وادريس قد احتلا المدينتين اللتين يعتمد القاسم على تأييدهما لخلافته أشد الاعتماد ، فأضعفا بذلك أمره ووجهوا إليه الضربة الأولى التي زعزعت اركان عرشه .

ذكرت منذ قليل ان ثلاثة القاسم الثانية لم تدم إلا بضعة أشهر . فلماذا كان انها يتركها بكل السرعة يا ترى ؟ وكيف كان ذلك الانهيار ؟

أن السبب الرئيسي ل نهاية خلافة القاسم بن حمود بهذه السرعة هو نفس العامل الرئيسي الذي اشعل الثورات والاضطرابات في الاعوام العشرين الاخيرة ، والذي سبب سقوط بعض الخلفاء وارتفاع غيرهم وأعني به الخلاف التقليدي بين البربر وأهل الاندلس . فما ان دخل القاسم قرطبة حتى أخذ حلفاؤه ومناصروه من البربر يتسلطون على الناس ويقسون في معاملتهم وفي طريقة التحدث معهم . بل ونهبوا الاسواق وصادروا الاموال احياناً ، فلم يسع القرطبيون أمام هذا التصرف سوى الدفاع عن انفسهم مما ادى الى حرب شعواء بين الطرفين لم تنته الا بخروج القاسم .

في يوم السبت العاشر من جمادى الاولى سنة ٤١٤ هـ = ٣١ يوليون سنة ١٠٢٣م نشببت فتنة بين البربرة وبين القرطبيين ، فاقتتل الفريقيان اقتتالاً شديداً وذهب فيها عدد من الضحايا ثم ما لبثت الفتنة ان سكتت عند المساء وجرى نوع من الصلح بين الفريقيين فعادت الأمور الى مجاريها ولكن لمدة ایام فقط . في خلال تلك الايام كان القاسم يظهر التودد لأهل قرطبة ويدعي انه معهم بينما كان في باطنته يؤيد البربر . وقد حاول اصلاح ذات البين بين الطرفين ، الا أنه في يوم الجمعة ١٦ جمادى الاولى سنة ٤١٣ هـ = ٦ اغسطس سنة ١٠٢٣م بعد ان فرغ الناس من صلاة الجمعة وخرجوا من المساجد اندفعوا الى سلاحهم ينتكرونه ويتذمرون لقتال البربر ، فما لبثت المعركة ان احتدمت بين الطرفين ودامت حتى مساء ذلك اليوم إذ استطاع القرطبيون حينذاك السيطرة على مدینتهم كما استطاعوا ان يدخلوا قصر الامارة فاضطر القاسم الى الخروج من المدينة والانضمام الى انصاره من

البربر . ولما أراد القاسم الدخول إلى المدينة أغلق أهلها الأبواب في وجهه ، فضرب له خيمة في غربي المدينة ثم فرض عليها هو وبربرته حصاراً شديداً دام حوالي الحسين يوماً كان يقاتل خلادها أهل قرطبة قتالاً مبرحاً ، حتى أن هؤلاء يئسوا من الموقف وغنووا الخلاص بأي شكل كان . فطلبوا إلى البربرة أن يسمحوا لهم بالخروج من أبواب المدينة دون أن يعترضوا طريقهم وأن يؤمّنونهم على أنفسهم وعيالهم وهم مستعدون للتخلّي عن مدinetهم . فأبى البربرة إلا قتلهم . حينذاك عرف القرطبيون أنه لا بد لهم من أحد امرئين : إما القتال وإما الهلاك ، إذ أن المؤمن كانت قد انقطعت عن مدinetهم بسبب الحصار الذي ضربه القاسم ولم يعد لديهم في المدينة ما يسد رمقهم فقررها حسم الموقف .

هدم القرطبيون أحد أبواب المدينة وهجموا على البربر هجنة الرجل الواحد المستميت ، وما هي إلا بضع ساعات حتى اكتشفت المعركة بفوز الاندلسيين وفرار الخليفة القاسم مع البربرة . أما القاسم فقد توجه مع فتاة من جنده نحو أشبيلية بينما توزع باقي البربرة في مختلف أنحاء الاندلس فأسسوا بضعة ممالك مستقلة في غرناطة ومالقة والجزيرة الخضراء وقرمونه ورنده ومورون .

عندما غادر القاسم أشبيلية متوجهاً إلى قرطبة للتربع على عرش الخلافة ثانية ، كان قد ترك حاكماً على أشبيلية ابنه محمدأً وعيّن له وزيراً اسمه محمد بن خالص . فلما رأى القاسم نفسه الآن فارقاً من قرطبة ، كان أول شيء فكر فيه هو الاتجاه إلى أشبيلية واعداد العدة لاسترجاع العاصمه من جديد .

وفي الطريق إلى أشبيلية أرسل القاسم إلى أهلها رسالة يطلب اليهم

فيها اخلاقاً الف دار ليسكنا البربر فعذهم عليهم ذلك واستصعبوا التنازل عن دورهم لاعطائهم الى دخلاء عليهم لا تربطهم بهم أية صلة ، ورأوا بان احسن حل للتخلص من ذلك المأزق هو الثورة على ابني القاسم وطردهما من المدينة واغلاقها في وجه الخليفة الفار نفسه . وهكذا كان . فان أهل اشبيلية حاصروا قصر الامارة وهاجوا الحراس المحيطين به فتشبت معركة عنيفة بين الفريقين وكان الشخص الذي يعتمد عليه القاسم في معاونة ولديه في اشبيليه هو الامير محمد بن زيري بن دوناس اليفرني ، الا ان القاضي محمد بن اسماويل بن عباد اجتمع بهذا الشخص واغراه بالانضمام الى الفريق المعادي للقاسم ووعده بتسلیمه امارة المدينة بعد الانتصار على القاسم ورحيله ، فصدق اليفرني كلام ابن عباد وعاهده على مناصريه ، واعان اهل اشبيلية على قتال ولدي القاسم وانصارها . وما وصل القاسم أمام أبواب المدينة ، كانت الحرب لا زالت قمة فلجاً هذا الى الدهاء والمرور فلا خاف الاشبيليين بالقول وحاول ان يخدعهم بأنه اخ لهم وصديق حيم فلم يصغوا اليه بل اشتدوا في قتال ابنيه ورجالهما ، فما كان من القاسم إلا ان اقترح عليهم ان يتخلصوا عن المدينة نهائياً مقابل ان يسلموا اليه ابنيه دون اذى فتمهد أهل المدينة بذلك وتركوا ولديه ومن معها يخرجون من المدينة بمالهم وذويهم فرحة بهم القاسم متوجهاً نحو شريش .

كان أهل اشبيلية قد نصبوا على انفسهم ثلاثة من كبار مشائخهم هم : القاضي ابو القاسم محمد بن اسماويل بن عباد اللخمي ومحمد بن يريم الاهناني ومحمد بن الحسن الزبيدي . وكان هؤلاء الثلاثة يدررون أمر المدينة ويفصلون في مشاكل الناس حتى اجتمع الاثنان الاخرين فيما بينها وقررا أن يطلبوا الى ابن عباد الانفراد بتدبير الامور ، إلا أن ابن عباد رفض اقتراحها فألح عليه القوم بالقبول ، ورأى أنه اذا رفض ربما حدث نوع

من الفوضى وعدم الاستقرار في المدينة فقرر قبول الإمارة وتسخير أمور المدينة . وكان أول ما فعله هو تخلصه من محمد بن زيري بن دوناس المغربي مجبراً إياه على مغادرة أشبيلية مع أهله وذويه ، فصفا الجolle وأصبح منذ ذلك الحين سيداً مطلقاً في مدينة أشبيلية ما بث ان انس نفسه حكماً ثابتاً اورته لأولاده وأحفاده من بعده .

أما القاسم بن حمود فإنه وصل إلى شريش وأقام فيها وأخذ يثير الشعب على ابن أخيه يحيى بمقاله ، مما كان من هذا إلا أن جهز جيشاً وسار على رأسه لحصار عمه في شريش . طال الحصارعشرين يوماً تقريباً حصلت خلالها معارك في غاية الشدة قتل فيها من الفريقين خلقاً كثيراً .

وانجلت الحرب أخيراً عن قبر يحيى لعمه القاسم ، فقبض عليه وعلى أبيه محمد وزوجته القرشية وسائر حرمته وأولاده وحاشيته . ولم يستطع يحيى أن يمنع جنده من النهب والامتهان بجماعة عمده إذ كانت نسوة الظفر قد أخذن منهم كل مأخذ فلم يستطع ردعهم .

وكان يحيى قد أقسم أن حصل عمده في يده ليقتلته ، ولكن بعد أن قبض عليه أراد الترثي في ذلك ربما يستشير في الأمر . وقد حمله معه مقيداً إلى مأقه ووضعه في السجن مع ولده محمد . أما محمد فقد استطاع أن يفر من سجنه ويستولى على الجزيرة الخضراء ويؤسس لنفسه حكماً ثابتاً فيها . ولكن ابن القاسم بقي في سجن ابن أخيه وكان هذا كلام سكر وأراد قتله نصحه ندماً بالبقاء عليه إذ لا خوف منه طلما أنه لا يستطيع الفرار مطلقاً مع الحراسة المفروضة عليه . ويقال إن يحيى كان كلما قام رأى والده علينا في النوم ينهى عن قتل عمده ويقول له : « أخي أكبر مني ، وكان محسناً إليّ في صغرى ، ومسنناً إليّ عند امارتي . الله .

الله فيه . (١) وقد بقي الحال على ذلك مدة ثلاثة عشر عاماً قتل القاسم بعدها خلقاً في سجنه وحملت جثته إلى ابنه محمد بالجزيرة الخضراء فدفنتها هناك . وقيل أن سبب قتله أنه روى ل Yoshi بأن عمّه قد حاول أن يقنع حراسه في الحصن السجانون فيه كي يقوموا بالعصيان ضد ابن أخيه فقال هذا : أو لا يزال يفكرون بهذا الامر بعد هذا العمر ؟ وأمر بقتله في سنة ٤٢٧ هـ .

توفي القاسم عن عمر ناهز المائتين عاماً وقد ترك من الأولاد اثنين هما محمد والحسن . أما محمد فقد استولى على الجزيرة الخضراء كما تقدم معنا . وأما الحسن فقد تنسك ولبس الصوف وحج إلى بيت الله الحرام .

(١) المقرئ : فتح الطيب ج ٢ ص ٣٣

الخلافة الادارية عمرة

خلافة عبدالرحمن بن هشام

هو عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار بن الناصر لدين الله . كانت امه رومية ابها « غايه » . وكان يكتن ابو المطرف . تولى الخلافة وعمره اثنتان وعشرون سنة . وتلقت بالاستظهار بالله . بويع يوم خروج القاسم والبربر من قرطبة أي يوم الثلاثاء ١٦ رمضان سنة ٤١٤ = ٢ ديسمبر سنة ١٠٢٣ م . وقتل يوم السبت ٣ ذي القعدة من نفس السنة = ١٧ يناير سنة ١٠٢٤ م . فكانت خلافته ستة واربعون يوماً فقط .

كان ، على ما يصفه بعض المؤرخين : ايضاً ، اشقر ، اعين ، افي ، شثن الكفين ، طويل القامة ، نحيف البدن ، حسن القد والجسم .

ولقد اجمع المؤرخون على أن المستنصر كان له قسط وافر من الثقافة ، كما كان رقيق الطبع ، لبقاً ، ذكياً ، حاضر البديهة . لم يكن في عائلته آنذاك من هو ابرع منه او ارفع منزلة . وكان قد قضى جزءاً كبيراً من حياته متقللاً من مدينة الى اخرى ومن مكان الى آخر بقصد التعلم

احياناً وبقصد التخفي احياناً . فاستفاد الكثير من اسفاره واكتسب حنكة وتجربة خلال تنقلاته .

ولقد عاد الى قرطبة في خلافة القاسم بن حمود فلم يلبث بها إلا قليلاً حتى رأى شأن القاسم يضعف وسلطانه يضطرب والناس يتآمرون على حكمه والقرطبيون خاصة يتمسكون الخلاص منه . فسوالت له نفسه الاستيلاء على الخلافة واعادة مجدبني أمية . وأخذ عبدالرحمن يجمع الانصار حوله ويبيت الدعائية سراً لنفسه ، فاستجاب لدعوته عدد من الانصار والاتباع ظن أنه يستطيع بواسطتهم قلب الحكم واستلام زمام الامور . ولكن نيته في الثورة عرفت على ما يظهر قبل الاوان فلم يوافق عليها الوزراء وانكروا عليه تدبيره وطموحه واخذوا يلحقونه مع اتباعه لاقبض عليهم . وقد استطاع هو الاختفاء في تلك الفترة بينما قبض على عدد كبير من اصحابه واودعوا السجن ولم يخرجوا منه إلا حين استطاع صاحبهم الوصول الى الحكم كما سترى فيما بعد . أما كيفية وصوله الى الخلافة فقد حدثت على الوجه التالي :

عندما خرج القاسم وابنائه من البربر من قرطبة فارين على وجوههم بعد انتصار القرطبيين عليهم ، انفق رأي هؤلاء بأن يردوا الخلافة الى بني أمية على الرغم من مسؤولتهم كي لا يعودوا الى الواقع في قبضة خلفاء من البرابرة امثال بني حمود كان يعتبرهم معظم القرطبيين منتخبين للحكم والخلافة .

ونداعي وزراء قرطبه ووجهاه الى عقد اجتماع تمهدى لبحث الموقف واستعراض الذين يستحقون ان يرشحوا لالشغال منصب قيادة الامة ، وقد قر رأيهم على ترشيح ثلاثة يعرضون اسماءهم على الشعب فيختار منهم

واحداً ، وهؤلاء الثلاثة هم : عبدالرحمن بن عبدالجبار بن الناصر وسليمان بن عبد الرحمن المرتضى بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ومحمد بن العراقي . وقد كان ترشيح هذا الاخير كواحد من ثلاثة لخلافة على الرغم من ملاحقتهم اياه قبل ذلك بقليل كما ذكرنا ، بناء على ما رأوه من براعته وعلمه وقوه شخصيته . فأرادوا ان يتركوا له تلك الفرصة لعله يحقق بواسطتها ما يصبو اليه . وقد وجه الوزراء بعد ذلك الدعوة الى الخاصة والعامنة لحضور الى المسجد الجامع كي يدلوا برأهم فيما يختارونه من هؤلاء الثلاثة لخلافة . وفي اليوم المحدد ١٦ رمضان سنة ٤١٤ هـ = ٢ ديسمبر سنة ١٠٢٣ م أخذ الناس يتواجدون على مكان الاجتماع على اختلاف طبقاتهم حتى غص بالحاضرين ولم يعد فيه مكان لوضع قدم . وكان أول من حضر من المرشحين سليمان بن المرتضى الذى اتبى مصحوباً بالوزير عبدالله بن خالد مرتدياً افخم ثيابه وابهى شاراته ، مما دل على طمعه في الخلافة وأمله الكبير في الوصول إليها . وقد دخل سليمان هذا من باب الوزراء الغربي والسرور باد عليه ، فاستقبله اصحابه وقدموه الى بهو الجامع حيث جلس هناك في مكان عال وهو بهج جذلان لا يشك في ان الامر مسئول اليه . وكان اصحابه يرتفبون بمحى المرشحين الآخرين الذين ابطأ قليلاً ليقودوها امام سليمان فيما يبعونه وينتهي الامر .

بينما الناس ينتظرون النتيجة في ذلك الجو القلق وقد بدأ الاهتمام على وجوههم ، إذ ترامت الى آذانهم ضجة هائلة وصيحات مرتفعة ارتفع لها الجامع واضطرب لها من في المقصورة . ونظر الناس ناحية الصوت فإذا عبد الرحمن بن هشام قد دخل الجامع من الناحية الشرقية في عدد عظيم من اتباعه من الجندي والمأمة وقد حف به خاصة القائدان الصقلييان محمود وعنبر مع رجالهما ، شاهرين سيفيهما امامه ، مرددين اسمه ، وارتاع

الوزراء من جراء ذلك واسقط الامر في ايديهم ولم يسعفهم تفكيرهم لآلة طريقة يخلصون بها من ذلك المأزق الحرج ، فلم يتحرّكوا أو يبدوا آلة مقاومة بل ظلوا في امكنتهم واجين بينما دخل عبد الرحمن المقصورة وأخذ الناس يبايعونه في التو” . واستدعي سليمان المرتضى فأتى مبهوتاً بما رأى ، وقبل يد عبد الرحمن وهناك فأجلسه هذا الى جانبه ، ثم ما لبث ان قدم محمد بن العراقي ايضاً فقبل يده ثم عقدت له البيعة . وكان احمد بن برد قد تقدم في عقد البيعة باسم سليمان فاضطر الى شطب اسمه وكتب اسم عبد الرحمن مكانه . ولما تم كل شيء ركب عبد الرحمن على حصانه يتبعه ابنا عممه سليمان وابن العراقي وعدد غير من الجنود والاتباع وسار الجميع الى قصر الخليفة فدخله عبد الرحمن ودخل معه سليمان ومحمد فأمر بسجنهما على ما يظهر منذ ذلك اليوم على الرغم من الامان الذي كان قد أعطاه لهم ولتابعيها .

اعمال عبد الرحمن :

اتخذ عبد الرحمن لنفسه منذ مطلع خلافته قاضياً يشق به ، فوقع اختياره على ابن الحصار لخبرة هذا في القضاء وما عرف عنه من الزاهدة واتباع الطريق السوي في احكامه .

وعمد المستغibir الى رفع مقام بعض المشايخ من بقایا بنى مروان وغيرهم ، فقر لهم اليه واستوزرهم واغدق عليهم العطايا والنعم . وكان على رأسهم الكاتب احمد بن برد وابو عامر بن شهيد ففي الطوائف الذي يقول عنه ابن حيان^(١) « أنه كان بقرطبة في دفته وبراعته وظرفه خليعها النهمك في بطالته ، واعجب الناس تفاوتاً ما بين قوله وفعله ، واحظهم في هوى

(١) ابن حيان عن ابن سام - الذخيرة الفضلى القسم الاول المجلد الاول من ٣٦

نفسه واحتكم لعرضه ، واجرأهم على خالقه ... ، كما قرُبَ اليه الفيلسوف ابا محمد بن حزم فجعله مستشاراً خاصاً له مما جعل البعض يشبهه وظيفته آنذاك بوظيفة رئيس الوزراء في الانظمة الحالية^(١) . وقرُبَ أيضاً عبد الوهاب بن حزم ابن عم المستشار المذكور ، وكان كلاهما من ابغ الفتيان في عصرهما وأكثرهما فهماً ومعرفة في العلوم الرفيعة وقدرة على تفهم الامور .

يروى صاحب اعمال الاعلام ان ابا محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم حينما استدعي الى قرطبة من قبل الخليفة المستنصر ليعمل كمستشار له ، قدم اليها فراعه ما رأه من خرابها وتغير معالمها ، فكتب يقول :

« وقفت على اطلال منازلنا ، بحومة بلاط مغيث من الارباب الفربية ، ومنازل البربر المستباحة عند معاودة قرطبة فرأيتها قد محت رسومها ، وظمست اعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغَيَّرَها البلى ، فصارت صحاري مجدهبة بعد العمران ، وفيافي موحشة بعد الانس ، وآكاماً مشوهة بعد الحسن ، وخرائب مفزعة بعد الامن ، ومتآوى للذئاب وملاءع للجان ، ومقانى للغيلان ، ومكامن للوحوش ، ومخابئ لاصوص ، بعد طول غنائمها ب الرجال كالسيوف ، وفرسان كالليوث ، تقىض لديهم النعم الفاشية ، وتقىض منهم بكثرة الفطين الخاشية ، وتتكشّ في مقاصيرهم ظباء الانس الفاتنة تحت زرجم من غضارة الدنيا تذكر نعيم الآخرة ، حال الدهر عليهم بعد طول النضر ، فبدد شلهم حتى ساروا في البلاد ايادي سبا ، تتفاق عنهم الموعظة . فكأن تلك الحاريب المنمقة ، والمقاصير المرشقة ، التي كانت في تلك الديار كبروق الساء اشراقاً وبهرجة ، يقيسون حسنهما الابصار ، ويجلون منظرها العموم ، كأن لم تفن بالأمس ، ولا حلتها مادة الانس ، قد عبث بها

M. Asin Palacios : A'benhàjam de Cordoba T I p 80 (١)

الخراب ، وعها المدم ، فأصبحت أوحش من افواه السباع فاغرة ، تؤذن
 بفناء الدنيا ، وترىك عوائب أهلها ، وتخبرك عما يصير اليه كل ما بقي
 مائلاً فيها ، وترهذا فيها . كررت النفل ، ورددت البصر ، وكدت
 استطار حزناً عليها ، وتذكرت أيام نشأتي فيها ، وصباية لداتي بها ، مع
 كوعب غيد ، إلى مثلين يصبو الحليم ، ومثلت لنفسي انطواههن بالفناء
 وكونهن تحت الترى اثر تقطيع جمعنا بالفرق والجلاء في الآفاق النائية ،
 والنواحي البعيدة ، وصدقت نفسي عن فناء تلك القصبة ، وانصداع تلك
 البيضة بعد ما عهدته من حسنهما ونضارتها وزبرجها وغضارتها ، ونضوته
 بفارقها من الحال الحسنة ، والمرتبة الرفيعة ، التي رفت في حلها ناشئاً
 فيها ، وارعىت سمعي صوت الصدى ، والبوم راقياً بها ، بعد حركات تلك
 الجماعة المنصدعة بعرصاتها ، التي كان ليهلاً تبعاً لنهارها ، في انتشارها
 بسكنها ، والتقاء عمارها ، فعاد نهارها تبعاً لليهلا في المدوء والاستيحاش ،
 والخفوت والأخفاف . فأبكي ذلك عيني على جمودها ، وقرع كبدني
 على صلابتها ، وهاج بلايلي على تكاثرها ، وحركتي للقول على نبوٌ طبعي ،
 فقلت :

سلام على دار رحلنا وغور درت خلاء من الأهلين موحشة قفراء
 تراها كأن لم تفن بالامس بلقعاً ولا عمرت من أهلها قبلنا دهراء^(١)

هذا وقد عين المستظر أيضاً أكراماً لابي محمد بن حزم صديقاً

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ١٠٦ - ١٠٨ ، والبيان المذكوران اعلاه هما مطلع الفصيدة الطويلة التي نظمها ابن حزم في تلك المناسبة والتي يمكن الرجوع إليها في كتابه المذكور .

له اسمه محمد بن احمد (١) كسفير بين مختلف ملوك الطوائف . وقد كان هذا من عائلة نبيلة في قرطبة انا اصلها من شذونه Sidonia . وقد كانت مقدرتها الافوية تغوله الاحتلال مثل ذلك المنصب الخطير الذي عهد الخليفة به اليه . وعلى اثر موت عبدالرحمن المستظر انتقل هذا السكرتير او فر " بالاحرى الى منطقة بلنسية حيث مات هناك في سنة ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م .

وذكر المؤرخون أيضاً من وزراء المستظاهرين حسان بن عبده الذي عندما تقادى الخليفة في تصريف الأمور دون الرجوع الى رأيه كتب اليه يقول :

(١) هو محمد بن احمد بن محمد بن حسن بن اسحق بن عبد الله بن اسحق بن مهاب بن جعفر من أهل قرطبة . وذكر الرازي في يومات الموالى بقرطبة ان اصلهم من شذونه ، يكفي ابا بكر . روى عن ابي الوليد ابن الفرضي وسمع منه كثيراً واخضص به . كارروي عن ابي عبدالله ابن الحذا ، وابي القاسم خلف غيث وابي عبدالله المعروف بالري وابي القاسم عبدالرحمن بن ابي زيد المصري وابي عبدالله عدن ابراهيم بن محمد وابي بكر عبدالرحمن بن احمد التجيبي وابي سعيد الجعفري وابي حسن التبرizi . وقد سمع من ابي عمر ابن عبدالبر بدائيه سنة ٤٣٢ هـ كتابه القصي هو واو العباس المهدوي وغيرها وأخذ أيضاً عن ابي محمد ابن حزم وهما من اصحابه .

وكان من أهل الكتابة والبلاغة ضابطاً مقيداً شديداً العناية بالرواية وله تعليق على تاريخ ابن الفرضي واستلحاق يشهد بناته ومرفوته وقت عليه بخطه وهو من بيت وزاره وجلاة .

وكانت له عند ملوك الاندلس في عصره حظوة ومكانة يسفر لاجلها بينهم في تسكين ما يبعث بعضهم مع بعض أيام الفتنة ، وكان احد الوجوه الذين رتتهم المستظاهرون ابو المطرف عبدالرحمن بن هشام لحسن ادبه وسعه معرفته وهاجر بعده الى شرق الاندلس .. ذكر بعض خبره المصحي وتوفي في حدود سنة ٤٥٠ هـ (ابن البار : التكملة لكتاب الصاله رقم ٤٣٩) .

اذاغت لم احضر وان جث لم اسل فسيئات مني مشهد وغمب
فأصبحت تيمينا وما كنت قبلها ليسم ولكن الشيء نسب

وقد اقر المستظير الموظفين والخدمة الذين كانوا يعملون في مدینتي الزهراء والزاهرة في مناصبهم ، كاً أبقى موظفي الجباية والمحاسبة في قرطبة في وظائفهم ، وأقره أيضاً الموظفين القائمين على شؤون القصر وشئون المائة والحاشية ، والموظفين القائمين على بيت المال وعلى مطابخ الخليفة وعلى الاعتناء بجواريث الخاصة من الناس والموظفين المكاففين بصناعة ملابس الخلفاء والامراء والقواد الخاصة والقائمين على خدمة المباني ومناظرة الاسلحة وما يتبعها ، كاً أقر موظفي الخزانة لقبض والنفقات والاعتناء بمخازن المؤون والمستودعات ، والموظفين القائمين على خدمة الوثائق ورفع الشكاوي والمظالم وعلى خزانة العط والحكمة ، والقائمين على الدور الخصصة للاضيوف والمتدين بهؤلاء ، والموظفين المكاففين بشئون السوق (البلدية كما يعبر عنها حديثاً) ..

فاما تم له القيام بهذه الاصلاحات الادارية ، بادر الى استدعاء جماعة من وجاه قرطبة للمثول امامه ، فلما حضروا أمر بالقبض عليهم وزجهم في السجن كاً أمر عصادة أبوالهم لعدم تأييدهم ايّاه وانصرافهم الى سليمان بن المرتضى .

ورغب عبدالرحمن في الحصول على مبايعة جميع المقاطعات الاندلسية فأوفد رسلاه الى مختلف الحكام والرؤساء يطلب اليهم مبايعته الرسمية بالخلافة والاجماع على رأي واحد فيما بينهم كي يتسمى للدولة الاموية في الاندلس أن تستعيد مجدها ، إلا أنه اخفق في حمايته وعاجله اعداؤه بالمجوم المفاجي . قبل ان يتسلم رسلاه اجوبة حكام ورؤساء الاندلس ، فبدلت

دولته ، ونجا ذكره . (١) فما هي اسباب الثورة على المستظاهر ؟

أسباب الثورة :

ينظر انه تجتمع لدى الشعب عدد لا يأس به من العوامل المثيرة التي دفعته الى التمرد على خليفته المستظاهر رغم انه لم يكن قد أمضى في الحكم سوى حوالي ستة واربعين يوماً .

واما نظراً الى الاسباب التي يوردها المؤرخون ، نرى ان منها ما هو سياسي ، ومنها ما هو اقتصادي ، ومنها ما هو شخصي . فلنحاول أن نلم بثلاث الاسباب .

كان من أهم الاسباب السياسية لثورة القرطبيين على المستظاهر هو ما اسلفناه من قبضه على تلك الجماعة من اعيان قرطبة من كانوا يملكون الى ملیمان المرتضى وزوجه ايامهم في السجن . إذ أخذ هؤلاء السجنون يعملون ضده من سجنهم فكتابوا صاحب المدينة (٢) ودعوه الى الانضمام لقضيتهم فأجلبهم الى ذلك كما استجابت لهم جماعة من الناس من كانوا يدينون بأدائهم فشكل هؤلاء كلامهم كتلة قوية أخذت تعمل على بث الدعاية المارضة

(١) يقول ابن حيان عن المستظاهر : « انه اخفق فيها طلبه وعوجل ، ولما تقبض الاجوبة رسله واصبح امره والبقاء له وحده (ابن بام - المختير الفس الاول الحمد الاول من ١٣٧) .

(٢) يذكر ابن الائير في الكامل ج ٧ من ٢٨٧ ان السجنين من اعيان قرطبة قد كاتبوا صاحب الشرطة وليس صاحب المدينة وانه استجواب اليهم . وعلى أي حال لا يوجد كبير فرق بين صاحب المدينة وصاحب الشرطة إذ ان كلي الاثنين له هؤذ واحد والمهم ان نعرف ان أحد كبار المسؤولين في المدينة قد انضم الى قضيتهم فساعدتهم ذلك على نوال النصر .

لهم المستظہر وتألیب الناس عليه ، حتى تم لهم ما أرادوا كما ستری .

كما أن من الأسباب السياسية اكرام الخليفة في بعض الناسبات لأعداء القرطبيين التقليديين وهم البربر إذ ورد عليه في أحد الأيام عدد من فرسان البربر فاحتفي بهم احسن احتفاء واكرام مثواهم وازدهر في قصره وقام تجاههم بجميع واجبات الضيافة . فاستاء من ذلك كثير من كبار الموظفين والخاشية وصاروا يقولون للعامة : « نحن الذين قهروا البربر وطردناهم عن قرطبة ، يأتي هذا الرجل فيسعى في ردهم علينا وتقذفهم من فواصينا » . فباج الشعب من جراء ذلك واضمر الغدر بخليفةه .

ولقد كان من جملة الأسباب السياسية انتماده على وزراء امثال ابن شهيد وابي محمد بن حزم وابن عمده واحمد بن برد وغيرهم من لم يكن لهم عراقة في النسب وخبرة في السياسة ، فأحقد بذلك قسماً كبيراً من الشعب الذي لم يكن قد اعتاد على رؤية الوظائف الكبرى في الدولة تشغله إلا من قبل الاشراف والمربيين في النسب كما سبق ان تحدثت عن ذلك في خلال كلامي عن خلافة يحيى بن حمود الثانية . هذا علاوة على أن الشعب كان ينظر الى هؤلاء الوزراء المذكورين نظرة المغفوريين المعجفين بأنفسهم الى اقصى درجات الاعجاب بما كان يزيد في كره الناس لهم ونقمتهم على الخليفة الذي احطفاهم وقرء لهم اليه .

ويورد أخيراً بعض المؤرخين سياسياً آخر لانفورة على المستظہر فيقولون : « كان سبب الثورة عليه ان حسن رأيه في ابن عمران ، أحد الوجاهة الذين كان سجنيهم ، فأخرجهم من سجنهم . فقال له بعض اصحابه : « ان مشى ابن عمران في غير سجنك باعا بتر من عمرك عاماً ، فعصاه المستظہر »

ل غالب هو اه ، فمحاق به في المثالب رداء ». (١)

وإذا كنا نستطيع أن نستنتج من هذا النص شيئاً ، فيكون ذلك أن المستظر باطلاقه سراح ابن عمران قد ارتكب خطأً سياسياً من حيث لا يشعر ، إذ ظن أنه بعمله ذلك يكسب إلى صفه شخصاً كان إلى مدة قصيرة من أعدائه ، ولم يقدّر أن ذلك الشخص سيظل حاقداً عليه المعاملة التي عامله بها وأنه بعد خروجه من السجن سيتّنقل في أرجاء الدولة من مكان إلى آخر يحرض الناس ضد خليفتهم معدداً مساوئه وذاكراً ضعف سياساته وداعياً إياهم للثورة عليه . وقد قال أحد المؤرخين بهذا المعنى ما يلي : « كان جماعة من أهل الشر في السجون يتّبعون أن لا يخرج منهم إنسان ، فأخرج منهم المستظر شخصاً يقال له أبو عمران . وقد كان اشار بعض الوزراء عليه بعدم اخراجه . فأخرجه وخالقه في ذلك ولم يقبل النصيحة .. فسعى القوم الذين خرّجوا من الجبوس على افساد دولته وابدال فرجه بالبؤس .. » (٢)

هذه هي أهم الأسباب السياسية لثورة على المستظر . أما الأسباب الاقتصادية فترجع إلى فقر الخزينة والتّأخير أحياناً في دفع رواتب الجندي والموظفين وفراغ يدت المال الذي كان يؤدي إلى عرقلة الكثير من أعمال الدولة ومشاريعها الهامة . هذه الأسباب الاقتصادية كلها أضعفت من هيبة الدولة في نفوس الناس وجعلت الكثرين يتجرّأون على تقدّها ويفكرُون في حكومة اصلاح يسامونها مقادير البلاد :

(١) ابن حيان عن ابن سما : التّذكرة الفرم الاول المجلد الاول من ٣٨ وعن ابن عذاري المراكبي ، البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٨

(٢) المغربي : نفح الطيب ج ٢ من ٣٣

وبالنسبة لاعوامل الشخصية التي ذكرت منذ قليل انها اثرت في استياء الناس من المستظير ، فإن ذلك يعود الى حياة هذا الخليفة الخاصة وميله الشخصية . ولا أعني بذلك فساد اخلاقه أو شذوذه في بعض النواحي وإنما اعني بصورة خاصة ميله الى الشعر والادب والثقافة بتنوعها ، وبمحاسنة الادباء والفقهاء والعلماء وخاصة ابن شبيب وابن حزم واستغفاله بذلك عن امور دولته ، في وقت كان الناس فيه اجهل ما يكون^(١) فزادت اسباب نقمتهم عليه وانتقاداتهم له وسعوا الى القضاء على دولته .

هذه هي في رأيي أهم العوامل التي دفعت الشعب الاندلسي الى الثورة على خليفته الاديب المثقف عبد الرحمن المستظير ، فكان في ذلك نهاية ومقتله .

نهاية المستظير :

تجمع الناقون على حكم عبدالرحمن بن هشام من كل حدب وصوب وتناولوا للهجوم على قصر الخليفة ، فساروا نحوه مسلحين بكل ما وصلت اليه ايديهم من انواع السلاح . ولما وصلوا القصر قاومهم الحرس من العبرارة مقاومة شديدة ، ولكن المهاجرين انتصروا عليهم ودخلوا القصر واتشروا على سقفه وهم في حالة هياج شديد ونوره باللغة ، واخذ الناس يقتلون البربر اينا وجدوهم . ثم سمع المساجين في القصر ضجيج الناس فبدأوا بالصياح والاستغاثة كي يسمعهم الناس فيخلصوهم مما هم فيه ، فكان لهم ذلك إذ أنه ما ان بلغت صيحاتهم مسامع المهاجرين حتى عمدوا الى السجن فألقوه ملقا دون حراس محرسونه — لأن هؤلاء كانوا قد فروا للنجاة بأنفسهم — فما كان منهم إلا أن كسروا الاقفال وخرجوا المساجين الذين

(١) والمفرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٣٣

انضموا اليهم في الثورة على المستظہر . وكان محمد بن العراقي من جملة الذين اخرجوا من السجن بينما كان سليمان المرتضى قد قضى نحبه قبل ذلك بعشرة ايام في السجن ذاته . وما عتم التأذون ان استولوا على معظم اقسام القصر ودخلوا الى جناح الحريم ، فشعر عبد الرحمن بأن نهايةه قد قربت وانه مقتول لا محالة خاصة وان المهاججين كانوا قد احاطوا به من كل جهة فاستنقاث بالوزراء ابن جبور وجماعته فلم يجدوا له مناصاً ولا خلاصاً بل انهم كانوا قد شغلو بتخليص انفسهم . وأخذ الوزراء ينفرون عن الخليفة واحداً فواحداً بناء على اشارة قواد الجندي الى أن بقي وحيداً^(١) ونجا من عجل بالفرار من الوزراء والموظفين وأما من عثر عليه فقد قتل مثل احمد بن سهل صاحب المدينة وغيره .

تجاه ذلك الوقف ، فرر الخليفة المهرب والنجاة بنفسه على ان يقاوم دون فائدة فامتنع حصانه وهم بالخروج من القصر ولكن الثوار كانوا قد احاطوا به من كل جانب فاتجه الى باب الحمام يرغب في الخروج منه ولكن الخلوة من موظفيه قاما بوجهه يسبونه وينعنونه من الخروج ، فاضطر ازاء ذلك ان يرتد على عقبيه ثم ترجل عن حصانه وتجرد من ثيابه حتى بقي في قيصه واختبأ في اتون الحمام كا اختباً عدد من البرابرة في الحمام وفي اقسام القصر الاخرى .

وأخذ المهاجرون يبحثون عن الخليفة والبرابرة فعثروا على قسم من

(١) ذكر المستشرق الاسپاني Asin Palacios ان ابن حزم وابن عمده قد اطهرا بلا كثيرة في موقفهما تجاه المستظہر حين الثورة عليه إذ لم ينارقاه ابداً وحتى اللحظة الاخيرة رغم ان الجميع انقضوا عنه في ايامه الاخيرة وحين قيام ابن عمده عليه . وقد استحق ابن حزم بناء على موقفه هذا فترة من السجن ، فلما خرج منه عدل عن الحياة السياسية الى العمل الادبي ورفض العروض السياسية التي قدمت اليه .

هؤلاء في بعض زوابع القصر رمحابه فقبض عليهم وقتلوا في الحال . ثم لما رأوا اختفاء شخص الخليفة زاد ذلك في تشجيعهم على الاعتداء على حرمته وفضح نسائه فاعتذروا عليهن وسبوا أكثرهن وحملوهن إلى منازلهم علانية وجرى عليهم ما لم يجر على حرم سلطان في تلك الفتنة .

كان المترعم لتلك الثورة أحد الامويين من أحفاد الناصر وابن عم للخليفة المستظير وهو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر الذي كان يعتمد بصورة كليلة على مساعدة وتأييد بكر بن محمد بن الشاطري العيني (١) الذي كان من المفروض فيه أن يكون صديقاً للمستظير لولا خياته له وتخليه عنه . فلما احتفى شخص عبد الرحمن ، اطمأن ابن عميه محمد إلى وصوله إلى مبتغاه في احتلال عرش الخليفة في قرطبة ، وتوجه مع أصحابه إلى قاعة العرش التي وجدوها خالية من أي شيء بسبب هرب العامة لها منذ قليل . وجلس محمد بن عبد الرحمن في مجلسها القبلي مبهوتاً بينما قام القائدان محمود وعنبر على رأسه بالسيوف يحرسانه كأنه فعل ذلك مع ابن عميه عبد الرحمن وببدأ الموظفون وال العامة يجتمعون بين يدي محمد بن عبد الرحمن لباتيته في نفس ذلك اليوم .

أما عبد الرحمن المحتقى ، فقد جد انصار ابن عميه القائم الجديد بالامر في البحث عنه في كل مكان من القصر حتى اهتدوا إليه أخيراً في آتون الخامن وقد انطلقا انطلاوة الحياة في مكان صغير وعليه قيس مسود وهو في أسوأ حال فاقتيد أمام عبد الرحمن الذي كان قد فرغ الناس مباتيته فأُوْزِعَ إلى بعض الرجال القائمين على رأسه بالقضاء عليه ففعلوا وضربوه بالسيوف حتى خدت أنفاسه . وكان ذلك في ٣ ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ

(١) ابن حيان عن ابن سام : الدخيرة الفصل الاول الجزء الاول س ٣٧

١٧ يناير سنة ١٠٢٤ م ولم يعقب عبدالرحمن أبى " ولد بعده فانكسرت الخلافة عن عائلته وانتقلت الى فرع آخر من الاسرة الاموية .

شخصية المستظہر الادبية :

يكفي ان يلقى الانسان نظرة على الشخصيات التي رفعها الخليفة عبدالرحمن المستظہر الى الوزارة والى شهادات المؤرخين والادباء بعده واديه وبلايته وخطاباته وشاعريته وذكائه .. والى القصائد الرائعة والأيات الشعرية البدعة التي صاغها والتي تلاً صفحات الادب العربي الاندلسي ، يكفي ان نلقي نظرة على كل هذا حتى ندرك على الفور القيمة الادبية والثقافية والعلمية الكبيرة التي يتمتع بها الخليفة الاموي المستظہر .

ان اختيار الخليفة لوزراء امثال ابن حزم وابن شبيط وابن برد وحسان بن عبده وغيرهم من رجال الادب ... من مجموعة الرجال السياسيين الذين كان يمعن بهم المجتمع الاندلسي آنذاك ، مما يدل دلالة واضحة على الميل العنيف الذي كان يتحسنه المستظہر في نفسه نحو الادب والادباء والشعر والشعراء والعلماء . وأن هذه الشخصية الادبية التي كان يتمتع بها المستظہر تظهر جليّة من خلال وصف المؤرخين له . فيقول عنه اديب الاندلس الكبير ابو الحسن علي المعروف باسم ابن بسام الشنتراني ما يأتي :

« كان على حدّ منه فطنًا لوعيًّا ، ذكيرًا ، يقطأ ، اديباً ، فصيح الكلام ، جيد القراءة ، مليح البلاهة ، يتصرف فيما شاء من الخطابة بدقة وروية ، ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة ، وقد اقتضب بمحضه الوزراء في ايماه عدة رسائل وتوقيعات ، لم يقصر فيها عن الاجادة ، يزین ذلك بطهارة تواب وعفة وبراءة من شرب النبيذ سراً وعلانية . وكان في

وقته نسيج وحده ، ختم به فضلاء أهل بيته الناصريين فلم يأت بعده مثله .^(١)

وقد ذكره النويري بقوله : « كان غاية في الأدب والشعر ولهنظم
كثير جيد .^(٢)

أما أبو محمد بن حزم وزيره فقد قال عنه : « انه كان اديباً شاعراً صديقاً
للادب والادباء .^(٣)

وذكر مثل ذلك عبد الواحد المراكشي فقال : « كان المستظر
غاية في الأدب والبلاغة ورقة النفس كما كان شاعراً يستعمل الصناعة
فيجيد » .^(٤)

وانى عليه ابن الأثير بما بلي : « كان اديباً خطيباً بليناً ، رقيق
الطبع ، له شعر جيد » .^(٥)

هذا وقد أورد بعض الادباء في كتبهم عدداً كبيراً من اشعاره
اذكر هنا بعضها لما رأيت فيها من الجمال والماطفة ودقة الوصف . وتنصب
معظم اشعاره ، على ما رأيت ، على وصف عاطفته الشخصية ، والتنزل
بالشخص القريب إلى قلبه . فقد ذكر له صاحب الحلقة السيراء من جملة ما
ذكر الآيات التالية :

(١) ابن إسحاق : الذخيرة الفسم الاول الجزء الاول من ٠٠

(٢) النويري : نهاية الارب ج ١ ض ٧٢

(٣) أبو محمد ابن حزم : مختصر انساب العرب س ٩٢

(٤) عبد الواحد المراكشي : الموجب من ٥

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٧ من ٣٨٧

اجعل لنا منك حظاً إلها القمر
راك ناس فقالوا أن ذا قمر
البدر ليلة نصف الشهر بهجته
والله ما طلعت شمشي ولا غربت

وانشد له ابن أبي الغفار :

يا ظالماً ظنْ قلي في الموى حسنا
طويت حبك حتى ظل ينشره
افديك من ساكن في القلب مسكنه
يا قرة العين قد عذبها سهرا
ما بال قلبك يشكو فرط قسوته
اما هو الا فاني لست سالبه

وهذه قصيدة كتبها المستطرير الى «مشنف» زوجة سليمان بن الحكم ، ايام خطب بيتها «حبية» من سليمان وكان قلبه قد علق بتلك الفتاة لنشأتها معاً في ذلك الاوان . فقال :

وتأيي المعالي ان تحييز لها عذرًا
وهل حسن بالشمس ان تتمنع الدراء
جلالة قدرى أن اكون لها صهرا
وسقت إليها في الهوى مهجنى مهرا
محدرة من صيد آياتها غراء
فطرت إليها من سرارتهم صقرا
يسرك منه ان تكوني له فطراء
هدوء أو استسقي لساكناها القطراء
وجالبة عذرا لتصرف رغبتي
يمكفلها الاهلون ردى جهالة
وماذا على أم الحبيبة إذ رأت
جعلت لها شرطا علي تعبدى
تعلقها من عبد شمس غربرة
حمامه عش العbeschمين رففت
لقد طال صوم الحب عنك ثما الذي
وانى لاستئنفي بعريبي بداركم

لأطفني من نار الاسى بكم جرا
 «وعيشك، كفأ مدّ رغبته مترا
 بلکي لها وهي التي عظمت فخرها
 جر اندها حتى ترى جونها شقرا
 وابنهم ذكرأ وارفعهم قدرأ
 ويني الفتاة الخود عندها البكرا
 ولحظ اذا ما شئت اعمك السحرا

والصق احتشائي يرد تراهما
 فان تصرفيني يا ابنة العم تصرف
 واني لارجو أن اطوق مغمزي
 واني لطعن اذا الخيل اقبلت
 واني لاولي الناس من قومها بها
 وعندى ما يسي الحلمة تئا
 جمال وآداب وخلق موطن

ولمها يوماً وأواماً بالسلام فم ترده عليه خجلاً فكتب اليها :

ولم يرنى اهلاً لرد سلامه
 اصاب فؤادي عامداً بسهامه
 بطيف خيال زائر في منامه
 فتى فيك مخلوع عذار لحامه
 اذا لم يقل غيري بحفظ ذمامه
 سيوصل حبلى بعد طول انصرامه
 وُمنقد قلبي من حبال غرامه
 وان كان هذا زائداً في احترامه

سلام على من لم يجد بكلامه
 سلام من الرامي الذي كلها رمي
 بنفي حبيب لم يجد لحبه
 لم تعلمي يا عذبة الاسم انى
 واني وفي حافظ لأذمي
 يشر ذاك الشعر شعري انه
 وما شكل طرق في أن طرفاك مسعدي
 عليك سلام الله من ذي تحية

وله فيها ايضآ :

واسفر عن وجه بيته على الشمس
 لتفطيع انفاسي وليس من الانس
 ونفسي ولا شيء اعز من النفس

تبسم عن در تنضد في الورس
 غزال براه الله من نور عرشه
 وهبت له ملكي وروحى ومهجتي
 وهو القائل :

طال عمر اليدل عندى مسد توامت بصدئ

يا غزالا نقض الود^(١)
 انسىت العهد اذ بت
 واجتمعنا في وشاح
 وتعانقنا كمنصين
 ونحوم الليل تحكى ذهليا في لا زورد
 وهو القائل ايضاً - زعموا - يوم الوثوب عليه .

يا أيمها القمر النمير
 كن نحو شبهك لي سفير
 شوفاً بنيات الصدور
 بتحيةة أودعها

(١) اوردها ابن سعيد الغربي في رایات البرزین : « يا غزالا مطل الوعد » من ٣٧
 طبعة مدريد سنة ١٩٤٢ التي نشرها لأول مرة المستشرق الإسباني E. Garcia Gomez

الخليفة المعاشرة عشمرة

خلافة محمد بن عبد الرحمن

هو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الناصر لدين الله . يُكنى أبو عبد الرحمن ويلقب بالستكفي بالله . قتل أبوه على يد محمد بن عامر التنصوري في أول خلافة هشام المؤيد لسعيه في القيام عليه وطلبها الامر لنفسه . أمه أم ولد اسمها حوراء ، وكان سنه حين تولى الخلافة اثنتان وخمسون سنة . وقد بُويع كأرinya في نفس اليوم الذي قُتل فيه ابن عمده المستظر أبا يوم السبت في ٣ ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ = ١٠٢٤ م ويصفه بعض المؤرخين بأنه كان ربعة ، أشقر ، أثيم ، مدور الوجه واللحية ، ضخم الوجه والجسم ، كبير البطن ، هذا بالنسبة لصفاته الجسمية ، أما بالنسبة لصفاته النفسية والأخلاقية ، فلم ينزل كبير قسط من مدح المؤرخين بل على العكس من ذلك إذ أن أكثرهم الصدق به صفات ميئية واحلقة لا يحسد عليها . فقال عنه بعضهم : « انه كان صاحب اكل وشرب وجماع

وتحلّف ». (١) بينما ذكره آخر : « بأنّ همّه كان لا يهدو فرجه وبطنه وليس له فكر سواه » (٢) واردف ثالث بقوله : « انه كان في غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبر ». (٣) ووصفه بمثل ذلك الفيلسوف ابن حزم إذ ذكر : « انه كان في نهاية الضعف والسقوط والضياع والتآخر ». (٤) وبالغ ابن عذاري وابن سعيد المغربي في ذمه فقالا : « لم يكن محمد هذا من الامر في ورد ولا صدر ، وإنما ارسله الله تعالى على أهل قرطبة الخاسرين بلية ، وكان منذ عرض عطلاً منقطعاً الى البطالة ، مهولاً على الجهة . عاطلاً عن كل خلأة ، تدل على فضيلة وتكلمة ». (٥) وأخيراً فقد جعله المؤرخ ابن القطان اسوأ الخلفاء الامويين أيام الفتنة فقال : « لم يجلس للامارة مدة الفتنة انقض منه إذ لم يزل معروفاً بالتحلّف والبطالة ، اسير الشهوة ، عامر الخلوة ، ضداً لقتيله المستظاهر بالله في الطهارة والمعرفة والذكاء ». (٦)

يشبه المؤرخون الخليفة الأموي المستكفي في الاندلس بال الخليفة العباسى الذي كان يحمل نفس اللقب في بغداد فيذكرون ان كلي الاثنين كان لينا ، ضعيفاً ، متربداً ، شرعاً ، محبًا للنساء ، عاهرًا ، فاسدًا للأخلاق ، سيء

(١) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٢ والتورى نهاية الارب ج ١ ص ٨٣

(٢) الانبر : الكامل ج ٧ ص ٢٨٧

(٣) عبدالواحد المراكشي : المعجم ص ٥٦

(٤) ابو محمد ابن حزم : جهرة انساب العرب ص ٩٢

(٥) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ١٤١ وابن سعيد المغربي : المغرب في حل المغرب ج ١ ص ٥٥

(٦) ابن القطان عن ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ١٤١

التدبر ، فاشلا في حكمه .. إلا أن المستكفي العباسي كان يتفوق مع ذلك على سمه الاندلسي بعض المزايا الملكية التي كان يتصرف بها والتي لم يستطع هذا أن يتحلى بها لفطر تقصيره وضعفه . هذا عدا عن ان الظروف السياسية التي مر بها كلا الخليفتين والتي أوصلت بها إلى الخلافة كانت متماثلة . فكل من الاثنين فقد إباه وهو لا يزال بعد حدثا ، وكل من الاثنين اتهز فرصة الفتنة في بلده كي يستفيد من ظروفها ويصل إلى مبتغاه ، وكل من الاثنين استعان بعدد من الرعاع الذين لا هم لهم إلا الاعتداء على الناس وإثارة الفوضى والفتن بينهم ، وكل من الاثنين خلص الخلافة من ابن عميه وترفع على العرش مكانه ، وكل من الاثنين تولع بمرأة جشية . فالمستكفي الاموي تدله بمحب سكري الموروية ، وسيمه عشق حسنة الشيرازية ، وكل من الاثنين كان حكمه شوئما على البلاد وضرراً على أهلها فلم يتمكنا من القضاء على الفتنة وتخفيض الفوضى أو تحسين الحالة الاقتصادية ، بل على العكس من ذلك كان كل شيء يزداد سوءاً وتتأخر أمماً حدا بالشعب إلى القيام على المستكفي وازاله عن العرش .

اعمال المستكفي والثورة عليه :

عندما تم الامر لحمد بن عبد الرحمن ، اتخذ له وزيراً من عامة الناس كانت مهمته الحياكة قبل ان يرفه المستكفي الى رتبة الوزارة واسمه احمد بن خالد ، جمله المدبر لأمره والمدبر لدولته ، فتصرف هذا تصرف الملوكي المستقلين واستبد بالأمر دون المستكفي . ولم يراع مقام الناس في معاملته ايام . فنقم الناس عليه وعلى خليفة خاصة وانهم قد ياماً كانوا لا يتقبلون فكرة تأمير شخص عليهم اذا كان هذا الشخص من أصل وضع معمور النسب ، لماذا نقول في دولة يديرها حاثك .. فبدأ الناس يتذمرون من حكم المستكفي ويشكون من معاملة وزيره السيئة لهم ويتناقلون الاحاديث

عن سوء أخلاقه التي لا تختلف كثيراً عن أخلاق سيده ، قهياً النفوس لانهورة وكان انتطلاع احمد بن خالد بأمر الدولة دون المستكفي من أهم المؤامل التي عجلت بانتهاء حكمه وفراره من قرطبة .

وقد عَيْنَ المستكفي في وظيفة صاحب المظالم رجلاً لم تصل إلى أيدينا
إِيمَانٌ معلومات عنه وهو محمد بن عبد الرؤوف فلم يعترض الناس على ذلك
التعيين ولم يتذمروا منه مما يدل على أن صفحة هذا الرجل لم تكن ملوثة
أمام الشعب.

اما هناك عمل آخر أقدم عليه المستكفي فساعد في قيام الثورة عليه أيضاً وهو خنقه لابن عمه محمد بن العراقي وكنا قد رأينا كيف أن هذا كان أحد المرشحين الثلاثة الذين اختارهم وجاء قرطبة بعد فرار القاسم بن حمود ، ليتولى احدهم مكان الخليفة الفار . ثم رأينا كيف أن عبدالرحمن المستظير انزع الامر من منافسيه بالقوة وبمحمد السيف ، ثم لما تم الأمر له قادها إلى السجن حيث توفي احدهما فيه وهو سليمان بن المرتضى وأخرج الآخر منه لدى قيام الناس على المستظير وهجومهم على السجين . فلما نجحت الثورة وتبواً محمد بن عبدالرحمن عرش الخلافة قرب ابن عمه ابن العراقي اليه وأراد أن يعوضه عما اصابه من الفر في عهد الخليفة السابق المستظير ، فجعله في بادئ الامر مستشاراً له ، ثم ما لبث أن ولاه عهده . ولكن لم يمض كبير وقت حتى دبت الخلاف بين الاثنين فأوعز المستكفي الى عدد من جنوده باعتقال ابن العراقي ووضعه في السجن . ورغم الخليفة في تحويل ولاية العهد من ابن العراقي الى ابن عم آخر له هو سليمان بن هشام بن عبيد الله بن الناصر ، ولكنه لما كان يخشى هروب ابن العراقي من السجن وتحريضه الناس ضده ، أوحى الى بعض حراس السجن بخنقه وذلك في ١٣ ذو الحجة سنة ٤١٤هـ

= ٢٦ فبراير سنة ١٠٢٤ م فنفذه أمره وأصبح الجو حالياً أمماً ، فأوصى إلى ابن عممه سليمان بولالية العهد .

لم يكن ولد العهد الجديد يتمتع بصفات حسنة يستحق بها هذا الشرف الذي آلت إليه . إذ أنها روى فيلسوف الاندلس ابن حزم يقول عنه : « أنه كان في منتهي الضعف والسقوط والضعف والتآخر ، وأن له مع ابن عممه المستكفي أخباراً عظيمه في ذلك » .^(١) فكان هذا دون ريب من المؤامل التي دفعت أهل قرطبة إلى خلع طاعة خليفتهم .

علاوة على كل ما تقدم ، فإن المستكفي أمر بالقبض على أبي محمد ابن حزم وعلى ابن عميه أبي المغيرة ووزيري الخليفة السابق المستظير ووضعهما في السجن مما أدى إلى زيادة عدد خصومه السياسيين . إذ أنه كان لكل من الائتين أقرباؤه وانصاره ومربيوه في قرطبة .^(٢)

فإذا اضفتنا إلى كل هذا أن المستكفي لم يفعل شيئاً ليحول دون هدم قصور الناصر التي استؤصلت في عهده رغم تعلق كثير من ثبات الشعب بها لأنها كانت تمثل إلى عظمة اسبانيا العربية أيام الخليفة العظيم ، عرفنا من بمجموع تلك الحوادث لماذا خلع الشعب طاعة المستكفي واجبره على الفرار من العاصمة .

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٩٢

(٢) إن وضع المستكفي لابي محمد ابن حزم وابن عميه أبي المغيرة في السجن يدل على أن هذين الوزيرين قد ظلا على أخلاصهما لل الخليفة عبد الرحمن المستظير حتى آخر لحظة ولم ينفعنا عنه مما جعلهما يستحقان مدة من السجن اعتزل على إثرها أبو محمد ابن حزم السياسية نهائياً وتفرغ لتأمل الأدب .

نهاية المستكفي :

عندما نفذ صبر الشعب ولم يعد يستطيع تحمل الاهانات التي كان يلقاها من المستكفي ووزيره الحائط احمد بن خالد ، تnadوا الى الثورة ثم ساروا متوجين الى دار الوزير . فلما وصلوها دخل عليه بعض الشاعرين نهاراً واعملوا فيه الضرب والاطعن حتى تركوه جثة هامدة . ثم توجهوا بعد ذلك الى قصر الخليفة وقابلوا المستكفي ، واغلظوا له الكلام ، لكنه رد عليهم رداً جميلاً كي ينجو من شرهم ، فتركوه في ذلك اليوم وهم مصممون على ان يعودوا اليه ثانية فيفرغون من شأنه . وقد قدّر هو ذلك الشيء وعرف ان بقاءه في الخليفة لم يعد امراً مرغوباً فيه ، فقرر على المهرب .

وفي ليلة من ليالي سنة ٤١٦ هـ = ٢٦ مايو ١٠٢٥ م خرج فلان من قصره بعد ان تبدل ولبس لباس الغائب ووضع نقاباً على وجهه كي لا يعرفه أحد . وزيادة في الحيلة فقد خرج من القصر بين امرأتين فلم يعترض أحد عليها وجد في السير حتى اصبح خارج قرطبة ، وحيثند بدأ يشعر بالراحة وبأنه اصبح بعيداً عن الخطر .

ولكنه اذا كان قد شعر بأنه اصبح في أمان بابتعاده عن قرطبة والقرطبيين ، فان المصيبة قد اتته من مرافقيه انفسهم .

كان الم Rafiq الاول الذي خرج معه من قرطبة والوحيد الذي بقى معه بعد خروجه منها ، هو قائده من قواده يدعى عبد الرحمن بن محمد بن السليم من ابناء معید بن المنذر القائد المشهور أيام عبد الرحمن الناصر . وقد رافقه هذا القائد طوال الرحلة ولكنها شعر حين وصولها الى قرية شنت اوشت مريه Santa - Maria التابعة لمدينة سالم Medinaceli بأن حياته

ستكون في جحيم طلما أنه يرافق خليفته النعس فعمل على التخلص منه .
ف لما طلب المستكفي عذاء ، عمد قائداته إلى دجاجة أعدت لطعامه فدهنها
بعصاره نبات يقال له «البيش»^(١) يكثر وجوده في بلاد الاندلس وخصوصاً
في تلك الجهة ثم قدّمها إليه ، فامرأة اكها المستكفي مات ل ساعته فغسله عبد الرحمن
وكفنه وصلّى عليه ودفنه . وقد مات المستكفي دون أن يعقب أبي ولد
بعده . فانقرض عقبه وعادت الخلافة من بعده إلى يحيى بن حمود ثانية الذي ان
تطلول مدة في الخلافة على ما سترى .

(١) البيش نبات يُمرّ ملوّنة ولكن عصارتها سم فتاك .

المقدمة الثالثة عشرة

خلافة يحيى بن حمود الثانية

ما سمع القرطبيون بذاك موت أبي عبد الرحمن الاموي (المستكفي) وتأكدوا من ذلك ، أخذ بعضهم يدعو ليعي بن حمود ويقمع الناس بإعادته إلى الخلافة ، وكان يحيى آنذاك في ماقه فكتب إليه بعض القرطبيين وعدد من البرابره يدعونه لقادومه إلى العاصمة ، فأجراهم بأنه لا مانع لديه من ذلك وأنه بدأ يعد الاستعدادات للسير نحو قرطبة ، وأخذوا يخطبون له على المنابر منذ رمضان سنة ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م.

منذ هذا التاريخ وأهل قرطبة يتوقعون قدوم يحيى اليوم بعد الآخر دون أن يحدث ذلك ، فإن هذا لم يكن يتجلّ الحبيء إلى قرطبة بعد أن خرج منها في المرة الأولى وهو على وشك الملاك ، وأصبح يعرف نفسية القرطبيين المقلوبة التي لا تستقر على حال من الاحوال وكيف انهم سرعان ما يغدون عن تأييد واحد للانضمام إلى آخر فيلحق بالآول من أنواع الاضطهاد والذل ما يجعله يزهد في الخلافة ومنصباً . لذلك كله تأخر قدوم يحيى إلى قرطبة ، ولكنّي لا يتركها خالية من إية سلطة ، أرسل إليها

نائباً عنه هو عبد الرحمن بن عطاف اليعري وزوجه بصلحيات واسعة فوصلها هذا وبادر اعماله فيها . وبعد انقضاء بضعة شهر على وجوده في قرطبة اتى يحيى بن حمود إليها وبوبع بالخلافة من جديد . ولكن "المقام على ما يظهر لم يلذ له فيها ، مما ان أصبح الثامن من محرم سنة ٤١٧ هـ = ١ مارس ١٠٢٦ م حتى غادر قرطبة وتوجه إلى مالقه تاركا نائباً عنه في العاصمة وزيره ، وكاتبه أبو جعفر أحمد بن موسى .

عندما رأى أمير غرناطة حبوس بن ماكشن ان قرطبه قد تركت لمصیرها ولم يعد فيها خليفة شرعي يسكن فيها دب" إليه الاعام في الاستيلاء عليها ، فكافح حليفه مجاهدا وخيران العامر بين أمير بي دانيه والمربي بأن يتوجهها مع جيوشها إلى قرطبة لاحتلالها . ولما احس القرطيبون بقربها هجموا على أصحاب يحيى بن حمود من البربرة في قرطبة يوم الثلاثاء في ٢٠ ربيع الاول سنة ٤١٧ هـ = ١٠ مايو ١٠٢٦ م فقتلوا منهم عدداً كبيراً قدره البعض بألف رجل .

في نفس ذلك اليوم ، دخل مجاهد وخيران إلى قرطبة بعد أن فرّ منها أحمد بن موسى مع أخوين له ، وتوجه أحمد إلى مالقه ليتنضم إلى يحيى بن حمود ، بينما توجه أخوه دوناس إلى حبوس بن ماكشن بغرناطة .

وبقي الموقف وخيران بقرطبة ماماً مدة شهر واحد فقط إذ أنها اختلفا بعد ذلك وخشي كل منها أن يندر به صاحبه ، ففضل خيران ومن كان معه الرحيل عن قرطبة تقادياً لنكبة تحمل بهم أو حرب أهلية تشتعل نارها بسبب الخلاف بين الاميرين الصقليين . وفي ٢٠ ربيع الثاني سنة ٤١٧ هـ = ١٩ يونيو سنة ١٠٢٦ م عاد خيران وجماعته قرطبة تاركين فيها مجاهد (الموقف) يتصرف فيها كما أراد . إلا أن هذا شعر بعد انصراف خيران انه بقي لوحده في جو ينقم عليه ويبغضه ففضل الاقداء بصاحبه والانصراف عن قرطبة تاركاً إياها لمصیرها . وفتق ذكرته فعلاً فنادرها بضعة أيام بعد انصراف خيران وتوجه إلى دانيه ، فasad

العاشرة جو من الفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار والخوف وانعدام الامن . وأخذ الناس يتوقعون قرب رجوع يحيى بن حود مع جماعته من البربرة كي ينتقم منهم لما فعلوه بأصحابه يوم قدم مجاهد وخيران . إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث كما سترى (١) بل ان الخلافة ستعود إلى أحد ابناء أمية الذي سيكون آخر من يملك في الاندلس من أفراد السلالة الاموية ، لأن الاندلسيين كانوا قد يشوا من استطاعة هؤلاء اصلاح الحالة والقضاء على الفوضى فقررروا إلغاء الخلافة كما سترى فيما بعد وتسليم السلطة إلى أحد الوزراء يحكم المدينة بمساعدة مجلس استشاري يسمى الجماعة . وهو ما حصل فعلاً .

(١) قتل يحيى بن حود في محرم سنة ٤٢٧ هـ = سنة ١٠٣٥ م امام مدينة قرمونه على يد الامير اسحائيل بن عباد . وتفاصيل مقته واردة في كتابي عن « جمهورية بي جهور » في هامش من ٦٥ - ٦٦ . وقد ترك من الاولاد حسن وادريس وعمر . أما حسن فقد كان صاحب سبعة وتسعين بالخلافة . وأما ادريس فقد تلقى بالتعالي وأخذ مدفون الخليفة ايضاً وأما محمد فهو آخر ولادة الحسودين ولم يتم تلقي الحفاظة .

الفترة الرابعة عشرة

خلافة هشام بن محمد ، المعندي

هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم .

كان يكتى أبو بكر ويلقب بالمعندي بالله . وكانت أمه أم ولد اسمها عاتب . ولد في سنة ٣٦٤ هـ = ٩٧٤ م . وبويع يوم الاحد ٢٥ ربيع الاول سنة ٤١٨ هـ = يونيو ١٠٢٧ م . يصفه المؤرخون بأنه ايض ، اصحاب الى الادمه ، سبط الشعر ، اخنس ، خفيف العارضين واللحية ، حسن الجسم ، مثيل الى القصر .

وهو آخر خلفاء بني أمية في الاندلس ، انقرض بعده الحكم الاموي في الحوض العربي للابحر الايض التوسط وانقسمت الاندلس الى ممالك متعددة تحكمها شیع وطوائف ، فسمى ملوكها بملوك الطوائف وبلغ عددهم ستة وعشرين .

ان الخليفة هشام المعتمد هو الاخ الاكبر للمرتضى الاموي الذي قام في شرق الاندلس أيام القاسم بن حمود وهزمه على يد زاوي بن زيري امير غرناطة . وكان هشام يكبر اخاه بأربعة اعوام ، فلما قتل هذا - كما مر معنا - قام بالدعوة مسكنه في شرق الاندلس وأقام في حصن البونت عند الامير محمد بن عبدالله بن القاسم الفهري الذي كان من انصاره ومن مؤيدي دعوته . وأخذ عدد انصار هشام يكثير وهو في حصن البونت يوما بعد آخر ، كأن أهل قرطبة كانوا قد عالمو بدعوته فتشاور كبارهم في مبايعته وقرروا أخيراً ، استجابة لرغبة عميدهم الوزير ابي الحزم جهور بن محمد بن جهور^(١) ، مبايعته بالخلافة لكونه اسلح الامويين لذلك . وكان مما ساعد على اتخاذ قرارهم هذا ، هو دون شك وجود عاطفة بعض مشتركة بين أهل قرطبة وبين هشام هذا نحو البربرة انداء الاولين التقليديين وفاثلي المرضي اخي هشام .

وهكذا أرسل أهل قرطبة الى هشام يعلمهونه بأنهم قرروا مبايعته ويدعونه لحضور الى قرطبة لتسليم مهام الحكم . وقد بدء فعلا بالدعاء لهشام في الجامع سنة ٤١٨ هـ = ١٠٢٧ م . ولكن هشاما بقي ينتقل بين الشفاعة مدة طويلة قبل ان يقرر القدوم الى قرطبة ، ودارت بسيمه ذفن عظيمة واضطراب شديد بين امراء الشفاعة الى ان اتفق أمرهم على ان يسرى الى قرطبة ، فسار اليها ووصلها في ٨ ذي الحجة سنة ٤٢٠ هـ = ١٠٢٩ م ، بعد ان كان قد مضى على بدء دعوته في حصن البونت ستة وسبعين شهر وثمانية ايام .

(١) اظر نبه الكامل في كتاب « جهورية ابي جهور » المجلة الخامسة ص ٦ طبعة دمشق سنة ١٩٥٩ . هذا وقد اجمع المؤرخون على ان عميد القرطابيين في رد الاسر الى الامويين كان ابو الحزم بن جهور . ذكر ذلك ابن الاتير وعبد الواحد المراكشي والضي والتوري وابن عذاري وابن حيان وغيرهم .

محمدنا ابن حيان عن هذا وعن الموكب الذي دخل على رأسه إلى
قرطبة فيقول :

قلد هذا الامر في سن الشيخوخة وكان معروفاً بالشطاره في شبابه
فأقطع مع شيه فرجي فلاحه فافتتحت يعنه باجماع وخيت بفرقة وعقدت
برضى وحلت بكره ، وكان الوزراء قد دروا في سجية أمره وكيفية
وروده فبادر هو ووفد على البلد ، فسرّ الناس وركب جيش قرطبة
لاستقباله ، فدخل في زيّ تفتحمه العين وهذا قوله وعدم رواء وبهجه
وعدد وعده فوق فرس دون مراكب الملوك ، بخلية مختصرة مادلاً سهل
غفاره إلى ما تحتها من كسوة رثة قدامه سبع جانب من خيل المولاي
العامريين صيروها معه للزينة دون علم ولا مطرد يسير هوناً والناس
يئتونه ويصيحون بالدعاء في وجهه ولا يعلمون ما سيق لهم من المكره
به فدخل القصر .^(١)

من هذا النص يتبيّن لنا أن الشعور الأول الذي أوجاه الخليفة
الجديد إلى القرطبيين لم يكن شعور الارتياح والاطمئنان إلى ما رأوه ،
إذ أنهم كانوا يتظارون أن يشاهدوه بعد ذلك الاتصال العلوي لقدمه والذي
طال كأقلنا حوالي ثلاثة سنوات ، موكيماً رائعاً فخماً منظماً يخترق شوارع
عاصمتهم . فلم يروا أمامهم سوى رجل يسيط يعطي فرساً عادية ويخيط به بعض
ابتعاه . فأصابوا من جراء ذلك كله بنوع من خيبة الأمل .

وبعد أن تم الامر لشام وبابعه الناس رسمياً ، توجه إلى شعور
القرطبيين صدمة جديدة ، إذ عوشاً عن أن يسلم مناصب الدولة الهامة إلى
وجهاء المدينة واعيائهم ويستوزر كبارهم إبا الحزم جبور بن محمد بن جبور

(١) ابن حيان عن ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٧

صاحب الكلمة المسموعة حينذاك في قرطبة ، مال إلى استئذان شخص من عامة الناس ، وضيع الأصل هو « حكم بن سعيد » المكنى بالفراز والذي كانت منهته الحياكة فيها سبق ، فاستاء الناس من ذلك أشد الاستياء .

يقول ابن حيان : « جاء مع العتدة في جملة مواليه حاتك من ابناء الزعاف بقرطبة يسمى حكم بن سعيد الحاتك الذي قال فيه الشاعر ابو الريبع :

هبك كا تدعى وزيرًا
وزير من أنت يا وزير
فكيف من وزير الأمير
والله ما للأمير معنى

ولقد سلم هشام الى وزيره حكم الفراز معظم أمور الدولة وأطلق يده في الأمور المالية وعيّن له الاعوان الكثرين لمساعدته فتصرف هذا تصرف كبار الوزراء وجلس في قصره يأمر وينهي ويدبر المدينة وفق هواه . ولم يكن هذا الوزير على ثقافة عالية بل كان اقرب الى الجهل منه الى العلم ، عدا عن اتصفاته بالتهور والتفسف والفظاظة في معاملة الناس فلم يثبت ان الـ عليه أهل قرطبة ، وجعل معظمهم اعداء الداء له ولأنه لواه السلطة .

واحتاج حكم بن سعيد الى بعض الاعوان الخلصين يعتمد عليهم في تسيير الامور ، فاختار فئة من أرذل القوم وسفالمائهم اتخاذهم بطانته له ، فأساؤوا الى سمعته وسيروه في طريق الضلال . يقول ابن حيان عن هذا الوزير :

« انه لم يهد إلا الى نفل دغل أو ماجن أو سوقي رذل سقطت به عليهم المشاكلاة واتخذم بطانته له في النواية وجروا في هواء طلق الجحوج ما فيهم حازم ولا نصيح ، فهو سرياً واصبح موعلمه وحال هشام في ذلك كله تزداد

ضعفاً إلى أن انكشف». كما أن ابن حيان نفسه يعود إلى وصف حاشية الوزير
وصفاً بديعاً بقوله:

«أكثروهم صبية أغمار من نعله ، ممن دبدهم حتى الكأس ،
وتنحيد الآس ، وطبع الترvas ، والتفتكه باعراض الناس . إن ضجع
مظلوم سخروا منه وحاکوه ، فكان الناس منهم ومن صاحبهم في بلاء
عظيم وجند مقيم».

ولم يأخذ حكم الفزار هذا رأي كبار قرطبة ووجهائها في شيء ،
ووصلوا كثيراً من أموال التجار ، صار يتكرم بها على البربر ، واستعمل
كثيراً من الطرق غير المشروعة للحصول على المال الوفير ، ولم يعر كبير شأن
للفقهاء ورجال الدين ، ففتح الناس من أعماله ، ونقموا عليه وعلى خليفته ، وأخذوا
يدبرون لمقتله وتخلع الخليفة هشام .

وكان هشام راض عن وزيره ، لأنه غمره بأنواع الملاذات ، من
المأكولات الفاخرة والشراب الذي يذيب وملائمه عينه وقلبه بالأنواع التي كان يؤثرها
على غيرها ، وأكثر له من الشهوات ، فأعاد له من الفقينات والجواري ما
شغلها بهن عمما يحيط به ، فاصبح قابعاً في قصره كأنه وراء ستار لا يدرى من
أمور دولته شيئاً ولا يتدخل في أمر .

وبطبيعة أن استياء القرطبيين من الوزير ، ونفيهم في التامر عليه قد
وصلت مسامعه ، فأخذ يحتاط لنفسه ، وبنى في ساحة المدينة قصراً منيعاً
لنفسه ففتح بواسطته نفسه واظهر لناس خوفه من ثورتهم فزادوا جرأة في
التدبر عليه . وأخذ يعمل على مداراة الناس وملاطفتهم ، كما عمل على تحفييف
بعض الضرائب العامة لارضاهم ، لكن طبقة الارستقراطية في قرطبة ، كانت
قد وضعت نصب عينها ابعاد الوزير الفزار عن الحكم ، لأن هذه الطبقة لم

تكن تستطيع تحمل حكم رجل وضع الأصل . كما أن شرف المحب كان بالنسبة
الها شرطاً أساسياً لكل منصب هام في الدولة .

وقد حاول الكثيرون من كبار قرطبة الدس على الوزير الفراز عند الخليفة هشام ولكن هذا لم يكن ينفعه اذنا صاعية ، لأن تأثير الفراز عليه كان أشد من تأثير أي فرد آخر . ومنعوا من دخول القصر . وقد احتفظ ابن جهور وحده في ذلك الحين بمكانة رفيعة لدى هشام ، على اعتبار انه صاحب الاباع الاكبر في قواطع الخليفة ، فلم يناس هشام ذلك ، فاعترف له بالجليل ، وقلل منه بعض المهام ، وكان يعتمد على رأيه بعد رأي حكم بن معيد .

هذه الحفظة التي كانت لابن جبور عند هشام ، هي السبب الذي دفع الوزير الفراز إلى بذل جهود طائلة في الدس على ابن جبور لدى الخليفة ليبعده عنه ، ولكن تلك الجهود لم تثمر وبقي ابن جبور قريباً من الخليفة يسمع لقضاء على الفراز .

وقد رأى ابن جهور أن القضاء على الفزار وحده لا يكفي بل يجب التخلص من الخليفة أيضاً . وأكثر من ذلك يجب التخلص من الأسرة الاموية عامة بعد أن ثبت عدم صلاحها لاحكام في عده تجارب خلال الفترة الأخيرة في قرطبة . ولما أدى إلى ان جهور برأيه هذا لزملائه من وجهاء قرطبة ، رححوا بالفكرة وابدوه فيها ويدلوا بالمعلم لتنفيذها .

لم يكن من الصعب قتل الوزير الفزار أو خلع الخليفة عن عرشه ، ولكن من الصعب اقناع الناس بضرورة إلغاء الخلافة واقامة حكم جديد مكانها . ولذلك فقد قرر رأي الجماعة في قربطة على كثبان زينهم في إلغاء الخلافة والجهير زينهم في التخلص من الخليفة ووزيره فقط .

ولأجل ذلك اتصلوا بأحد أقرباء الخليفة هشام وهو أمية بن عبد الرحمن

بن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، واقعوه بضرورة الثورة على هشام والخلص منه مقابل وضعه مكانه فيما اذا نجح مسعاه . ولم يكن أميه ، هذا الشاب المتهور الطامح الى الحكم ، ليطلب أكثر من ذلك . فوافق على الفكرة حلاً وأخذ يدعو الناس الى الانضمام اليه يساعدنه في ذلك وزراء قرطبة ووجهاً لها .

وفي ذات يوم ، بينما كان الوزير الفراز متوجهاً الى المسجد الجامع لاصلاة ، انهز المتأمرون الفرصة فقتلوه وقد حصل ذلك على الوجه التالي :

اقرب من حكم بن سعيد شخص كان قد دمه المتأمرون لتنفيذ خطتهم بواسطته ، وطلب اليه ان يصفي الى نصيحة مبيوذهما له ، ولما كان الوزير قليل السمع اضطر أن يميل عن فرسه ليقترب بأذنه من فم التكلم ، فما كان من محدثه إلا أن أمسك به وجذبه الى الارض فسقط عن دابته ، فهجم عليه عدد من المتأمرين الذين كانوا يختبئون بالقرب من المكان وطعنوه بالخناجر والسيوف حتى مات ثم قطعوا رأسه وطافوا به في أنحاء المدينة . وبعد ذلك توجه الثوار الى قصر الخليفة فحاصروه واستطاعوا النفوذ الى داخل القصر فأعملا فيه السلب والنهب ، وكان ذلك في ١٢ ذي القعدة سنة ٤٢٢ هـ = ٣٠ نوفمبر سنة ١٠٣١ م .

وتبوأ أميه بن عبد الرحمن مجلس الخلافة لا يشك في مالها اليه ،
يحيط به بعض الناهبين والجنود من كانوا معه وهو يصدر الأوامر هنا
وهناك كأنه أصبح الخليفة فعلاً ، حتى أن بعض الأفراد المحيطين به والذين
كانوا على علم بكلمة الناس للأمويين في ذلك الوقت قالوا له : « اثنا تحف عليك
من ان تقتل اليوم لما زری من انقلاب الناس عليکم (أي على الأمويين) . فقال لهم
اميه : « بایعوني اتم اليوم واقتلوني غداً » . رغبة منه في الخلافة.

أما أبو الحزم ابن جبور زعيم قرطبة الأول ، فإنه كان قد دعا الوجهاء والوزراء للجتماع في منزله منذ بدء الثورة لتقرب ما يجب عمله . وبعد أن اتخذوا مقرراً لهم ساروا مع اتباعهم المسلمين إلى قصر الخلافة ، فلما وصلوا إليه توجه أبو الحزم إلى الناس فطلب إليهم الكف عن النهب ، فأطاع الناس أمره ، أما لتسليمهم بزعامته أو نجوفهم من كان معه من الاتباع المسلمين ، أو لمدم بقاء ما يستحق النهب في القصر .

على أي حال توقف النهب وساد شيء من المدحود . ثم طلب الوزراء من الخليفة - الذي كان محاصراً في أحد إبراج قصره - النزول إليهم والتنازل عن الخلافة ، فانصاع إلى طلبهما واقتيد مع بعض نسائه وأولاده إلى دهليز يصل بين الجامع الكبير والقصر . وبقي هشام بعض الوقت في هذا الدهليز حتى قرر الوزراء ما يجب عمله بشأنه ، وهو وضعه في أحد السجون مؤقتاً ليتما يطلب منه مغادرة المدينة بأسرع وقت .

ويحدث بعض الشيوخ الذين هبوا ليخبروه بحكم الوزراء ، إن هشاما وعائلته كانوا في حالة تستحق الشفقة ، فقد كان أول ما طلب هشام حين رأى هؤلاء الشيوخ كسرة من الخبز يعلوها إلى طفلته الصغيرة التي كان يحتفظ بها بين يديه محاولاً رد البرد الشديد عنها . كما طلب سراجاً بسيطاً يأنس بضوئه مع من معه من ظلمة ذلك المكان الموحش حتى أنه أبكى الحاضرين^(١)

وفي اليوم التالي ، أغان الوزراء للناس قرارهم بالغاء الخلافة نهائياً ،

(١) وقد ذكر عبد الواحد المراكشي أيضاً في كتابه « العجب » س ٣٨ أن هشاما لم يتم في قرطبة إلا يوماً حتى قامت عليه طائفة من الجند فخلع ، وجرت أمور يطول شرحها من جلتها أخراج المعذبة لهذا من قصره هو وحشمه والنساء حسرات عن وجوبهن ، حاوية أقدامهن ، إلى أن دخلوا الجامع الأعظم على هيئة السبايا ، وأقاموا هناك أياماً يتعطف عليهم بالطعام والتراب .

وتوكييل جماعة من الكبار بحكم المدينة . وكان اميء لا يزال حينذاك في القصر يلتقي حوله بعض اتباعه . فخاطبهم ابن جهور مظهرا لهم خطأهم بالاتفاق حول فرد من بي أمية لأن أفراد هذه الاسرة اظهروا في عدة مناسبات عجزهم عن القيام بأعباء الحكم ، ثم افهمهم بأن الجميع قد قرروا الفاء الخلافة ، وان بقاءهم مع أمية يثير في المدينة حرباً أهلية جديدة ، ثم املأهم بعض الوعود الخلافية فانقضوا عن صاحبهم أميء وكاف بعض الجند باقتياده حالاً خارج المدينة حيث انقطعت اخباره بعد ذلك . (١)

أما الخليفة هشام ، فبعد ان اقتيد الى سجنه الوقت استطاع النجاة بنفسه وذهب الى لارده (٢) التي كانت تابعة لبني هود في ذلك الحين فعاش هناك خمس سنوات أخرى مغموراً لا يسمع به أحد حتى مات في سنة ٤٢٨ هـ = ١٠٣٦ م ، فكانت نهاية هي المأساة التي اتت بها حكم الاسرة الأموية في الاندلس .

(١) يذكر ابن الاتير عن أميء هذا أنه اخفى بقرطبة . فادى أهل قرطبة بالأسواق والارباص ان لا يقى أحد من بي أمية بها ولا يتركهم عنده أحد . فخرج أميء فمخرج ، واقطع خبره مدة ، ثم لما أراد المودة إليها طمعاً في أن يسكنها فقط ، أرسل إليه شيخ قرطبة من معه منها . وقيل : قتل وغيب في جادى الثاني سنة ٤٢٤ هـ (الكامل ج ٧ ص ٢٩٠) .

(٢) ذكر ابن الاتير ان المعذدين خرج من قرطبة ذهب إلى حصن محمد بن الكور بمبل قرطبة . فبقى معه إلى أن غدر أهل الحصن بمحمد بن الشور قتلوا . وخرجوا المعذدان إلى حصن آخر جبسوه فيه ، فاحتال في الخروج منه ليلاً وسار إلى سليمان بن هود الحنامي فأكرمه وبقى عنده إلى أن مات في صفر سنة ٤٢٨ هـ ودفن بناحية لارده . وهو آخر ملوك بي أمية بالأندلس . (الكامل ج ٧ ص ٢٩٠)

الخامسة

هكذا بعد الفاء منصب الخلافة في قرطبة ، كان على رجال الموقف أي الوزراء أن يسرعوا في تعيين مسؤول عن المدينة قبل أن تفتت الفوضى لعدم وجود رئيس مدبر .

ومن العجيب أن يستتبع المتبع للحوادث في هذه الفترة الماضية ، ان الأفكار ستبجه خاصة الى رعيم الجماعة ابي الحزم بن جبور لتسليمها حكم قرطبة . وهذا ما حدث بالفعل ، فان وجاه قرطبة الذين رأوا بأيه كان لا بن جبور في الفترة الاخيرة الاثر الكبير في تطورات الموقف ، اجمعوا على تسليمها حكم قرطبة ، ولكنهم لما عرضوا عليه ذلك رفض تسلّم المسؤولية . يد ان الوزراء كانوا موقنين بأنه لا يوجد رجل في ذلك الحين اصلح من ابي الحزم لتسليم ادارة البلاد ، فألحوا في ضرورة قبوله ل الحكم حتى قبل ، اما بشروط . فان ابن جبور ذلك الرجل السن العاقد الذي رأى ما جرّه الحكم من ويلات ومن مآس على الخلفاء السابقين حين عزّلهم ، وما رأه من تقلب أهل قرطبة وحبّهم للفوضى ، وسرعة ملائمهم من السلطان ، ووجود الكثيرون من الطاعنين في الحكم ، لم يكن ليرضى بعد ذلك كله ان توضع مسؤولية الحكم في قرطبة على عاته وحده . فلما قبل تسلّم الحكم شرط عليهم :

- ١ - الا يتسلم الحكم وحده بل يشاركه في ذلك وزير ان آخر ان يتتخذه بنفسه .
- ٢ - الا يتتخذ أي لقب من الالقاب الخلافية والملكية بل يحكم بصفته وزير ا للجامعة ومثلا لها .
- ٣ - الا يتتخذ قصر الخليفة مقر ا له بل يبقى في نفس المنزل الذي كان يسكنه .
- ٤ - ان يتسلم الأمر موقتاً ربما يحل محله شخص يتغى الناس على امارته .

وقد قبل الجميع مطالعه هذه ووافقو عليها ، إلا انهم اشترطوا عليه الا تكون سلطة الوزيرين الشريكين له في الحكم معادلة لسلطته ، اما يكونان كمستشارين له . وهكذا تشكلت حكومة قرطبة الجديدة التي نستطيع أن نقول عنها بأن نظامها كان أقرب ما يكون إلى النظام الجمهوري .

أراد المتسلم الجديد للأمور في قرطبة اعتبار نفسه وريثاً للأمويين في حكم الأندلس كلها ، فأرسل إلى كل من المنتزعين في أنحاء الأندلس والمستقلين فيها رسالة يطلب منهم فيها القدوم إلى قرطبة لمبايعته رسيراً برئاسة البلاد واعتبار انفسهم تابعين له ومؤيدن لحكمه . يد أن معظم الامراء المستقلين في الأندلس والذين عرفوا فيما بعد بملوك الطوائف رفضوا دعوته واعلموا بأن قيمتهم لا تقل عن قيمة ومكانته بل ان البعض منهم يتنازل حتى بالرد عليه .

منذ ذلك التاريخ ، أي منذ صعود الجواورة إلى سدة الحكم في قرطبة ، بدأ العرب في إسبانيا يضيعون الحمد الذي بناء لهم أسلفهم خلال أكثر من ثلاثة قرون . ولم يكن أبو الحزم ابن جبور هو المسؤول عن ذلك وإنما كانت الانانية والتحاسد والتبعض والتنافس على الرئاسات والسعى وراء المصلحة الشخصية هي كلها أسباب ضعف إسبانيا العربية وانقسامها . فكل من بني عباد وبني ذي النون وبني هود وبني حمود وبني جبور وبني الأفطس وبني زيري وغيرهم ، كل فئة من هؤلاء كانت تسعى في الاستيلاء على الأندلس والقضاء على المنافسين الآخرين .

هذا عدا عن وجود عدد من الصقالبة والبرابرة الآخرين الذين تمكنا
أيضاً من بعض الحباء البلاد فاستقلوا فيها وأعلنوا ملكيتهم هناك ، مما أدى إلى تفاقم
الامر وازدياد الفوضى وسرعة الانهيار .

هذه الممالك الصغيرة كلها ، على الرغم من نهوضها بتراث العرب الادبي
واعتنائها بالعلم والثقافة ، وتقريرها للاشرفاء وتقديرها لایاهم واغداق الأموال عليهم ،
وتشجيعها للتأليف والترجمة ، وامتلاء بلاطاتها برجال العلم الذين قدموا من كل
حدب وصوب ليضعوا امساكياتهم تحت تصرف الملوك الحبيبين للادب والثقافة ، أو
لينهلو احياناً من كنوز الأندلس العالمية الرائعة ، على الرغم من ذلك كله ، فإن
الحكم العربي في اسبانيا الممثل في هذه الممالك الصغيرة ، ما كان ليقدر له أن يعيش
مدة اطول بكثير لو لا قيام امبراطوريتين عربيتين في شمال افريقيا
استطاعت كل منها توجيه ضربة شديدة الى الدولتان الاسپانية الشماليّة قضت على حامها
باسترجاع الأندلس لمدة بضعة قرون ، وثبتت حكم العرب واعدادته الى سابق قوته
اعني بها امبراطوريتي المراطين والموحدين العرب .

المصادر والمخطوطات العربية

- ابن الأبار : (ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن ابي بكر) : اعتاب الكتاب . مخطوط موجود في الاسكوريال تحت رقم ١٧٢١ .
- التكاملة لكتاب الصلة : طبعة مدريد سنة ١٨٨٦ .
- الخلة السيراء : مخطوطة موجودة في المكتبة الوطنية في مدريد تحت رقم ٤٨٩٧ .
- المعجم : طبعة مدريد سنة ١٨٨٥ .
- ابن الأثير : (ابو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني)
الكامل في التاريخ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨ .
- ابن ابي زرع : (ابو الحسن علي بن عبدالله بن ابي زرع) : الانيس المغارب بروض القرطاس . طبعة الرابط سنة ١٩٣٦ .
- ابن سام : (ابو الحسن علي) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول
الجزء الأول طبعة القاهرة سنة ١٩٣٠ ، القسم الاول الجزء الثاني
طبعة القاهرة سنة ١٩٤٢ ، القسم الرابع الجزء الأول طبعة القاهرة
سنة ١٩٤٥ ، القسم الثالث ، مخطوطة في المجمع التاريخي الملكي
بمدريد (مجموعة Pascual de Gayangos رقم ١٢) .
- ابن بشكوال (ابو القاسم خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة ، طبعة وقدم له وعلق
عليه ووضع حاشيته فرانسيسكو كوديرا وزيدن (Francisco Codera y Zaidin)
مدريد سنة ١٨٨٤ .

ابن توزى بردى : (جمال الدين ابو الحasan يوسف) المجموع الزاهر طبعة القاهرة
سنة ١٩٣٥ .

العالى : (ابو منصور عبدالمالك بن محمد بن ابياعيل) : يتيمة الدهر . طبعة محمد
محى الدين عبدالحيد القاهرة سنة ١٩٤٧ .

ابن حزم : (ابو محمد علي بن احمد بن معید) جزرة انساب العرب . طبعة أ .
ليفي بروفسال E. Levi Provençal القاهرة سنة ١٩٤٨ .

طوق الحامة في الالفة والألاف : طبعة حسن كامل الصيرفي ، تقدمة ابراهيم
الاباري . الترجمة الاسانية قام بها وعاق عليها ووضع حواشها
المستشرق اميليو جارثيا جومث .

كتاب الفصل والملل والنحل طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ .
نقط المرؤس في تواریخ الخلفاء : طبعة شوقي ضيف . القاهرة
سنة ١٩٥١ .

الجیدي : (ابو عبدالله محمد بن فتوح بن عبدالله) : جذوة المقبس طبعة
القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

الجيري : (ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالممum) الروض المعطار في خبر
الاقطاع . عني بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشها أ . ليفي .
بروفنسال القاهرة ١٩٣٧ .

ابن حيان : (ابو مروان حيان بن خلف بن حسين) : المقبس ، الجزء المتعلق
بعهد الامير عبدالله بن محمد وهو خطوطه موجودة في المكتبة الوطنية
بمدرید تحت رقم ٥٠٨٥ .

ابن خفاف : (ابو نصر الفتح) : قلائد العقبان . القاهرة سنة ١٨٨٦ .
مطبع الانفس ومسرح التأنس في ملح أهل الاندلس طبعة القدسية
سنة ١٣٠٢ هـ .

ابن الخطيب (ابو عبدالله لسان الدين) : أعمال الاعلام . تحقيق ليفي بروفنسال .
طبعة بيروت سنة ١٩٥٦ .

الاحاطة في أخبار غرفة ، عنوان القاهرة سنة ١٩٥٩ .

رقم الملحق : مخطوط في المكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم ٤٨٩٨ .

ابن خلدون : (عبد الرحمن) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والمعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . القاهرة
سنة ١٢٨٤ .

المقدمة . الطبعة الثالثة . القاهرة سنة ١٣٢٠ هـ .

ابن خلkan : (ابو العباس شمس الدين بن محمد بن ابي بكر) وفيات الاعياد .
طبعة محمد محى الدين عبدالحميد القاهرة سنة ١٨٤٨ م .

ابن خير : (ابى بكر محمد) الفهرسة . طبعة وعلق عليه ووضع حواشيه
فرانسيسكو كودا وخوليان ريبيرا (Francisco Codera Ribeira)
طبعة سرقسطة سنة ١٨٩٣ م .

ابن صاعد الانداسي (ابو القاسم صاعد بن احمد) : طبقات الامم معاجلة
النقدم . القاهرة .

الترجمة الفرنسية والمقدمة لها والتعليقات والحواشى قم بها ريجيس بلاشير
Regis Blachère .
طبعة ١٩٣٥ م .

ابن سعيد المغربي : (ابو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك) رياض المبرزين .
طبعة وترجمة وقدم له وعلق عليه ووضع حواشيه اميليو جارثيا جوميث
Emilio Garcia Gomez .
مدريد سنة ١٩٤٢ .

المغرب في حلي المغارب : طبعة وقدم له وعلق عليه ووضع حواشيه شوقي ضيف
القاهرة سنة ١٩٥٥ .

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) : بقية الوعاء . الطبعة الاولى . القاهرة
سنة ١٣٢٦ .

الضبي : (احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة) : بقية المتن في رجال أهل الاندلس . طبعه وقدم له وعلق عليه ووضع حواشيه فرانسيسكو كوديرا وخوليان ريبيرا مدرید سنة ١٨٨٤ .

ابن المهاد : (ابو الفلاح عبد الحمی) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب . القاهرة سنة ١٣٢٠ هـ .

عنان : (محمد عبدالله) : دولة الاسلام في الاندلس . المعرق الاول القسم الاول الطبعة الثانية . القاهرة سنة ١٣٧٤ هـ = سنة ١٩٥٥ م ، المعرق الاول القسم الثاني الطبعة الاولى القاهرة سنة ١٣٧١ هـ = سنة ١٩٥٢ م .
الدولة العاصرة : الطبعة الاولى القاهرة ١٢٧٨ هـ = ١٩٥٨ م .
الاثارة الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال : الطبعة الاولى . القاهرة سنة ١٣٧٥ هـ = سنة ١٩٥٦ م .

ابن الفرضي : (ابو الواليد عبد الله بن محمد بن يوسف) : تاريخ علماء الاندلس . طبعه وقدم له وعلق عليه ووضع حواشيه فرانسيسكو كوديرا Francisco Codera مدرید سنة ١٨٩٠ م .

الراكشي : (عبد الواحد) : المعجب في تاجييس اخبار الترب ؛ طبعه وقدم له وعلق عليه ووضع حواشيه محمد معید الغریان و محمد العربي العلمي . القاهرة سنة ١٩٤٩ .

الراكشي : (ابو العباس ابن عذاري) : البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب طبعه وقدم له وعلق عليه ووضع حواشيه أ . ليفي رو فنسال Levi Provençal الجزء الاول في ليدن سنة ١٩٤٨ والجزء الثاني في ليدن سنة ١٩٥١ والجزء الثالث في باريس سنة ١٩٣٠ .

القرى : (احمد بن محمد) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب . طبعه وقدم له وعلق عليه محمد محی الدین عبد الحمید . القاهرة سنة ١٩٤٩ .

الناصري : (ابو العباس احمد بن خالد) : الاستقصا في اخبار الغرب الاقصى .
طبعه وعلق عليه جعفر الناصري و محمد الناصري . الدار البيضاء
سنة ١٩٥٥ م

الباهي : (ابو الحسن بن عبدالله بن الحسن) : تاريخ قضاء الاندلس . طبعة
أ . ليفي بروفسال . القاهرة سنة ١٩٤٨ .

النويري : (احمد بن محمد بن عبد الوهاب بن عبدالدائم) : نهاية الارب في
فنون الادب . طبع النص العربي وترجمه الى الامبرانية المستشرق .
Gaspar Remiro M.

ياقوت الحموي : (ابو عبدالله) معجم الادباء : طبعة احمد فريد الرفاعي . القاهرة
سنة ١٩٣٦ .

مؤلف مجہول : اخبار مجموعة في ذكر الاندلس وذكر امرائها والخروب الواقعة
بها يليهم . مدريد ١٨٦٧ .

المراجع الاجنبية

Aguado Bleye (Pedro) : Manual de Historia de Espana.
Sexta edicion. Madrid 1947.

Altamira (R) : Histoire de Espana y de la Civilizacion
Espaniola. Barcelona.

Ashbach (José) : Historia de los Almoravides y de los
Almohades en Andalucia. Traduccion arabe
por Abd Allah Anan. Tetuan 1940.

Asin Palacios (Miguel) : Aben Hazam de Cordoba y sus
historias de las ideas religiosas. Madrid 1927.

Contribucion a la Toponimia Arabe de Espana Segunda Edicion. Madrid-Granada 1944.

Ballesteros y Beretta (Antonio) : Historia de Espania y
su influencia en la historia Universal. Segunda
Edicion Barcelona 1944.

Bernhard and Ellen (M. Wishaw) : Arabic Spain. London
1912.

Bosch Vila (Jacinto) : Los Almoravides. Tetuan 1956.

- Gonzalez Palencia (Angel) : Historia de la Espana musulmana. Tercera Edicion. Madrid 1932.
- Historia de la Literatura Arabigo-Espanola. Segunda Edicion. Barcelona 1945.
- Hitti (Felipe K) : History of the Arabs. London 1945.
- Huart (Claude) : Histoire des Arabes. Paris 1913.
- Lafuente (Modesto) : Historia General de Espana. Barcelona 1889.
- Lane-Poole (Stanley) : The moors in Spain. New York 1897.
- Levi-Provençal (E) : Deux nouveaux fragments des Mémoires du roi Ziridi Abd Allah de Grenade « Al-Andalus », an 1941 fasc I pp 1-63.
- Histoire de l'Espagne Musulmane. Paris 1950.
- L. T. B. : Al Madina al-Zahira, la ciudad de Almanzor « Al-Andalus » afio 1956, fasc II, pp 353-359.
- Menendez Pidal (R) . La Espana del Cid. Cuarta Edicion. Madrid 1947.
- Historia de Espana : Madrid 1954.
- Morayta (Mignel) : La Espana árabe durante el siglo oncenio (anonimo).
- Munés (Hussein) : Essai sur la chute du califat Umayyade à Cordoue en 1009. Cairo 19
- Pons Boigues (Francisco) . Historiadores y geógrafos arabigo-Espanoles. Madrid 1898.
- Prieto Vives (Antonio) Los Reyes de Taifas. Madrid 1926
- Ramirez de Arellano (Rafael) : Historia de Cordoba desde su fundacion hasta la muerte de Isabel la Católica. Ciudad Real 1915.
- Seco de Lucena (Luis) : Los Hammúdies señores de Málaga y Algeciras. Malaga 1955.
- Simonet ; Historia de los Mozarabes de Espana. Madrid 1897.

- Brokelmann (Karl) : Histoire des peuples musulmans.
Traduction à l'arabe par Nabih Amin Faris et
Munir al-Baalbaki. Première édition. Bey-
routh 1951.
- Conde (José Antonio) : Historia de la dominación de los
árabes en España. Paris 1840.
- Dozy (Reinhart Pieter Anne) : Histoire des musulmans
d'Espagne. Nouvelle édition revue et mise à
jour par E. Levi-Provençal. Leyden 1932.
- Recherches sur l'histoire politique et littéraire
de l'Espagne pendant le moyen âge. Leyden
1849.
- Encyclopédie de l'Islam : Dictionnaire géographique, eth-
nographique et biographique des peuples mu-
sulmans. Publié par M. Th. Houtsma, R. Bas-
set, T. W. Arnold et R. Hartmann. Leyden-
Paris 1913.
- García Gómez (Emilio) : Algunas precisiones sobre la
ruina de la Córdoba Omeya. Revista « Al-An-
dalus » año 1947, fasc 2, pp 267-294.
- Las banderas de los Campeones : Traducción
española del libro de Ibn Saïd al-Magribi,
titulado « Rayat al-Muharrizin ». Madrid 1942.
- Al-Hakam y los bérberes según un texto iné-
dito de Ibn Hayyan. « Al-Andalus », fasc I pp
209-226.
- Gaspar Remiro (M) : Historia de la Murcia musulmana.
Zaragoza 1905.
- Gaudet-Demombynes : Observations sur le tome III
du Bayan d'Ibn Idari dans « Mélanges », Le
Caire 1937 pp 248-249.
- Guillén Robles (F) : Málaga Musulmana. Málaga 1880.

فهرس الموضوعات

المقدمة

صفحة ٥

القسم الأول

بذة عن الدولة الاموية في الاندلس

من ٩١ - ٣٩٩ هـ

م ٧١١ - ١٠٠٩ م

الحلقة الاولى :

- | | |
|----|----------------------------------|
| ١١ | عبد الرحمن الداخل |
| ١٨ | عبد هشام بن عبد الرحمن |
| ٢١ | عبد الحكم بن هشام |
| ٢٩ | عبد الرحمن بن الحكم |
| ٣٥ | عبد محمد بن عبد الرحمن بن الحكم |
| ٤٠ | عبد المنذر بن محمد بن عبد الرحمن |
| ٤١ | عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن |

الحلقة الثانية :

- | | |
|----|--|
| ٤٩ | عبد الخليفة عبد الرحمن الناصر |
| ٥٦ | عبد الخليفة الحكم الثاني |
| ٦١ | عبد الخليفة هشام بن الحكم وحاجبه المنصور بن أبي عامر |
| ٦٢ | ال حاجب عبد الملك بن أبي عامر |

القسم الثاني

الاسباب البعيدة لسقوط الدولة الاموية في الاندلس

صفحة

٧٤	مسؤولية المناصر المرية
٨١	مسؤولية المناصر البربرية
٨٦	مسؤولية المناصر الصقلية
٨٩	المولدون
٩٠	المستعربون
٩٥	طبيعة الشعب الاسباني
٩٦	طبيعة بلاد شبه الجزيرة الابيرية
٩٧	العوامل الاقتصادية
١٠٠	تدخل الفقهاء في السياسة
١٠٣	اخطر السياسي : دولة اسبانيا الشهالية
١٠٧	الاخطر الخارجية

القسم الثالث

تاريخ الخلافة الاموية الاندلسية

من ٤٢٢ - ٣٩٩ هـ

م ١٠٣١ - ١٠٠٩ م

١١٥

الحلقة الاولى :

موقوف آخر العاشرین :

حجاجية عبد الرحمن بن أبي عامر - عبد الرحمن بن أبي عامر يتولى عهد الخليفة - تصرفات عبد الرحمن بن أبي عامر بعد ولادة العهد - عبد الرحمن بن أبي

عامر يسير للفزو - ثورة محمد بن هشام وأسبابها - بدء العمل ونجاح الثورة -
المجوم على الزاهرة - خلع هشام نفسه وبيعة محمد بن هشام - تكرار المجوم
على الزاهرة واحتلالها وهدمها - حال عبدالرحمن بن أبي عامر ، مقتله وانفراط
الدولة العامرة .

١٦١

الحلقة الثانية :

خلافة محمد بن هشام الأولى :

نسبة - أعماله وسوء تصرفه - ثورة هشام بن سليمان بن الناصر - البراءة
بابعون لسليمان بن الحكم ، مسيئ لهم وأحوالهم - معركة قنيش ودخول قرطبة .

١٨٦

الحلقة الثالثة :

خلافة سليمان بن الحكم الأولى :

نسبة واعماله - فرار محمد بن هشام الى طليطلة ومحاولة اخضاعه -
استنجاد محمد هشام بالفرنجية - موقعة عقبة البقر وتتابعها .

١٩٦

الحلقة الرابعة :

خلافة محمد بن هشام الثانية :

دخوله قرطبة واستيلاؤه على الحكم - الاحق بالبربر ، معركة وادي آره -
حال المهدى بعد المعركة - مقتل محمد بن هشام المهدى .

٢٠٥

الحلقة الخامسة :

خلافة هشام بن الحكم الثانية :

نسبة ، صفة اعماله الأولى - البربر يحاصرون قرطبة وينزرون عليها -
استنجاد سليمان بن الحكم بالأنصارى ، تسلیم الحصون لرسول قشتالة - مقتل
واضح - حال قرطبة بعد واضح .

الحلقة السادسة :

خلافة سليمان بن الحكم الثانية :

دخوله قرطبة وأول اعماله - مصير مكتبة الحكم الثاني - تولية البراءة على المدن والاعمال - عوامل ثورة علي بن حمود على سليمان - نجاح ثورة علي بن حمود - مقتل سليمان المستعين - مصير هشام المؤيد بن الحكم ، شخصية سليمان المستعين الادبية .

٢٥٦

الحلقة السابعة :

خلافة علي بن حمود :

وسوله الى الخلافة - ظهور المرتضى الاموي - مقتل علي بن حمود .

٢٦٥

الحلقة الثامنة :

خلافة القاسم بن حمود :

تسليم الخلافة مكان أخيه - خلافه مع أهل قرطبة - زاوي بن زيري - حصار المرتضى لغرناطة ، مقتله - استعداد المرتضى للثورة - احوال زاوي بعد المعركة ، رحيله ثورة يحيى بن حمود ونهاية خلافة القاسم .

٢٨٤

الحلقة التاسعة :

خلافة يحيى بن حمود :

نبوه وصفاته - المصاعب التي واجهته في الحكم - نهاية خلافته .

٢٨٩

الحلقة العاشرة :

خلافة القاسم بن حمود الثانية :

دخوله قرطبة الثانية - ثورة أهل قرطبة عليه وفراوه .

الحلقة الحادية عشرة :

خلافة عبد الرحمن بن هشام :

كيفية وصوله إلى الحكم - أعماله - أسباب الثورة عليه - نهايته - شخصية المستظہر الادیة .

الحلقة الثانية عشرة :

خلافة محمد بن عبد الرحمن :

نسبه وصفاته - أعماله والثورة عليه - نهايته .

الحلقة الثالثة عشرة :

خلافة يحيى بن حمود الثانية :

تسليم الحكم - بقاوته مدة قصيرة في قرطبة ثم منادرته إليها ثانية نائباً عنه - قodium خيران ومجاهد ثم منادرتها المدينة وتركها لمصيرها .

الحلقة الرابعة عشرة :

خلافة هشام بن المعتد :

آخر الخلفاء الامويين في الأندلس .

الخاتمة

المصادر

٣٢٤

٣٢١

٣٣٣

٣٣٦

جدول الأخطاء والتصوّب

صواب	خطأ	مطر	صفحة
أنجعت	أنجحت	٠	٠
٤٢٢ - ٣٩٩	٤٢٢ - ٤٩٩	٨	٥
Pamplona	Pampeona	١٢	٥
طليطلة	اطليطلة	١٤	١٦
Galicia	Lolicia	١٧	١٩
Gerona	Cerona	٨	٢٠
L'Esp , mus	L. SjMus	٢١	٢٤
Asturias	Asturios	١٠	٢٧
Cataluna	Cataiumma	٢٢	٢٨
Badajoz	Badaoz	١٣	٣٠
Beja	Beba	١٣	٣٠
جليقية	جلية	١٤	٣٠
Guadalquivir	Guadal Quipir	١٤	٣١
Badajoz	Badajog	٧	٣٧
Tudela	Tedela	١٥	٣٧
أوفيدو	أوفيد	١٣	٣٩

صفحة	مطر	خطا	صواب
٤٠	١٤	١٠٤	٢٧٥
٤١	٧	٧٨٨	٨٨٨
٤٣	٥	Esclia	Ecija
٤٣	٢١	١٨٨	٢٨٨
٤٤	٢٢	elbira	Elvira
٤٦	١٣	Samora	Zamora
٥٠	٣	San Estelan	San Esteban
٥٠	٣	Alhoudega	Alhandega
٥٠	٢٠	Gluadiax	Guadiax
٥٢	٦	Ardonh	Ordono II
٥٢	٩	فعدا	فساد
٥٢	١٥	اشترا	اُرْ
٥٥	٧	دولة	دول
٥٧	١٧	Atienya	Atienza
٥٧	١١	yerpa	yerba
٥٧	٢٢	Gormag	Gormaz
٧١	١٦	ضفت	ضفحت
٧٩	١٣	يتمع	يتمنع
٨٦	١٤	هي	كـ
٨٧	٢	شعره	شعر
٩٢	٦	Eajyaupos	Gayangos
١٠٠	٣	العشور	المصور
١١٥	٦	H	

<u>صواب</u>	<u>خطأ</u>	<u>سطر</u>	<u>صفحة</u>
بقرطبة	بقططبه	١٩	١٢١
بهواه	بهواده	١	١٢٣
« بالعدوة » المناطق	« بالعدوة والمناطق	١٩	١٢٤
عن ابن بسام	عن ابن الأبار	٢٠	١٦
ملكتها	ملكنا	٢	١٣٧
ما	هما	١٢	١٣٧
بن أبي عامر السفيه	بن أبي السفيه	٣	١٤٤
خوابي	حوالي	٢١	١٤٧
على نقل	على الثورة نقل	٢٢	١٤٧
واشد	وشدة	٩	١٤٨
خربت	خرجت	١٢	١٤٨
ابن	وابن	١١	١٥٠
وبخزائتها	بخزائتها	١٩	١٥٠
ابن ذكوان	وابن زكوان	٧	١٥٥
Gorcia Gamey	Gavcia Gomey	٢١	١٥٥
من يتأوهه القامسة	من يتأوهه القامسة	٤	١٥٦
Guadmellala	Gjudamellata	٢	١٥٧
Coenobium	Coenobicm	٩	١٥٧
شنجول	شيخول	١٦	١٥٧
اختلفت	اختفاف	١٨	١٥٧
الفن	الظني	١٩	١٥٧
E. levi	Elevi	٢٤	١٥٧
de L'Esp.	de L'.esy	٢٤	١٥٧

صواب	خطأ	سطر	صفحة
T II	TH	٢٥	١٥٧
فرآه ، جسده	زآه ، جده	٨	١٥٩
هو	ه	٢	١٦٦
يستعرضون	يتعرضون	٢٠	١٦٩
يقتلهم	يقلهم	١٨	١٧٠
٣٩٩	٦٩٩	٢١	١٧٠
بغية	بؤبة	٢٢	١٧٠
البرازيلي	البرازيلي	١٢	١٧١
وكان محمد كادله	وكان محمد كادله	٣١	١٧٢
البرازالي	البرازلي	٤	١٧٤
zusto Perez	Gusto Perz	٨	١٧٧
Gormaz	Gamaj	١٠	١٧٧
Sepubeda	sepubeba	١١	١٧٧
وخطبها	وغطتها	٦	١٨٣
Armengal	Armejol	٣	١٩٢
وحفظ	وحفظها	٢٠	١٩٢
Son Cugat del vallés	San Cugat de vales	١٤	١٩٨
الحرة	الحر	٦	٣٠٦
Garmaz	Garmaj	٣	٢١٣
San Esteban	San Este Pan	٤	٢١٣
رجله	رجلة	١٦	٢١٥
Precisiones	yrecisiones	١٨	٢١٥
ruina	riuina	١٨	٢١٥

صواب	خطأ	مطر	صفحة
لمع	لَحْ	١٤	٢٢٠
قتلهم	قتلهم	٢	٢٠١
وكبده	كبدة	٤	٢٢٢
مقتلهم	مقْلَه	٣	٢٢٥
ابو سالمة الزاهد	ابو ازاهد	١٢	٢٢٥
ولا هما	ولَا همَا	٢٦	٢٢٥
فكان	فان	٦	٢٢٦
ودفنته	وفته	١٤	٢٢٦
واستقضائه	واستقضاه	٢٠	٢٢٦
بقرطبة	بقرظبه	٢١	٢٢٦
فقطعي ين	فقطي تين	٢١	٢٢٦
ولبلغوا	وتلفوا	٢٣	٢٢٦
Segovia	Segunia	٢٠	٢٢٩
فانه	لَاه	١٥	٢٣٠
Cardoba	Casdaba	٢٢	٢٣٠
حيان	حيان	١١	٢٣٥
على	كل	١٢	٢٣٥
Hespéris	Herpéris	١٦	١٣٥
فحمل	سحمل	٥	٢٤٩
غريب	عيب	٦	٢٤٩
يعجل	أعمل	٨	٢٤٩
ويتبني	ويتبي	١	٢٥٠
بن القحطان	بن القحطان	٢١ ، ٤	٢٥١

صواب	خطأ	سطر	صفحة
اثبت	اتبعت	٥	٢٥٤
الآفة	الامة	٦	٢٥٧
لقتال	انقال	٦	٢٦١
فتسم	فقسم	٢	٣٦٦
Baeza	Baeiza	١٠	٢٦٦
وتحيزهم	وتحيزهم	١٥	٢٧١
وبعهم	وبتهم	١١	٢٧٥
يتفهبا	يتقفاها	١٦	٢٧٩
Prrveneal, fase pravençae,fase		٢١	٢٧٩
(٢) هامش	(١) هامش	١٤	٢٨٥
والعملية	والعادية	٢	٢٨٧



تاریخ العرب في اسپانيا

نهاية الخلافة الاموية في الاندلس

~~~~~

منشورات مكتبة دار الشرق

سنة ١٩٦٣

تاك

\*PB-37348  
5-20T  
C-C

NYU - BOBST



31142 01168 6063  
DP102 S9  
Tariq al-Arab fi Istibanya : ni

# Histoire des Arabes en Espagne Fin du Khalifat Omayade en Andalousie

PREMIÈRE ÉDITION

par  
Docteur

KHALED SOUFI

ALEP  
Lib. Orient

العن

٥٠٠ ق.س او ما يعادلها